

أعلام العرب

المختار الثقفى

مرآة العصر الأموى

تأليف

الدكتور على حسنى الخربوطلى

وزارة الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

المختار بن أبى عبيد الثقفى أحد رجالات العرب المبرزين ، ومن أشهر الشخصيات التى عرفها التاريخ الاسلامى عامة ، وتاريخ صدر الإسلام خاصة . فقد لعب دورا كبيرا أثر فى الحوادث السياسية والحياة الدينية والاجتماعية ، فى الدولة العربية الاسلامية فى عصر بنى أمية . وأثر فيها أثرا ظاهرا لم يقطع بانتهاى حياته سنة ٦٧ هـ ، بل ان سياسة المختار قد أثرت آثارا عميقة واضحة فى الحياة السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية فى العالم الاسلامى وخاصة بلاد العراق وفارس وخراسان والحجاز ، فقد أحيا المختار فى نفوس الموالى (١) آمالا عريضة عملوا على احيائها طوال العصر الأموى واستطاعوا أن يدفعوا العباسيين الى العمل على اسقاط الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ ، كما أثر فى تاريخ أحزاب الشيعة والخوارج والزبيريين والتوايين ، تلك الأحزاب التى كان لها آثارها فى عصر بنى أمية .

وقد اعتاد المؤرخون العرب أن يقولوا ان دهاة العرب أربعة :

(١) الموالى : المسلمون من غير العرب .

معاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ،
وزياد بن أبيه . ولو أنصفوا لأضافوا لهؤلاء المختار بن أبي عبيد
الثقفي . فتاريخه يثبت أنه كان على جانب كبير من الذكاء والدهاء
الى جانب الشخصية القوية والعقل المدبر ، وهو لا يقل دهاء عن
معاصريه الدهاة الأربعة . ولكن المؤرخين لم ينصفوه كما
أنصفوهم ، وقد يرجع السبب في ذلك الى أنه لم يبايع له بالخلافة ،
بل اعتمد على نفسه وعلى دهائه وجهوده فيما وصل اليه من
سلطة وثقوذ ، فقد استطاع أن يكون الرجل الأول في بلاد
العراق منذ وفاة يزيد بن معاوية الى أوائل خلافة عبد الملك بن
مروان . ويعلل المؤرخ (فلهوزن) عدم انصاف المؤرخين العرب
للمختار بأنه وقف الى جانب الموالى وعمل على تحسين أوضاعهم
السياسية والاجتماعية مما أغضب بعض العرب منه .

وتتمثل في شخصية المختار جوانب عديدة ، فهو أحد أبناء
ثقيف ، تلك القبيلة العربية الكبيرة التي سادت في الطائف في
العصر الجاهلي ، وكانت منزلتها في الطائف على مثال مكانة قريش
في مكة . ثم برزت هذه القبيلة في العصر الاسلامي ، فقد أخلصت
دائماً للإسلام ، وبرز من أبنائها رجال أبطال استطاعوا أن يحتلوا
مكانة كبيرة في التاريخ الاسلامي ، مثل المغيرة بن شعبة والى
العراق المشهور ، والحجاج بن يوسف الثقفي سيف بنى مروان ،
ومحمد بن القاسم الثقفي فاتح الهند . ونضيف الى هؤلاء
الثقفيين المختار بن أبي عبيد الثقفي .

والمختار سياسى محنك من الطراز الأول ، وقد استطاع أن

يدير دفة السياسة في الحجاز والعراق ، كما وضع في العراق
أسس حكومة منظمة عادلة ، وبرز في ميدان الحكم والادارة .
كما كان قائدا حرييا عظيما أثبت كفاءته في شتى الميادين الحربية ،
بل برزت بطولته منذ صباه حين وقف الى جانب أبيه أبي عبيد
ابن مسعود قائد الجيش العربى في فتوح العراق في خلافة عمر
ابن الخطاب .

والمختار شيعى متحمس ينصر البيت العلوى وبنى هاشم ،
فتراه يفتح باب داره أمام مسلم بن عقيل بن أبى طالب مبعوث
الحسين بن على الى العراق ، فتصبح داره ملتقى الشيعة ثم نراه
مناوئا للحكم الأموى بالعراق ، ثم نراه وزيرا لعبد الله بن الزبير
الذى أعلن نفسه خليفة في الحجاز . ثم يرحل المختار الى العراق
فيصبح الرجل الأول ، ويعلن أنه وزير محمد بن على بن أبى
طالب ، المعروف بابن الخنفية ، ويأخذ بثأر الحسين من قتلته .

ولعلنا على صواب اذ وصفنا المختار بأنه (مرآة العصر
الأموى) لأن تاريخه في الحقيقة هو تاريخ الأحزاب السياسية ،
والفرق الدينية في ذلك العصر ، فقد أثر في تاريخ الحركة
الزبيرية ، وكان عاملا من عوامل اخفاقها ، كما لعب دورا كبيرا في
ضياع بلاد العراق والحجاز من قبضة الدولة الأموية بعد وفاة
يزيد بن معاوية الى أن استردها عبد الملك بن مروان .

وتاريخ المختار يرتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ حزبى الشيعة
والخوارج . فقد اصطدمت حركة المختار بحزب الخوارج ، كما

أثر المختار في مصير حركة التوابين الشيعية بالعراق ، وكان وزيرا للعلوين بالعراق وممثلا لهم ، ونصير بنى هاشم بالحجاز .
وينتسب الى المختار فرقتان كبيرتان من فرق الشيعة هما الكيسانية والمختارية ، وقد تفرع عن الكيسانية فرقة الهاشمية التي لعبت دورا رئيسيا في قيام الدولة العباسية . كما أن المختار هو الذى بث روح القوة والحياة في حزب الموالى ، فقد رفع من شأنهم وأنصفهم ودافع عنهم وبث فيهم آمالا وطموحا ، وعمل على تحسين أوضاعهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وحرص الموالى على هذه الحقوق طوال العصرين الأموى والعباسى .

ويرى المؤرخ (فلهوزن) أن المختار خليق بالمديح لكونه كان أسبق من غيره في ادراك أن الأحوال القائمة آنذاك لا يمكن أن تبقى كما هى ، فقد كان العنصر العربى هو وحده يتمتع بالحقوق المدنية كاملة في الدولة ، ولو كان المختار قد حقق هدفه الأسمى ، لكان منقذ الدولة العربية .

ورغم هذه الأهمية الواضحة لتاريخ المختار ، فإن هذا الرجل لم ينل حقه من مؤرخى التاريخ العربى الاسلامى ، فلا نرى كتابا قد تناول تاريخ هذا البطل العربى ، ولكن آن الأوان ليسترد ما يستحقه من دراسة وتقدير وانصاف ، فهو جدير بأن نضم تاريخه الى تواريخ غيره من أعلام العرب . والله ولى التوفيق .

المؤلف

الجيزة فى ديسمبر ١٩٦٢ .

المختار: قبيلته، أسرته، شخصيته، صفاته

الطائف وقبيلة ثقيف في الجاهلية - ثقيف بعد
ظهور الاسلام - أسرة المختار - نشأة المختار - شخصية
المختار بين رجالات ثقيف - بين المختار والمغيرة بن شعبة
الثقفى - بين المختار وزياد بن أبيه - بين المختار
والحجاج بن يوسف الثقفى - صفات المختار .

الفصل الأول

المختار: قبيلته، أسرته، شخصيته، صفاته

الطائف وقبيلة ثقيف في الجاهلية:

ينتسب المختار بن أبي عبيد بن مسعود الى قبيلة ثقيف ،
وهي قبيلة عربية مجيدة ، سكنت الطائف قبل ظهور الاسلام منذ
زمن بعيد ، وسادت الطائف ، وأصبحت مكانة ثقيف في الطائف
تمثل منزلة قريش في مكة .

كانت مدينة الطائف قبل أن تصبح لثقيف السيادة فيها تسمى
(وج) نسبة الى وج بن عبد الحى أحد العمالقة الذين سكنوها ،
وكانت تقع على بعد اثني عشر فرسخا شرقى مكة على منطقة
مرتفعة من الأرض ، مما أدى الى اعتدال جوها ، وانتشار
الحدائق الغناء والبساتين الياض الزاهرة بشتى أنواع الفاكهة ،
حتى أنها وصفت بأنها « بقعة من الشام انتقلت الى الحجاز » ،
وكانت هذه المدينة لطيب هوائها مصيفا للطبقة الأرستقراطية في
مكة ، وارتبطت الطائف بمكة ارتباطا وثيقا ، فكان أثرياء قريش
بمكة يمتلكون العقارات بها ، ويقرضون أهل الطائف ما يحتاجون

من أموال ، كما كانت قریش تعتمد على ما تنتجه الطائف من كروم
فى انتاج الزبيب الذى تضعه فى ماء زمزم لسقاية الحجاج (١) .
واقترن اسم مكة والطائف فى العصر الجاهلى والعصر الاسلامى ،
فجاء فى القرآن الكريم (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل
من القرينتين عظيم) (٢) .

كانت ثقيف تقيم بالطائف ، ويروى المؤرخون فى سبب اطلاق
اسم ثقيف على هذه القبيلة أن قسيا بن منبه بن بكر بن هوازن
لما رحل من وادى القرى الى وجّ التى عرفت باسم الطائف ، قابل
زعيمها عامر العدوانى ، وطلب منه أن يزوجه احدى بناته ، فزوجه
اياها وأنجب منها أولادا ، ثم توفيت ، فتزوج أختها ، واستقر
مقامه بهذا البلد وغرس بأرضه بعض العيدان التى أخذها من
عجوز يهودية كان قد أقام عندها بواضى القرى . فلما أثمرت
العيدان ، قال أهالى وجّ : قاتله الله كيف ثقف عامرا حتى بلغ منه
ما بلغ ، وكيف ثقف هذه العيدان حتى جاء منها ما جاء ، فسمى
ثقيفا من يومئذ .

وكثر نسل ثقيف ، وأصبح أبناؤه وأحفاده يمثلون قبيلة
عظيمة كثيرة العدد ، وأصبح لها السيادة فى الطائف ، ورأت ثقيف
أن تبنى حول مدينتهم (وج) سورا يحصنها ، حتى اذا انتهى

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٥٨ وما بعدها .

(٢) سورة الزخرف آية ٣١ .

بناء الشؤر الفنى أصبح (يطوف) بالمدينة ، أصبح يطلق على
المدينة اسم (الطائف) (١) .

ثقيف بعد ظهور الاسلام

ولما ظهر الاسلام ، ونزل الوحي على محمد صلى الله عليه
وسلم بمكة ، بدأ يدعو عشيرته وقريشا وغيرها من القبائل العربية
الى الاسلام ، وتعرض المسلمون الأوائل الى صنوف الاضطهاد
والتعذيب من قريش التى أدركت أن انتشار الاسلام يقضى على
سيادتها السياسية ونفوذها الدينى ، فقد كانت قريش حامية
الكعبة مركز الوثنية وأدى هذا الى علو شأنها بين العرب . حتى
إذا اشتد عذاب قريش للمسلمين سمح لهم بالهجرة الى الحبشة
فقد كان ملكها يشتر بالعدل والتسامح .

لم يفكر الرسول فى هجرة المسلمين الى احدى المدن العربية
بالحجاز ، كالتائف مثلا ، فقد كانت معظم القبائل العربية ترفض
دعوته فى مواسم الحج مجاملة لقريش أو تمسكا بدينها الوثنى .
وغضبت قريش لهجرة المسلمين الى الحبشة ، فبعثت وفدا محملا
بالهدايا الفاخرة ، يطلب من نجاشى الحبشة رد المهاجرين الى
مكة . ولكن النجاشى كان بعيد النظر ، فطلب من المهاجرين أن
يحدثوه عن حقيقة دينهم ، فشرحوا له تعاليم الاسلام ، فبكى
النجاشى وقال : ان هذا الذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٦ ص ١٢ - ١٤ .

وأحدة ، انطلقا والله لا أسلمهم اليكما . ورجع وفد قريشل يجر
أذيال الخيبة (١) . وظل المهاجرون في الحبشة حتى هاجر الرسول
الى المدينة فعاد معظمهم .

كانت هجرة المسلمين الى الحبشة قرارا من أذى قريش ، كما
كان اسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب ضربتين
أصابتا قريشا في الصميم ، فرأى القرشيون أن يتخذوا أمرا
حاسما فاتفقوا على مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب ، وعاهدوا
أنفسهم على ألا يتعاملوا معهم في بيع أو شراء أو زواج ، ولا
يجالسوهم ولا يكلموهم ، حتى يسلموا اليهم محمدا ليقتلوه ،
وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة . وظل بنو هاشم
وبنو عبد المطلب مهجورين في شعب من شعاب مكة ثلاث سنين ،
لا يصلهم الا القوت الضروري خفية ، حتى عطف بعض القرشيين
عليهم فدعوا الى انتهاء المقاطعة .

كانت وفاة أبى طالب عم الرسول صدمة عنيفة له ، فلم يكن
أكثر أقاربه عطفاً ومودة فحسب ، بل كان ييسط عليه حمايته
بما كان له من نفوذ عظيم في مكة . حتى اذا مات أبو طالب ، لم
يجد الرسول من يدفع عنه عدااء أبى سفيان وأبى جهل ، اللذين
ما لبثا أن أثارا عدااء القرشيين له ، وشعر محمد أنه لم يعد يأمن
على نفسه في مكة ، فخرج مع مولاه زيد بن حارثة ليهشأ عن
ملجأ في الطائف .

دخل محمد الطائف ، في ثقة واطمئنان ، معتمدا على ما كان

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٦٠ .

لعمه العباس بن عبد المطلب من نقوذ ، فقد كان يملك شيئا من العقار في الطائف . ولكن الطائف خيبت ظنه ، فقد كانت من أكبر معاقل الوثنية ، وكان أهلها من ثقيف يتوجهون بعبادتهم الى (اللات) وهى وثن من الحجر مغطى بالحلى والأخجار الكريمة ، وكان أهل الطائف يتقدمون اليها بالذور والقربان ، ويعتبرونها احدى بنات الله .

مكث محمد فى الطائف نحو شهر وحاول عبثا أن ينشر الاسلام بين أهلها ، فكان اذا وقف يدعوهم الى الاسلام يضيع صوته وسط ضجيجهم . وحدث مرة أن أصيب الرسول بجراح اثر قذفه بالحجارة ، وحاول زيد بن حارثة عبثا أن يحميه منها ، واشتد اضطهاد أهل الطائف له ، وما لبثوا أن أخرجوه من مدينتهم ، وتتبعه بعض الأرقاء والأطفال السفهاء يوجهون اليه الالهات . وكان هذا الموقف الذى وقفته ثقيف من الرسول داعيا لأن ينصرف الرسول عن الطائف ويفكر فى الهجرة الى يثرب ، وكانت الطائف تفضل يثرب لقربها من مكة واتصالها الوثيق بها .

سار الاسلام يشق طريقه فى نجاح يوما بعد يوم ، فهاجر الرسول والمسلمون الى يثرب ، واستطاعوا أن ينتصروا فى عدة ميادين على قريش ، وما لبث الرسول أن دخل مكة وحطم أصنام الكعبة معلنا أن دولة الأصنام قد دالت ، وبدأت دولة الاسلام .

وبعد فتح مكة بخمسة عشر يوما ، علم الرسول بقدوم هوازن وثقيف لقتال المسلمين ، والتقى الجيش الاسلامى بهاتين القبيلتين وهزمهما فى موقعة حنين سنة ٨ هـ ، وانسحبت فلول القبيلتين الى

الطائف حيث اعتصمت بها ، فحاصرها الرسول خمسة عشر يوما ،
وهدد أهلها باتلاف بساتينهم وتحريق كرومهم ، وعز على ثقيف
كرومها ولكنها أبت الاستسلام ، حتى اذا دنا شهر ذى القعدة ،
وهو من الأشهر الحرم ، ، فك عنها الحصار ليرجع اليهم بعد
انقضاء الأشهر الحرم (١) .

ظنت ثقيف ، وقد رأت أن جيش المسلمين يتراجع عن الطائف
دون أن يكرههم على التسليم ، أنها قد امتنعت بحصونها على
الرسول وانتصرت على المسلمين ، وهم الذين دانت لهم الجزيرة
العربية كلها ، فاعتزت ثقيف بهذا النصر وشمخت بأنفها على
سائر القبائل . ولم تدر أن الرسول إنما عدل عن حصارها وتركها
لحصار أطول وأشد ، فقد صارت بوثيتها في الطائف في عزلة عن
سائر العرب حولها ، الذين أسلموا وأصبحوا يناصبونها العداء ،
ويعتبرون أنفسهم في حالة حرب معها لمناوأتها الاسلام وتعذيبها
من أسلم من أهلها (٢) .

شعرت ثقيف بشدة وطأة هذا النوع من الحصار ، ورأت أن
تعتنق الاسلام . فقدم وفد ثقيف على الرسول في الشهر الذي عاد
فيه من غزوة تبوك (رمضان سنة ٩ هـ) وعرضوا عليه اسلامهم ،
وشرطوا عليه أن يعفيهم من الصلاة ، وأن يترك لهم معبودتهم
« اللات » لا يهدمها ثلاث سنين . فأبى الرسول الا أن يدخلوا

(١) ابن هشام ج ٤ ص ٢٧ وما بعدها .

(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ١ ص ١٤٥ .

في الاسلام من غير قيد ولا شرط ، حتى لقد سألوه أن يتركها
سنتين بدلا من ثلاث ، ثم سنة ثم شهرا ، فأبى أيضا . غير أن
الرسول أعفاهم من أن يهدموها بأيديهم (١) .

ورغم تأخر ثقيف في اعتناق الاسلام وحرصها على وثنياتها ،
فقد أصبحت هذه القبيلة بعد اسلامها من أشد القبائل العربية
تحمسا للاسلام وبذلت جهودها في سبيل نشره . فتمسكت ثقيف
بالاسلام بعد وفاة الرسول رغم ارتداد عدد كبير من القبائل
العربية ، فقد كان الاسلام مقصورا على أهل مكة والمدينة
والطائف وقبيلة عبد القيس . ولم يكن مقاومة ثقيف للاسلام زمن
الدعوة الا لأنها خشيت على ما كان لها في العصر الجاهلي من
نفوذ سياسى ، وسيادة في الطائف .

ظهر من قبيلة ثقيف أبطال كثيرون منهم أبو عبيد بن مسعود
والد المختار ، وعروة بن مسعود عمه ، والمغيرة بن شعبة أحد دهاة
العرب الأربعة ووالى معاوية في العراق ، والمختار بن أبي عبيد
الثقفى رجلنا في هذا البحث ، والحجاج بن يوسف الثقفى عضد
الدولة الأموية في عهد الخليفين عبد الملك بن مروان والوليد بن
عبد الملك ، ومحمد بن القاسم الثقفى القائد الحربى المشهور
وفاتح الهند المعروف ، ويوسف بن عمر الثقفى والى العراق في
أواخر العصر الأموى ، وغيرهم .

(١) ابن هشام ج ٤ ص ٢٠٠ .

أثره المختار:

كان عروة بن مسعود — عم المختار — من السابقين من
ثقيف إلى الإسلام . فبعد عودة الرسول إلى المدينة بعد حصار
الطائف وفد عليه عروة بن مسعود وأعلن اعتناقه الإسلام ، وكان
عروة من سادات ثقيف . وكان في أثناء حصار الطائف في اليمن
يتعلم صناعة الدبابات والضبور التي عزمت ثقيف على أن تعدها
لمهاجمة الرسول في موقعة حنين . فلما علم عروة بانصراف الرسول
عن الطائف وذهابه إلى المدينة لحق به حتى قيل انه أدركه قبل أن
يصل إلى المدينة . فلما أسلم استأذن الرسول في العودة إلى الطائف
ليدعو قومه إلى الإسلام ، فخشى على الرسول عنت أهل الطائف
وحذره أن يقتلوه ، فعزم على الذهاب معتمداً على شرف بيته فيهم
ورفعة شأنه بينهم ، وقال للرسول : « أنا أحب إليهم من
أبكارهم » .

فلما وصل عروة إلى الطائف دعا قومه إلى الإسلام ، حتى
إذا كان الفجر صعد إلى عليّة له ^(١) ، ودعا من فوقها إلى الصلاة
والإيمان بالله ، فاجتمعوا عليه ورموه بالنبل ، فمات مغتبطاً
باستشهاده في سبيل الله ، وطلب أن يدفن مع من استشهد من
المسلمين في حصار الطائف فدفن معهم . ولجأ ابنه مليح ومعه

(١) غرفة في أعلى البيت .

قارب بن الأسود الى الرسول — وقد أسلما — « يريدان فراق
ثقيف وألا يجامعاهم على شيء أبدا » (١) .

أما أبو عبيد بن مسعود ، والد المختار ، فقد اعتنق الاسلام
وأخلص له ، وأصبح من أبرز المجاهدين في سبيل نشره ، فكان
قائدا من قواد الجيوش الاسلامية التي توجهت لفتح العراق في
مطلع خلافة عمر بن الخطاب ، ومات في ساحة القتال شهيدا من
أجل رفعة شأن الاسلام .

وفي نفس الليلة التي توفي فيها أبو بكر وتولى الخلافة عمر
ابن الخطاب ، افتتح عمر عهده بنذب المسلمين للقتال مع المشي
ابن حارثة في فارس ، وفي اليوم الرابع بدأ ينتدب المسلمين لفتح
العراق فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود واختار عمر ألف
رجل من أهل المدينة وضعهم تحت قيادة أبي عبيد . واعترض
البعض على اختيار أبي عبيد لقيادة هذا الجيش وطلبوا من عمر
أن يختار بدله أحد صحابة الرسول أو أحد كبار المهاجرين
والأنصار ، فأبى عمر وقال لهم : « لا والله لا أفعل ، ان الله انما
رفعكم بسبقكم وسرعتكم الى العدو ، فاذا جبنتم وكرهتم اللقاء
فأولى بالرياسة منكم من سبق الى الدفع وأجاب الى الدعاء ، والله
لا أؤمر عليهم الا أولهم اتدابا » . وتوجه عمر الى أبي عبيد
بالنصيحة فقال : « اسمع من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم
وأشركهم في الأمر ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين ، فانها الحرب ،

(١) ابن هشام ج ٤ ص ١٩٤ - ١٩٥ .

والحرب لا يصلها الا الرجل المكث الذي يعرف الفرصة والكف» (١).

أبدى أبو عبيد في ميدان القتال شجاعة واستبسالا ، كما أبدى تسامحا وشهامة ، فيروى الطبرى (٢) أن القائد الفارسى (جaban) قد وقع أسيرا في يد أحد القواد العرب وهو مطر بن فضة فاستطاع جaban أن يخفى عن مطر أنه يتولى القيادة ، فظنه جنديا بسيطا ، فأمنه على نفسه وأطلق سراحه ، ثم قبض المسلمون عليه مرة أخرى وأتوا به أبا عبيد وأخبروه بمركزه الممتاز بين جنده وأشاروا عليه بقتله ، فأبى أبو عبيد وقال : انى أخاف الله أن أقتله وقد آمنه رجل مسلم ، المسلمون فى التواد والتناصر كالجسد ما لزم بعضهم فقد لزمهم كله . فقالوا له : انه الملك . قال : وان كان لا أغدر . فتركه .

وفى خلال الحرب مع الفرس ، حاز المسلمون أنواعا فاخرة عديدة من الطعام ، لا تقارن بما كانوا يتناولونه من طعام بسيط فى الجزيرة العربية ، ولما نزل أبو عبيد احدى قرى فارس ، صنعوا له طعاما فاخرا ، ولكن أبا عبيد رفض تناول هذا الطعام الفاخر ، ولم يقبل على الأكل الا بعد أن أقنعوه أن جميع الجند يتناولون هذه الأنواع الفاخرة من الطعام ، فيروى الطبرى (٣) : «..فصنع لأبى عبيد طعام فأتى به فلما رآه قال : ما أنا بالذى أكل

(١) الطبرى ج ٢ ص ٦٣١ .

(٢) الطبرى ج ٢ ص ٦٣١ .

(٣) الطبرى ج ٢ ص ٦٣٧ .

هذا دون المسلمين . فلما رجعوا اليه سألهم عن طعامهم فأخبروه بما جاءهم من الطعام . » .

ومات أبو عبيد شهيدا أثناء قتاله الفرس على شاطئ الفرات ، فقد أراد الفرس أن يحلوا هزائمهم نصرا فيثوا الرعب في قلوب المسلمين ، فجعلوا القيلة في مقدمة جيوشهم ، فلما رأتها خيول المسلمين أجفلت ، فقد غطى الفرس القيلة بسعف النخيل وعلقوا عليها الأجراس . وتقدم أبو عبيد في مقدمة المسلمين ، فهجم عليه فيل أبيض ، فوجه أبو عبيد اليه ضربة بسيفه تلقاها الفيل بقدمه ، وما لبث الفيل أن أوقع أبا عبيد أرضا وداسه بأقدامه . وتولى القيادة سبعة رجال من أبناء ثقيف على التوالي فكانوا يلقون حتفهم الواحد بعد الآخر ، وتقدم قائد ثقيف هو عبد الله بن مرثد الثقفي فاستطاع أن يقود المسلمين ويعبر بهم نهر الفرات فنجا من القيلة ، وقتل في هذه المعركة أربعة آلاف بين قتيل في المعركة وغريق في نهر الفرات .

كان أول هؤلاء الثقيفين السبعة الذين خلفوا أبا عبيد في القيادة ابنه جبر ، وكان أبو عبيد قد عهد اليه بالقيادة قبل المعركة اذا أدركته المنية ، وأوصى الجند المسلمين بطاعته . وكان هذا العهد نتيجة نبوءة تنبأت بها (دومة) زوجة أبي عبيد ، وأم جبر والمختار . فقد رأت في منامها أن رجلا نزل من السماء معه اناء فيه شراب من الجنة ، فشرب منه أبو عبيد وابنه جبر وأناس من أهله .

نشأة المختار :

يحيط الغموض بطفولة المختار ، فقد أهمل المؤرخون دراسة حياة المختار في مطلع حياته ، ولم يبدوا اهتماما الا بتاريخه بعد أن ظهر على مسرح الأحداث في العراق ، مما يجعل مهمتنا عسيرة اذا أردنا أن نلقى الضوء على حياة المختار في طفولته أو صباه . ونستطيع أن نستتج ما روته المصادر القديمة من أخبار المختار أنه ولد في السنة الأولى من الهجرة ، فالمصادر تذكر أنه قتل في سنة ٦٧ هـ وكان حينئذ في السابعة والستين من عمره (١) . وقد ولد في مدينة الطائف حيث عاش أبوه أبو عبيد وآله من قبيلة ثقيف صاحبة السيادة في الطائف . وأمه (دومة) وهى امرأة عربية أثبتت بطولتها اذ صاحبت زوجها أبا عبيد خلال قيادته جيوش المسلمين في العراق ، وشاركته جهاده في سبيل الله والاسلام ، وشاهدت مصرع زوجها وابنها جبر . وكان المختار وقت أن استشهد أبوه وأخوه في الثالثة عشرة من عمره ، وكان مصاحبا لوالديه وأخيه (٢) .

ويتحدث المؤرخون القدامى أن دلائل النجابة بدت على المختار في حداثة سنه ، فهم يروون أن أباه جاء به الى على بن أبى طالب وهو صبي فأجلسه على " على فحذه ، ومسح على رأسه

(١) الطبرى ج ٤ ص ٥٧٧ .

(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢١٤ .

قائلا : يا كيس يا كيس . ويعلق أحد المؤرخين الشيعة (١) على ذلك بقوله : فكانت هذه الكلمة دليلا على ما يظهر على يد المختار من مظاهر السداد ، والأخذ بحق العلويين وطلب تراثهم ، وإن هذه الكلمة . الصادرة من أمير المؤمنين عليه السلام من مخبات المستقبل ، وإنها ألمت الى الحوادث التي يقوم بها ، وكان المختار يحسب لهذه البشارة حسابا ويحدث بها نفسه .

كان خروج المختار مع أبيه الى بلاد العراق لقتال الفرس أول عهد المختار بهذه البلاد ، وقد استمر هذا الاتصال طوال عهد الخلفاء الراشدين وزاد قوة في عصر الدولة الأموية واستمر المختار يكافح حتى أصبح الرجل الأول في العراق .

أصبح عم المختار ، وهو سعد بن مسعود ، واليا في مدينة المدائن بفارس ، وعاش المختار في كنف عمه . وحدث أن بايع العراق للحسن بن علي بعد مصرع أبيه علي بن أبي طالب ، بينما بايع أهل الشام معاوية بن أبي سفيان ، وبدأ الصراع بين الخليفين ، وبدأ كل منهما يمد نفوذه الى سائر الأمصار الاسلامية ، ولكن كفة معاوية كانت راجحة ، وربما شعر المختار أن الأحداث تضي لصالح معاوية وأنه سيفوز بالنصر على الحسن حتما ، فرأى أن يسبق الأحداث ، فنصح عمه بالتخلي عن الحسن وتسليمه لمعاوية ، ولكن سعدا أعرض عن رأى

(١) المرقم : الشهيد مسلم بن عقيل ص ١٩٩ .

المختار (١) . ويذكر المؤرخ البلاذري (٢) أن المختار كان في رأى الشيعة في عهد الحسن بن على (عثمانيا) ، وكانت هذه التسمية تطلق على كل من غضب لمقتل عثمان بن عفان واعتبر أنه قتل شهيدا مظلوما ، وأبدى سخطه على قتلته ، وأيد بنى أمية في مطالبتهم بثأره وخاصة معاوية ، وعاب على على بن أبى طالب أنه تلقى تأييد الثوار على عثمان ، وأهمل طلب ثأر عثمان .

ربما كان المختار (عثمانيا) كما وصفه البلاذري ، لكن ذلك كان قبل قيام الدولة الأموية ، حتى اذا بدأ العصر الأموى وشهد المختار سياسة الولاة الأمويين بالعراق ، وشهد معاوية وقد صبغ دولته بصبغة دنيوية تشابه ما كانت عليه دولة الفرس ودولة الروم ، فقد أصبح معاوية فى نظر بعض المسلمين شبيها بكسرى فارس وقيصر الروم ، كما أنه جعل الخلافة وراثية فقد عهد لابنه يزيد بعده بالخلافة . ربما كانت هذه العوامل دافعة للمختار أن يتحول من (عثمانى) يعطف على الأمويين وقتيلهم عثمان ، الى العطف على العلويين أو الشيعة ، فراه يروغ من زياد بن أبيه ، والى معاوية بالعراق ، حين طلب منه أن يوقع عريضة الشكوى ضد حجر بن عدى شيخ الشيعة بالعراق حتى يتخذ زياد من هذه العريضة ذريعة لاقدامه على قتل عدى (٣) .

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٢٢ .

(٢) أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢١٤ .

(٣) الطبرى ج ٤ ص ١٨٨ .

وقد تزوجت أخت المختار من شخصية كبيرة لها أهميتها في تاريخ صدر الاسلام ، وهو عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وكان المسلمون قد رشحوه ليتولى الخلافة بعد عمر ، لكن أباه رأى أن بنى الخطاب يكفيهم تولى واحد منهم الخلافة ، ولكن عمر جعل لابنه عبد الله دورا في اختيار الخليفة من بين الصحابة الستة الذين حددهم عمر ليختار المسلمون من بينهم خليفته ، فجعله مستشارا لهم . واستفاد المختار من مصاهرة عبد الله بن عمر ، فقد شفع له مرتين لاطلاق سراحه من السجن ، فقد سجنه في أول الأمر عبيد الله بن زياد والى الخليفة الأموي يزيد بن معاوية بالعراق ، ثم ألقى به في السجن ولاة عبد الله بن الزبير بالعراق . وكان اطلاق سراحه من السجن في هاتين المرتين فرصة أتاحت له أن يلعب دوره بمهارة في تاريخ العالم الاسلامي .

وتزوج المختار من زوجتين . أحدهما عمرة ابنة النعمان بن بشير الأنصاري ، والى الخليفة يزيد بن معاوية بالكوفة . وخلال ولاية النعمان حكم الكوفة ، قدم مسلم بن عقيل وقد أوفده الحسين بن علي ليأخذ له البيعة من الكوفيين . وتزل مسلم في دار المختار التي أصبحت ملتقى شيعة علي ، وكانت مصاهرة المختار للنعمان دافعا للنعمان على أن يسكت عن مسلم والمختار ، مما أدى الى انتشار دعوة الشيعة في الكوفة .

أما زوجة المختار الأخرى ، فهي أم ثابت بنت سمرة بن جندب الفزارى نائب زياد بن أبيه في البصرة في عهد الخليفة معاوية بن

أبى سفيان ، وقد قام سمره هذا بنصيب كبير في حرب
الخوارج (١) .

وقد أبدت الزوجتان إخلاصا وحبا نادرين للمختار ، فقد أبتا
أن تنكرا للمختار بعد مصرعه حينما طلب منهما قاتله مصعب بن
الزبير أن يتبرأ منه ويكفرانه ، فقالتا : كيف نتبرأ من رجل يقول
ربى الله !؟ (٢) .

شخصية المختارين رجالات ثقيف :

اشتهرت قبيلة ثقيف بأنها تنجب رجالا ممتازوا بالذكاء
والدهاء والفتنة . فيروى ابن هشام أن الرسول حين حاصر مدينة
الطائف سنة ٨ هـ انضم الى جيشه عيينة الفرارى ، لا لكى يقاتل
ثقيفا ، ولكنه كان يأمل أن يتم للنبي عليه السلام فتح الطائف ،
فيصيب هو جارية يتبطنها ، لعلها أن تلد له رجلا فطنا ، لأن ثقيفا
كما يقول « قوم مناكير » يعنى أنهم دهاة فطنون ، أما عيينة نفسه
فلم يرث دهاء ولا يستطيع أن يورثه (٣) .

أنجبت الطائف كثيرا من رجالات العرب الذين لعبوا دورا كبيرا
في تاريخ صدر الاسلام ، في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين . وقد
أجمع المؤرخون على تمجيد هؤلاء الثقيفين ، وفي مقدمة هؤلاء
المؤرخ الألمانى (فلهوزن) الذى قال : ارتفع شأن الطائف ،

(١) أنظر الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢١٠ وما بعدها .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٤٣ .

(٣) سيرة ابن هشام ص ٨٧٤ (طبعة أوروبا) .

كما ارتفع شأن مكة والمدينة ، بفضل الاسلام ، واتخذت الطائف ، من حيث هي مدينة ، موقعا ممتازا فوق عصيات القبائل ، كما تجلّى ذلك أيام الردة في سنة ١١ هـ . وقد انضم الثقيفون من أول الأمر ، خلافا للأنصار ، انضماما نهائيا الى قريش صاحبة السيادة ، وخصوصا الى الأمويين ، وكان لهؤلاء صلات وثيقة بالطائف ، وكانوا فيها أصحاب ثراء . وكان الثقيفون مشهورين بالدهاء والفظنة ، وقد أقاموا الدليل على ذلك ، وقد ظهر منهم في عصر الأمويين عدد كبير من ذوى المواهب ، فكان منهم المختار الثقفى ومحمد بن القاسم ، وكثيرون غيرهم من الرجال المبرزين (١) .

وعبارة فلهوزن هذه تبرز حقيقة هامة . فقد كانت قبيلة قريش صاحبة السيادة في مكة في العصر الجاهلى ، كما كانت قبيلة ثقيف صاحبة السيادة في الطائف . وعلا شأن قبيلتى الأوس والخزرج فى يثرب لكنهما لم يصلا الى مرتبة قريش أو ثقيف نتيجة انشغالهما بالصراع المستمر بينهما . ولكن سبق الأوس والخزرج الى الاسلام أدى الى علو شأنهما ، وأصبح يطلق عليهما اسم « الأنصار » ، وبدأ تنافس شديد بين الأنصار وقريش ، ولكن الرسول لم ينس فضل الأنصار فاتخذ من مدينتهم (المدينة المنورة) حاضرة للدولة . وبعد وفاة الرسول قامت الخلافة ، وتولتها قريش ، فرجحت كفتها على كفة الأنصار ، ودخلت ثقيف تحت لواء قريش .

وكانت قريش تضم بيتين كبيرين متنافسين ، البيت الأموى

(١) تاريخ الدولة العربية ص ١٠٧ .

والبيت الهاشمي . وكان العلويون أبرز بنى هاشم . ودخل
الثقفيون في طاعة الفرع الأموي دون الفرع الهاشمي ، عدا
المختار بن أبي عبيد الذي نبذ طاعة الدولة الأموية وبذل كل جهد
في قتالها وظل مخلصا لآل علي بن أبي طالب حتى مصرعه . أما
سائر بنى ثقيف ، مثل المغيرة بن شعبة والحجاج بن يوسف ومحمد
ابن القاسم ومحمد بن يوسف ويوسف بن عمر وغيرهم ، فكانوا
من أبرز ولاة وقواد بنى أمية وتمسكوا بولائهم دائما للدولة
الأموية .

ورغم أن قبيلة ثقيف ترتبط بمدينة الطائف ، إلا أن رجالات
ثقيف ارتبطوا في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ببلاد العراق .
فقد شهدت هذه البلاد أمجاد الثقفيين ، وأصبح تاريخها هو في
الحقيقة تاريخ هؤلاء الثقفيين .

فقد ساهم أبو عبيد بن مسعود وابناه جبر والمختار بجهودهم
في فتح بلاد العراق . وتولى سعد بن مسعود ، عم المختار ، حكم
بعض مدن العراق . ثم تولى المغيرة بن شعبة الثقفي حكم الكوفة
فترة طويلة . كما حكم زياد بن أبيه ، وينسبه بعض المؤرخين إلى
ثقيف ، البصرة والكوفة في خلافة معاوية بن أبي سفيان ونجح
في توطيد الحكم الأموي في بلاد العراق ، وخلفه ابنه عبيد الله
ابن زياد ، الذي سيلقى حتفه على يد المختار . أما الحجاج بن
يوسف الثقفي فقد برزت شهرته خلال حكمه لبلاد العراق في
خلافة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد . وكان محمد بن القاسم ،
القائد المشهور ، أحد قواد الحجاج بالعراق وقد بعثه لفتح

السند . وتولى يوسف بن عمر الحكم في العراق في عهد الخليفة
الأموي الوليد بن يزيد بن عبد الملك . أما المختار فقد نجح في
أن يكون الرجل الأول في بلاد العراق منذ وفاة الخليفة يزيد
ابن معاوية ، وطوال عهد معاوية الثاني ومروان بن الحكم ،
وصدر خلافة عبد الملك بن مروان .

بَيِّنُ الْمُخْتَارِ وَالْمَغِيرَةِ بِنِ شُعْبَةَ الثَّقَفِيِّ

ولنعقد بعض المقارنات بين شخصية رجلنا المختار وبعض
رجالات ثقيف ، لنرى أوجه التشابه والخلاف ، وأسباب ذلك ،
ونبدأ بشخصية المغيرة بن شعبة الثقفي .

يتفق المختار والمغيرة في صفة الدهاء والذكاء ، فالمغيرة أحد
دهاة العرب الأربعة (١) ، وقد وصف السيوطي (٢) دهاء المغيرة
بقوله : « فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها
إلا بمكر لخرج من أبوابها كلها » . كما يتفق المختار والمغيرة في
الطموح والآمال العريضة والرغبة في الوصول إلى السلطة
والنفوذ . ولكن اختلفا في الطريق الذي يوصل إلى غاية كل
منهما .

أما المغيرة فقد اختار طريقا مأمونا سهلا ، ورأى أن يلعب
الدور الثاني لا الدور الأول ، وأن يكون تابعا لا متبوعا . فعمل

(١) وهم : المغيرة ، وعمرو بن العاص ، وزيد بن أبيه ، ومعاوية بن
أبي سفيان .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ١٣٦ .

على أن يكسب رضا الخلفاء فيعهدوا اليه بحكم بعض البلاد
حيث يحقق آماله في السيادة والنفوذ . وبذل كل جهد في سبيل
الاحتفاظ بما وصل اليه من سلطان ، دون أن يبذل جهده في أن
يؤدي واجبه المنوط به على أكمل وجه .

وقد أجمع المؤرخون على أن المغيرة كان سهلا لينا حيث
كان يجب أن يتخذ الشدة . وينسب الطبرى (١) هذا التساهل
الى حب المغيرة للسلام والعافية . أما فلهوزن (٢) فيفسره بقوله : لم
يستأصل المغيرة الشر في بدايته وقبل أن يستفحل ، بل تركه يشتد
ويعظم ، لأنه كان يعرف أنه لا يعيش حتى يواجه هذا الخطر بعد
استفحاله ، وكان لا يهدف الا للمحافظة على حياته ، تاركا هذه
الأخطار ليتداركها من يلحقه ، رغم أن هذا يعتبر جزءا من وظيفته ،
ولكنه هدف أن يستفيد من ولايته أكبر فائدة ممكنة ، والى
النهاية . ويرجع لامنس (٣) تساهل المغيرة الى كبر سنه ، ويقول
انه لو كان أصغر سنا لما تردد في مواجهة هذه الصعوبات بالقوة ،
ولكن حب المغيرة للعافية أنساه أنه خاضع للأمميين . أما
بركلمان (٤) فيرجع هذا التساهل الى أخلاق المغيرة الشخصية ،
فهو يصفه بأنه « رجل انتهازي لا ذمة له ولا ذمام » .
أما المختار ، فقد اختار طريق الثورة والكفاح ، فرأى أن

(١) تاريخ الطبرى ج ٦ ص ١٥٠ .

(٢) The Arab Kingdom, p. 118 .

(٣) Etudes Sur Le Siecle des Omayyades, p. 39 .

(٤) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ١ ص ١٤٥ .

يصل الى ما طمح اليه من سيادة وسلطان بذكائه وسيفه وجهوده، فكان طريقا طويلا شاقا محفوفًا بالمخاطر . وظل المختار يحمل سيفه ويجاهد به الى اللحظة الأخيرة من حياته . فقد حارب الأمويين مع ابن الزبير بالحجاز ليصدهم عن الكعبة ، وحارب قتلة الحسين، وحارب الجيش الأموي بقيادة ابن زياد ، وقاتل الخوارج ، وحارب الجيوش الزيرية ، وأخيرا لقي مصرعه في ميدان القتال . عمل المختار على أن يكون الرجل الأول دائما ، في لعب الدور الرئيسي بمهارة ، واختار بلاد العراق مسرحا — وهى نفس البلاد التى حكمها سلفه المغيرة فترة طويلة — واعتمد المختار على البيت العلوى فى السيطرة على العراق فأعلن أنه نائب العلويين بالعراق ، وعمل على اقامة خلافة علوية فى الكوفة . بينما اكتفى المغيرة أن يكون واليا من ولاية الدولة الأموية . وكما برز المختار فى ميدان القتال ، برز فى ميدان السياسة ، فقد استطاع أن يؤثر فى مصير جميع الأحزاب السياسية مثل الشيعة والخوارج والتوايين والزيريين ، وأستطيع أن أقول ان المختار بزّ المغيرة فى مجال السياسة .

بدأ المغيرة حياته السياسية سنة ٩ هـ حينما عهد اليه الرسول بهدم صنم اللات فى مدينة الطائف . واشترك فى فتوح العراق فى خلافة عمر بن الخطاب ، وولاه عمر بن الخطاب حكم البصرة بعد وفاة أول وال لها وهو عتبة بن غزوان ، فنظم ديوانها ، وفتح ميسان والأهواز ، وشهد موقعة نهاوند . ثم عزل عن حكم البصرة ولكنه عاد الى حكم الكوفة بعد فترة قصيرة سنة ٢١ هـ ، وفى

عمره تمت فتوحات بلاد ميديا وأذربيجان (١) . ويروي المؤرخون أن المغيرة كان أول من اقترح على عمر بن الخطاب أن يتخذ لقب (أمير المؤمنين) (٢) ، وكان المسلمون ينادونه قبل بيا (خليفة خليفة رسول الله) .

لعب المغيرة دورا في تاريخ الموالي بطريق غير مباشر . فقد لقي عمر بن الخطاب مصرعه على يد أبي لؤلؤة المجوسي مولى المغيرة ، فقد قتله بخنجر في ذي الحجة سنة ٢٣ هـ . وكان مقتل عمر على يد رجل من الموالي يبين مدى الاستياء والسخط اللذين استوليا على نفوس هؤلاء الفرس بعد زوال سلطانهم ودخولهم في حوزة العرب (٣) . كما أدى الى تغير كبير في معاملة الموالي ، فقد بدأ ولاية العراق في التفرقة في المعاملة بين العرب والموالي ، حتى اذا كان عصر المختار ، كان الموقف قد أوشك على الانفجار ، واستفاد المختار من سوء أحوال الموالي ، وأصبح محررا ومنقذا لهم .

ابتعد المغيرة عن مسرح الأحداث في خلافة عثمان بن عفان . حتى اذ تولى على بن أبي طالب وبدأ عهده بعزل ولاية عثمان من

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٣٣٤ .

(٢) قال المغيرة لعمر : يا خليفة الله . فقال عمر : ذاك نبي الله داود . قال : يا خليفة رسول الله . قال : ذاك صاحبكم المفقود . قال يا خليفة خليفة رسول الله . قال : ذاك أمر يطول . قال : يا عمر ! قال : لا تبخس مقامى شرفه ، أنتم المؤمنون وأنا أميركم . فقال المغيرة : يا أمير المؤمنين .

(٣) حسن إبراهيم : تاريخ الاسلام ج ١ ص ٢٥٢ .

حكم الأمصار الاسلامية ، تقدم اليه ينصحه بأن يبقى معاوية واليا على الشام على أن يأخذ البيعة له ، ولكن عليا لم يستمع لمشورة المغيرة ، فانصرف غاضبا الى معاوية ، ثم وقف الى جانبه خلال التحكيم . وكافأه معاوية على تأييده له ، فعندما تولى الخلافة في سنة ٤٠ هـ ولاء حكم مدينة الكوفة .

لم يرض معاوية عن سياسة المغيرة في حكم الكوفة ، وخاصة أنه تساهل مع الثائرين من أحزاب الشيعة والخوارج ، فقد كان المغيرة كما رأينا يميل الى السلام والمودعة . وأراد معاوية أن يعزله عن حكم الكوفة وحاول المغيرة أن يشن معاوية عن غرضه فاقترح عليه أن يعهد الى ابنه يزيد بولاية العهد ، وتعهده له بأن يأخذ البيعة ليزيد من الكوفة ، ونال الاقتراح رضا معاوية ، فأعاد المغيرة الى حكم الكوفة ، فظل يتولى حكمها حتى مات . وهكذا كان المغيرة صاحب فكرة تحويل الخلافة من نظام الشورى الى نظام الوراثة ، ذلك النظام الذي لقي معارضة شديدة من المسلمين في تلك الفترة . وخاصة أن معاوية كان قد تعهد للحسن بن علي أن يتولى الخلافة بعده . وكانت تولية يزيد الخلافة بعد معاوية بطريق الوراثة سببا في وقوع الأحداث السياسية العديدة التي سنراها بعد حين ، والتي خاض المختار غمارها .

كان المغيرة أستاذا للمختار ، ومثلا أعلى . فقد عاش المختار في الكوفة خلال حكم المغيرة ، ولكنه لم يبد نشاطا سياسيا ملحوظا في عهده . وكان المختار يجل المغيرة ويقدره ويناديه دائما بكلمة « يا عم » . وقد أوحى المغيرة — بدون قصد — للمختار

أن يستعين في حركته السياسية فيما بعد بينى هاشم والموالى .
 فيروى البلاذرى (١) : « سائر المختار المغيرة بن شعبة أيام ولايته
 الكوفة من قبل معاوية ، فمر بالسوق فالتفت المغيرة الى المختار
 وقال : يا لها من غارة ، ويا له جمعا ، انى لأعلم كلمة لو نطق لها
 ناعق لاتبعوه ولا سيما الأعاجم الذين اذا ألقى عليهم الشئ
 قبلوه ، فقال له المختار وما هى يا عم ؟ قال المغيرة : يستأدون بال
 محمد . فأغضى عليها المختار » . ولم تزل هذه الكلمة تتردد في
 نفس المختار حتى وضعها موضع التنفيذ بعد مصرع الحسين
 ابن على .

بين المختار وزيد ابن أبيه :

يرى بعض المؤرخين أن زيادا ينتسب الى قبيلة ثقيف بالطائف ،
 ومن الصعب أن تؤكد ذلك تأكيدا قاطعا ، فقد شاب نسب زياد
 كثير من الشوائب ، وان كان زياد قد أصبح من أبرز الشخصيات
 في تاريخ العرب والمسلمين ، وقدر معاوية بن أبى سفيان شخصية
 زياد حق قدرها ، فاستلحقه ، ونسبه الى أبى سفيان واعتبره
 أخاه .

ولد زياد بالطائف ، في السنة الأولى للهجرة ، وهى نفس
 السنة التى ولد المختار فيها ، وتعلم في كتاب من كتاتيب الطائف

(١) أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٢٣ (طبعة لندن) .

القراءة والكتابة والحساب . ثم اعتنق الاسلام عندما أسلمت
ثقيف برمتها في سنة تسع للهجرة . واشترك زياد — مثله مثل
المختار — في فتوح العراق مع سعد بن أبي وقاص ، فكان يقسم
الغنائم ، ونال اعجاب عمر بن الخطاب وسائر الصحابة . ولما
مصرت البصرة سنة ١٦ هـ نزلها فيمن نزلها من ثقيف واتخذها
مقرا معظم حياته .

لم يشترك زياد في الثورة التي قامت ضد عثمان ، أو في الفتن
في عهد علي بن أبي طالب ، مما أدى الى رضا عليّ عنه ، فولاه
خراج البصرة وبيت مالها ، وأصبح من أشد ولاة عليّ اخلاصا
له ، وقد حافظ علي ولائه واخلصه الى أن انتهت حياة عليّ ،
وتولى معاوية الخلافة . وبذل معاوية كل جهد ليصبح زياد من
رجال بني أمية ، ومن عمد الدولة الأموية . وأبى زياد الا أن
يظل علي ولائه لعلي بن أبي طالب بعد مصرعه . ولكن معاوية لم
يأس . وتدخل بين الرجلين ، المغيرة بن شعبة الثقفي ، فقام
بالسفارة بينهما ، ووصل ما اقطع بينهما . وأعلن معاوية أن زيادا
أخاه ، وأن أباه الحقيقي هو أبو سفيان . وبرر معاوية ما فعله
للناس وقال : « اني لم أتكثر بزياد من ذلة ولكن عرفت حقا
فوضعت موضعه » (١) . وولى معاوية زيادا على حكم البصرة ، ثم
ضم اليه الكوفة بعد وفاة المغيرة ، فظل يتولى حكم بلاد العراق
جميعها الى أن مات سنة ٥٣ هـ . فثبت أقدام الحكم الأموي

(١) الطبري ج ٦ ص ١٢٦ .

بالعراق ، وكان كما قال الطبري : « ساس الناس سياسة لم ير مثلها ، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحدا قبله »

وصف ابن طباطبا (١) زيادا بقوله : « وكان زياد أحد الدهاة عظيم السياسة قوى الهبة صحيح العقل شديدا شهما فطنا بليغا » . ويرى فلهوزن (٢) أن زيادا اكتسب احترام أهل العراق ، فنجح في نشر الأمن الذي لم تعرفه العراق قبل حتى خلال حكم فارس ، بل لم تعرفه صحراء بلاد العرب نفسها .

اتفق المختار مع زياد في نواح ، واختلفا في ميادين أخرى . فقد اتفقا في اعتناق مذهب الشيعة والولاء لعليّ بن أبي طالب وآله . وإن كان زياد قد تحول من الولاء لعليّ الى موالة معاوية ، فقد كان هذا بعد الحاح شديد ، وتردد كبير ، ونتيجة وساطة المغيرة بن شعبة والجاحه ، ولما لمسه زياد من ميل العلويين الى الاستكانة والهدوء ، فقد تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية ، وآثر الحسين بن علي البعد عن السياسة . أما المختار فقد ظل حتى اللحظة الأخيرة مصرا على ولائه للبيت العلوي .

كان المختار وزياد يتفقان في الطموح والآمال الواسعة . فقد أراد المختار أن يسيطر على النصف الشرقي من الدولة العربية الاسلامية ، ونجح في أن يسيطر على بلاد العراق والأطراف الشرقية من الدولة ، وسعى الى أن تكون له السيادة في الحجاز ، وغزت جيوشه المدينة المنورة ، وهاجم ابن الزبير في مكة . وكان

(١) الفخرى ص ١٠٢ .

The Arab Kingdom, p. 123 (٢)

زياد أيضا يحكم نفس الجزء الذي حكمه فيما بعد المختار ، وطلب من معاوية أن يضم إليه الحجاز ، ولكن المنية أدركته قبل أن تتحقق أحلامه .

يتشابه زياد والمختار في قوة الشخصية ، والبراعة الفائقة في شئون السياسة والإدارة . ودانت لهما بلاد العراق بالطاعة والولاء ، وشعرت في عهدهما بالطمأنينة والاستقرار . ويتفق الرجلان في تقريب الموالي إليهما وحسن معاملتهما لهم . فكان زياد يولى الموالي كثيرا من الوظائف وخاصة في دواوين الخراج والرسائل ، وكان يقول : ينبغي أن يكون كتاب الخراج من رؤساء الأعاجم العالمين بأمور الخراج ^(١) . وكانت أم زياد ، وهى سمية ، من أصل فارسي . أما المختار ، فقد عمل دائما على تحسين أوضاع الموالي السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، رغم أنه كان عربيا أبا وأما .

عاش المختار في الكوفة خلال حكم زياد ، ولم يمارس المختار في عهده نشاطا سياسيا فقد اتبع زياد سياسة الشدة والقسوة ، فانصرف المختار الى أعمال الزراعة في ضيعته قرب الكوفة . وحاول زياد أن يحصل على توقيع المختار على عريضة رفعها الى معاوية يطلب فيها قتل زعيم الشيعة حجر بن عدى ، ولكن المختار أبى إباء تاما ، ولم يتعرض زياد له بأذى . أما عبيد الله بن زياد ، فكان عدوا لدودا للمختار ، فقد ألقاه ابن زياد في السجن ، وضربه بقضيب على عينه ففثر عينه ، ثم نفاه خارج العراق .

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٢٠٩ .

وأخذ المختار بثأره من ابن زياد ، فلقى هذا حتفه على يد المختار
في موقعة خازر .

بين المختار والحجاج بن يوسف الثقفي :

كان المختار سيف بنى على بن أبى طالب ورجل الشيعة ، فقد
دعا للحسين بن على ، حتى اذا قتل ، دعا لابنه على بن الحسين ،
ثم لمحمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية . أما الحجاج
فكان سيف بنى مروان ، أى الخلفاء الأمويين بنى مروان بن
الحكم ، فقد أخلص كل الاخلاص للخليفة عبد الملك بن مروان
وابنه الوليد بن عبد الملك ، وأصبح الحجاج من أبرز رجالات
الدولة الأموية .

اشتهر كل من المختار والحجاج فى بلاد العراق والحجاز . فقد
سيطر المختار على بلاد العراق ظاهريا باسم محمد بن الحنفية وفى
الحقيقة لصالحه الخاص . وسيطر الحجاج على العراق لصالح
الدولة الأموية فقبض عليها بقبضة من حديد فدانت بالطاعة
للأمويين بعد أن اضطربت أحوالها بالفتن والثورات فترة طويلة .
وشهدت بلاد الحجاز المختار وقد قدم الى مكة حيث أصبح وزيرا
لابن الزبير ثم وقف الى جانبه يذود عن الكعبة أثناء حصار الجيش
الأموى لمكة فى عهد الخليفة الأموى يزيد بن معاوية . وشهدت
بلاد الحجاز الحجاج وقد قدم على رأس جيش أموى كبير فى عهد

الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ليحاصر عبد الله بن الزبير
 خليفة الحجاز في مكة ، ويقذف الكعبة بالمنجنيق ، ويعيد الحجاز
 الى حظيرة الدولة الأموية بعد أن يلقي ابن الزبير حتفه .
 والحجاج تقفى كالمختار ، ولكنهما اختلفا في موقفهما من
 الدولة الأموية ، فقد حاربها المختار كلما استطاع الى ذلك سبيلا ،
 بينما كان الحجاج عضد الدولة الأموية . ويذكر فلهوزن ^(١) أن
 الحجاج عرف للمختار قدره ، مع أنه كان بثورته قد خالف
 الدولة ، وكان عند الحجاج من الشجاعة ما جعله يصرح بأعجابه
 به . وقد أخذ الحجاج بثأر المختار من قتله ، وإن لم يكن ذلك
 قصده . فقد قام الخليفة عبد الملك بن مروان بقتل مصعب بن
 الزبير في العراق وهو القائد الذي اشتبك مع المختار في معركة
 فاصلة انتهت بنصرع المختار . وقام الحجاج بالقضاء على عبد الله
 ابن الزبير الذي أصدر أوامره لأخيه مصعب بقتال المختار ثم قتله .
 ظهر المختار دائما بشخصية ذاتية مستقلة ، فلم يحاول أن يقلد
 أحدا أو يحاكي احدي الشخصيات المعاصرة . أما الحجاج فقد
 تشبه بزياد بن أبيه ، وكان زياد يتشبه بعمر بن الخطاب ، ولكن
 الحجاج أخفق في ذلك اخفاقا ذريعا . لقد وصل زياد الى أعظم
 المناصب قبل أن يعرف معاوية ، ولكن الحجاج قد خلقه
 عبد الملك ، وقد عرف زياد كيف يمسك زمام القبائل ف ضرب
 بعضها ببعض وسيرها لصالحه وحكم العراق بدون أن يستعين

(١) تاريخ الدولة العربية ص ٢٤٧ .

بجند الشام ، لكن الحجاج أكد سلطاته بحكومة لا تمت بصلة الى العراق مما أدى الى ازدياد كراهية العراق للشام (١) .

وشعر عبد الملك أنه لم يستطع أن يخلق زيادا آخرًا ، فقال لعباد بن زياد : أين كانت سيرة زياد من سيرة الحجاج ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ان زيادا قدم العراق وهي جمره تشتعل ، فسل أحقادهم وداوى أدواءهم ، وضبط أهل العراق بأهل العراق ، وقدمها الحجاج فكسر الخراج وأفسد قلوب الناس ولم يضبطهم بأهل الشام ، فضلا عن أهل العراق ، ولو رام منهم ما رامه زياد لم يفاجأك الا على قعود وتوجف به (٢) .

وقد اختلف المختار والحجاج في سياستهما في حكم العراق . فقد قرب المختار موالى العراق اليه ، وكانوا يمثلون الغالبية العظمى من أهالى العراق ، فولاهم الوظائف ورد اليهم حقوقهم السياسية والاقتصادية . أما الحجاج فقد أساء معاملة الموالى ، وكانت فترة حكمه لبلاد العراق هي أسوأ فترات الحكم الأموى بالنسبة للموالى فقد كرهه الموالى وحقدوا على عبد الملك وبغضوا الدولة الأموية ، فعادوا الى ثورتهم على الحكم الأموى . وقد أمره عبد الملك بسفك دمائهم فقال : سر الى العراقيين واحتل لقتلهم فانه قد بلغنى عنهم ما أكره (٣) . وكانت الكوفة مركز الموالى فأوصى عبد الملك الحجاج باخضاعهم فقال :

(١) Wellhausen : The Arab Kingdom, p. 254

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ٨

(٣) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٣١

فاذا قدمت الكوفة فطأها وطأة يتضاءل منها أهل البصرة (١) . ولم تسلم البصرة من قسوة الحجاج ، فتوجه الى مسجدها في يومه الأول فيها في ألقى جندي من أهل الشام ، فانقضوا على أهل البصرة وقتلوا أكثر من سبعين ألفا حتى سالت الدماء الى طرقها (٢) . وبرز المؤرخ سيديو (٣) هذه القسوة بأن أهل العراق كانوا دائما مستعدين لكل ثورة فأراد الحجاج أن يثبت حكم الشام حتى تظل دمشق عاصمة البلاد الاسلامية .

كانت المعاملة الممتازة التي عاملها المختار للموالى ، ثم ملاحقه من عنت واضطهاد في عصر الحجاج ، سببا لثورتهم في عصر الحجاج ، فقد شعروا بالفرق الواضح بين العهدين . فذكر المؤرخ فلهوزن (٤) : ولا شك في أن ثورة المختار لم تقض قضاء تاما على طموح هؤلاء المسلمين الجدد الى الارتفاع ، وأن الحجاج كان يعالج الصعوبات التي نشأت من دخول الموالى في الاسلام طلبا للمساواة السياسية وفرارا من الجندية ، ولا شك أيضا في أن ثورة ابن الأشعث كان مهددا الحقيقى في الكوفة ، شأنها شأن ثورة المختار . كما ذكر فلهوزن أيضا أن الحجاج ورث المتاعب التي خلفها المختار له في بلاد العراق فقال : ولما تولى الحجاج على العراق كانت تنتظره مهام ثقيلة ، فكانت تلك الولاية يغلى باطنها كالمرجل ،

(١) اليعقوبى ج ٣ ص ١٨ .

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٣١ - ٣٢ .

(٣) تاريخ العرب العام ص ١٧٢ .

(٤) تاريخ الدولة العربية ص ٢٣٦ .

ولم يكن ذلك لمجرد الصراع الذي استمر سنين طويلة حول الخلافة . وقد أخذت الثورة العنيفة التي قام بها شيعة الكوفة ومن انضم اليهم من الموالي ، بقيادة المختار الثقفي ، ولكنها خلفت في النفوس نارا متوقدة ، ولم تكن البصرة قد تحررت بعد من الخوارج الذين كانوا يقفون أمام أبواب هذه المدينة مهددين لها^(١) كان المصير المؤلم الذي لاقاه محمد بن القاسم الثقفي ، قائد الحجاج الكبير ، على أيدي الأمويين ، مما يبرر موقف المختار من الدولة الأموية . حينما تولى الخلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ هـ) عهد الحجاج الى محمد بن القاسم في غزو بلاد السند ، فاستمر في فتوحه الى نهر السند . فلما تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة ، نكل بمحمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وموسى بن نصير وأسرهم الحجاج . وكان سليمان يبغض الحجاج وأهله وولاته ، حتى ان الحجاج كان يخشى أن يموت الوليد قبله فيقع في يد سليمان ، وذلك لما كان من اجابة الوليد الى ما اعتزمه من عزل سليمان من ولاية العهد وتوليته ابنه عبد العزيز .

فلما ولي سليمان الخلافة وولى يزيد بن أبي كبشة السند ، أخذ محمد بن القاسم ابن أخت الحجاج وقيده وحمله الى العراق . وكان محمد محبوبا من أهالي السند لحسن سيرته فيهم ، حتى انهم بكوا عليه حين فارقهم . ولما وصل محمد الى العراق حبس في واسط ، ثم عذبه صالح بن عبد الرحمن وقتله . وبذلك انتهت حياة هذا القائد ارضاء لأهواء الخليفة الذي نسي بلاءه وعظيم أعماله .

(١) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٢١٨ .

صفات المختار :

كان المختار رجلا عربيا ، من أشرف القبائل العربية ، وهى قبيلة ثقيف التى ذاع صيتها فى الطائف ، وبرزت أمجادها طوال العصر الاسلامى ، واشتهر أبناؤها أنهم على قدر كبير من الذكاء والدهاء والفتنة .

تجلى دهاء المختار فى مواقف عديدة ، فقد نجح فى رسم الخطط السياسية وتنفيذها تنفيذا محكما . واستطاع بمجهوده الفردى وعقله الناضج أن يصبح الرجل الأول فى العراق منذ خلافة يزيد بن معاوية الى خلافة عبد الملك بن مروان ، وأن يؤثر فى جميع الأحداث السياسية فى ذلك العصر بدون استثناء . وتجلى ذكاؤه ودهاؤه خلال ثورة الأشراف العرب فى الكوفة ، فقد انتهزوا فرصة خروج جيش المختار بقيادة ابراهيم ابن الأشر لصد الجيش الأموى بقيادة عبيد الله بن زياد عن الموصل ، فأعلنوا الثورة وكادوا يهيمون بقتل المختار ، وادعوا أنه سيطر على الكوفة بدون رضا من محمد بن الحنفية ، فطلب منهم أن يؤجلوا ثورتهم حتى يبعثوا مندوبا عنهم الى ابن الحنفية يستفسر منه عن حقيقة الأمر ، ثم بعث فى استدعاء ابن الأشر فقدم على عجل وأخذ الفتنة .

وكان المختار قائدا حرييا عظيما ، أبدى تفوقه فى جميع الميادين التى اشترك فيها . وكان مستعدا لبذل روحه ودمائه فى سبيل فكرة يعتقها . فقد خرج فى جماعة صغيرة ليدافع عن الحسين بن على يوم كربلاء ، لولا أن قبض عليه والى الأموى وألقى به فى

السجن . وأثبت بسالته واقدامه خلال ذوده عن الكعبة الى جانب عبد الله بن الزبير ، وأجمع المؤرخون على أنه كان أشد الناس على جند الشام . كما أثبت كفاءته في وضع الخطط الحربية : فقد كانت الطريقة التي اتبعها في انتزاع الكوفة من أيدي عبد الله بن الزبير ، وتوزيع جنده على أحياء الكوفة المختلفة تدل على براعة فائقة . كما أنه نبذ الطريقة التقليدية في تأليف الجيوش في ذلك العصر ، فقد جرت العادة على تقسيم الجيش أقساما قبلية ، فكانت كل فرقة تضم أبناء القبيلة الواحدة ، ولكن المختار قسم جنده تبعا لأسلحتهم ، ولم يفرق بين جنسية الجند ، فساوى بين الجند العرب والجند الموالي ، وسمح لهم جميعا بركوب الخيل . ووصف الحجاج بن يوسف قريه المختار فقال عنه : « مسعر حرب ومقارع أعداء » . وفي المعركة الفاصلة الأخيرة ، ظل المختار صامدا ، فقد حاصره عدوه مصعب بن الزبير أربعة شهور ، تحمل خلالها الجوع والعطش في صبر واحتمال ، وتخلّى رجاله عنه ، ولكنه أبى الاستسلام ، ونزل الى طرقات الكوفة يحارب وهو مترجل الى أن لقي حتفه وسيفه في يده .

لم يكن المختار يميل الى أى نوع من العصبية ، سواء العصبية القبلية ، أو العصبية الجنسية . فلا نرى طوال تاريخ المختار حادثا واحدا يشير الى تدخل المختار في الصراع العنيف الدائر بين العرب اليمنيين والعرب الحجازيين . ورغم تأييد الموالي للمختار ، ورغم اهتمامه بتحسين أوضاعهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فقد قرب العرب اليه ، وولاهم مناصب القيادة وحكم الولايات ،

وأغدق عليهم الصلات وكان يحارب الأمويين كما قال أبو مخنف « بشجاعة العرب وعداوة العجم » . بل حفظ المختار التوازن بين هاتين الطبقتين الاجتماعيتين ، ويرى المؤرخون أن الأمويين لو كانوا قد ساروا سيرة المختار لما انهارت دولتهم .

كان المختار عادلا ، فوضع أسس حكومة تعدل بين الناس وتساوي بين الجميع . ورغم مشاغله العديدة رأى أن يقعد بنفسه للقضاء والفصل في الخصومات . كما كان متسامحا ، يعفو عن أعدائه ، ويتغاضى عن أخطائهم ، وكان يطلق سراح الأسرى الذين يقعون في يده بعد انتصاره عليهم ، مكتفيا بأن يتعهدوا ألا يناصبوه العداء ، مفترضا أنهم سيصدقون في عهدهم . وإذا قارنا المختار بزياد بن أبيه أو عبيد الله بن زياد وأسلافه في حكم العراق ، أو بخلفه الحجاج بن يوسف الثقفي ، لوجدنا أن المختار أكثرهم عدلا وانصافا ، وأعظمهم تسامحا ورافة ، وأبعدهم عن سفك الدماء والميل إلى القسوة والتعذيب . ولم يحدثنا المؤرخون إطلاقا عن حادثة واحدة غدر فيها المختار بعدو له ، أو أنه أسرف في سفك دماء خصومه .

أخلص المختار لأصدقائه ، فقد كان قد نشأ مع مسلم بن عقيل ابن أبي طالب ورافقه في صباه ، فجعل داره ملتقى شيعته . وأخلص للحسين بن علي ، وأصر دائما على إخلاصه لمحمد بن الحنفية رغم أنه كثيرا ما تخطى عنه . وأخلص لعبد الله بن الزبير ووقف إلى جانبه يقاتل أعداءه من الأمويين ولم يغادره إلى العراق إلا بعد أن نكث عهده له . وكان المختار تقيا حريصا على أداء شعائر دينه ،

فكان كما قالت زوجته عنه : « كان صائم نهاره قائم ليله » (١) .
كما كان كريما ، يبذل المال بلا حساب ، فكان يصدق الصلات
والهدايا على رجاله وأنصاره ، وعمل على تحسين أحوال الموالي
الاقتصادية ، فرفع مرتباتهم وعطاءهم ، وارتفع بالتالي مستوى
معيشتهم ، وكان الموالي يمثلون غالبية سكان العراق ، وكان كرمه
عاملا من عوامل نجاحه السياسى ، فقد أرضى بالمال خصومه قبل
أنصاره .

كان المختار يميل الى الزراعة وفلاحة الأرض ، وخالف فى ذلك
جميع معاصريه العرب ، فقد كان العرب فى تلك الأيام لا يمتنعون
سوى مهنة الحرب والسياسة والحكم ، وتركوا الزراعة وسائر
الحرف والمهن للموالي ، باعتبارها مهنا وضيفة . ولكن المختار كان
يملك ضيفة كبيرة فى ضاحية من ضواحي الكوفة ، يساعده فى
زراعتها عدد كبير من الموالي .

والى جانب فصاحة المختار ودهائه ، كان على جانب كبير من
الدراية بعلم النفس ، والالمام بوسائل الدعاية والاعلام . فقد كان
يخاطب عواطف الناس كما كان يخاطب عقولهم ، وكان لا يكتفى
بوسائل الدعاية المعروفة حينئذ كالخطابة والشعر ، بل لجأ الى
وسائل كثيرة للدعاية ، ومنها التمثيل ، والمظاهرات ، والاشاعات .
كما لجأ الى ما نسميه الآن بالانقلاب العسكرى حينما انتزع
الكوفة من ولاية ابن الزبير ، والى حرب العصابات حينما قاتل
مصعب بن الزبير ، فكان المختار فى أفكاره ووسائله سابقا لعصره .

(١) الطبرى ج ٧ ص ١٥٧ .

ولا نعتبر (أبراهام لنكولن) محرر العبيد في أمريكا ، الا صورة
مكررة من المختار ، الذى عمل دائما على تحرير الموالى والرقيق في
الدولة العربية الاسلامية . وكان المختار خطيبا مفوها ، حفظت لنا
المصادر القديمة كثيرا من خطبه الحماسية ، وكان يستثير عواطف
سامعيه فيبيكيهم ويثير حماستهم ، ويستنهضهم للقتال .

فجر حياة المختار السياسية :

انتشار التشيع في العراق - موقف المختار من خلافة
الحسن بن علي - موقف المختار من خلافة معاوية بن ابي
سفيان - اعتناق المختار مذهب التشيع في عهد يزيد
ابن معاوية - مسلم بن عقيل مبعوث الحسين بن علي في
بيت المختار - خروج مسلم من دار المختار الى بيت هانيء
ابن عروة - موقف المختار من مأساة الحسين في كربلاء.

الفصل الثاني

فجربة الخمار الساسية :

انتشار الشيع في العراق

كان هناك فريق من العرب قد تشيع لعلّى بن أبى طالب بعد أن آلت الخلافة الى أبى بكر ، ويرى جولدسيهر في كتابه (العقيدة والشرعية في الاسلام) (١) أن الحركة العلوية الشيعية نشأت في أرض عربية بحتة ، فقد مال لاعتناق التشيع قبائل عربية آمنت بشرعية حق على بن أبى طالب في الخلافة ، فأقبلت على تعاليمه في لهف وحماسة أهل العراق من الفرس . ورأوا أن الامامة ليست من المصالح العامة التي تفوض الى نظر الأمة ، ويعين القائم بها تعيينا باختيار جماعة المسلمين واتخابهم ، بل هي ركن الدين وقاعدة الاسلام ، فيجب تعيين الامام لهم ، ويكون معصوما من الكبائر والصغائر ، وأن عليا رضى الله عنه هو الذي عينه الرسول . فلا عجب أن نظر بعض المسلمين الى أبى بكر وعمر وعثمان على

(١) العقيدة والشرعية في الاسلام ص ١٦٩ .

أنهم اغتصبوا حق عليّ في الخلافة ، وقد أيد الأنصار والهاشميون عليا ، وهم عدة الاسلام . واذا كانت القبائل قد اعتادت أن تنتخب الخليفة من قريش ، فليس هناك في قريش خير من علي ، فله فضل سبق في الاسلام ، فضلا عن قرابته ومصاهرته للرسول ، وأخلاقه الشخصية العظيمة .

وفاق موالي العراق أهله من العرب في التشيع لعلي ، فقد كان هناك من يغالون فيضعون اسم عليّ بجانب اسم محمد في صلواتهم . وكان هؤلاء الموالي أسرع الناس الى اعتناق مذهب عبد الله بن سبأ الذي نادى ببعض المبادئ الغريبة ، ووجد هذا المذهب قبولا لتشابهه بالمذاهب الدينية القديمة في العراق ، اذ كانت بلاد العراق منبعاً للديانات المختلفة والمذاهب الغريبة ، وسادت بينهم من قبل تعاليم مانى ومزدك وابن ديسان ، كما كان تقديسهم لعليّ يرجع الى فكرتهم القديمة عن الحق الالهى المقدس ، وكانت معاملة عليّ للموالي تنطوى على العطف والرعاية مما أدى الى تعاليمهم في التشيع . ويرى المؤرخ أرنولد (١) أن من دوافع اقبال أهالى العراق على التشيع زواج الحسين بن علي من إحدى بنات يزجرجد آخر أكاسرة الفرس ، وقد رأى الفرس في أولاد الحسين منها وارثين لملوكهم الأقدمين ، كما رأوا فيهم ورثة لتقاليدهم القومية .

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١٨١ .

من المؤرخين كالطبري ^(١) والبلاذري ^(٢) من يرى أن المختار بدأ حياته السياسية في العراق (عثمانيا) لا (شيعيا) . وكان العثمانيون يبدون غضبهم لمصرع عثمان ويعلنون رثاءهم لهم ، وينزلون سخطهم على قتلته . ويؤيدون المطالبة بأخذ ثأره ، ويعيرون علي بن أبي طالب قبول البيعة من الثوار واغفاله الثأر لعثمان .

ولعل هذه المشاعر التي جاشت في نفس المختار كانت عاملا على امتناعه عن تأييد خلافة الحسن بن علي بن أبي طالب . ويذكر المؤرخان الطبري والبلاذري أن المختار عرض على عمه سعد بن مسعود حاكم المدائن أن يقبض على الحسن بن علي ويسلمه لمعاوية لينال رضاه ، ولكن سعدا أبدى حرجه من القبض على حفيد الرسول ، فقد كان يدرك المصير الذي ينتظر الحسن علي يدي معاوية .

لا تعجب من موقف المختار وتأييد العثمانيين ، فقد كان هناك من بين المسلمين من أبدى غضبه على قتل عثمان وحزنه لمصيره المؤلم ، رغم أنهم لم يكونوا يؤيدون سياسة عثمان خلال حياته ، بل ربما كانوا يعارضون سياسته جهارا . ونحن نعرف عادة العرب

(١) الطبري ج ٤ ص ١٢٢ .

(٢) أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢١٤ .

المتأصلة فيهم منذ سنين طويلة ، وهى الأخذ بثأر قتلاهم ، فغضب عدد من المسلمين لأن على بن أبى طالب أهمل الأخذ بثأر عثمان من قتلته .

كما أننا نستطيع أن نبرر موقف المختار من الحسن بن على ومعارضته لخلافته ، فرغم اقبال أهل العراق على البيعة للحسن بعد مصرع أبيه على بن أبى طالب ، فإن أغليتهم سرعان ما شعرت أن الحسن ليس بالرجل الذى يحقق آمالهم . فقد صبر أهل العراق على الحسن نحو شهرين حتى ينتهى من هذه الأعمال الرسمية التى جرت العادة أن يستهل بها كل خليفة عهده ، ثم بدأوا يعملون على تحقيق الغرض الذى نصبوا الحسن من أجله خليفة ، وهو قتال أهل الشام وخليفتهم معاوية ، ولكن الحسن لم يبد استعدادا للقتال .

ويرى المؤرخ ابن كثير ^(١) أنه « لم يكن فى نية الحسن أن يقاتل أحدا » . ولكن قيس بن سعد وعبد الله بن عباس اللذين قادا حركة البيعة للحسن ، واعتبرا أنفسهما مسئولين أمام أهل العراق ، قدما على الحسن وحرصاه على القتال ، فلم يجد مفرا من تحقيق رغباتهما ، وبدأ يستعد للقتال كارها ، ولكن معاوية كان أكثر منه نشاطا واقداما ، فسبقه فى الخروج بجيشه ^(٢) .

ورغب الحسن فى قتال معاوية على كره منه ، وتقدم فى طريقه الى المدائن ، وكان يتولى الحكم فيها سعد بن مسعود عم المختار ،

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ١٧٥ .

وكان المختار ملازماً له . واستقر الحسن في المدائن بمعظم ما كان معه من الجند وأرسل بعض جيشه لمحاربة معاوية ، ثم خطب الحسن ، جنده قائلاً : « ... ألا وإن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون تردوا على رأيي . فنظر الناس بعضهم الى بعض ، وقالوا : ما ترونه يريد بما قال ؟ قالوا : نظنه والله يريد أن يصالح معاوية ويسلم الأمر اليه ، فقالوا : كفر والله الرجل ! » (١) ثم قاموا الى الحسن فهاجموا خيمته وانتزعوا مصلاه من تحته وانهبوا ثيابه حتى انتزعوا مطرفه عن عاتقه . ورأى الحسن العدول عن لقاء معاوية ، واستعد لمغادرة المدائن ، ولكنه ما كاد يبدأ رحلته حتى هجم عليه أحد جنوده ، وكان يرى رأى الخوارج ، وهو الجراح ابن سنان الأسدي ، قطعنه برمحه طعنة قوية أصابته في فخذه ، فنزفت دماؤه بغزارة ، وتفرق عنه أصحابه (٢) . وحملت البقية الباقية من جنده عليلاً جريحاً الى المدائن ، حيث شغل بعلاج جراحه عن قتال معاوية .

وما لبث معاوية أن بعث الى الحسن بصحيفة بيضاء ذيلها بخاتمه ، وأبدى استعداداً للموافقة على جميع ما يشترط فيها مقابل أن يتنازل له عن الخلافة . وكتب الحسن الى قيس بن سعد يخبره بتنازله ويأمره بتسليم الأمر لمعاوية ، والانصراف الى المدائن ، فغضب سعد وقام في جنده وقال : « أيها الناس اختاروا

(١) الأصبهاني : مقاتل الطالبين ص ٦٣ .

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ١٩١ .

أحد الأمرين : القتال بلا امام أو الدخول في طاعة معاوية » (١) .
فاختاروا طاعة معاوية ، ويثس قيس من جنده ، فسار الى المدائن ،
وسار الحسن الى الكوفة حيث قابل معاوية ، وأكد كل منهما للآخر
عزمه على تحقيق شروط الصلح ، ثم انصرف الحسن والحسين من
الكوفة الى المدينة .

لا شك أن نزول الحسن عن الخلافة لمعاوية خيب آمال أهل
العراق فيه ، فقد أضاع جهودهم وجهود أييه من قبل . وتعجب
أهل العراق لهذا الحدث ، فقد كان الحسن أول خليفة يخلع نفسه
ويسلم الأمر الى غيره . ولا شك في أنهم رجعوا بذاكرتهم الى
الوراء حينما أصر عثمان على الاحتفاظ بحقه حتى الموت . ولم
تتفق كلمة أهل العراق طوال التاريخ الاسلامي الا على لوم الحسن
لتنازله عن الخلافة ، فما من جماعة كان الحسن يمر بها وهو في
طريقه الى المدينة الا لاموه وبكتوه ، وهو « لا يجد في صدره
حرجا ولا تلوما ولا نلما ، بل هو راض بذلك مستبشر به » (٢) .
اتفق المؤرخون الافرنج على لوم الحسن وانتقاد موقفه من
معاوية ، فيرى (بروكلمان) (٣) أن الحسن لم يكن رجل الساعة
الذي تحتاجه الدولة ، فقد رفض أن يقود جنوده في هجوم على
خصمه . ويرى (أوكللي) (٤) أن الحسن لم يكن مؤهلا للموقف ،

(١) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٣١ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ١٩ .

(٣) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ١ ص ١٤٥ .

Hist of the Saracens, p. 347 (٤)

حيث كان يميل الى السلم ، وينظر الى دماء المسلمين نظرة رعب يصعب علينا تصورها .

ويرى (فلهوزن) (١) أن الحسن قد أدخل الشك في نفوس أهل الكوفة بموقفه المبهم ، فاستقر رأيهم على أنه ليس برجلهم المنشود ، وكانت طعنة الرمح التي أصابت الحسن تأكيداً لشعورهم . وقد سردنا هذه الآراء لتبرر موقف المختار من خلافة الحسن ابن علي ، ونضيف الى هذه الآراء دليلاً قوياً دامعاً ، وهو رأى زعيم الشيعة الأكبر بالعراق ، الصحابي الجليل حجر بن عدي ، فقد أوضح للحسن أخطائه فقال : « ان تعجبنا لا ينقضى من بيعتك معاوية ، ومعك مائة ألف مقاتل من أهل العراق ، وكلهم يأخذ العطاء مع ما مثلها من آبائهم ومواليهم ، سوى شيعتك من أهل البصرة وأهل الحجاز ، ثم لم تأخذ لنفسك بقية في العهد والميثاق ، كنت كتبت عليك بذلك كتاباً وأشهدت عليه شهوداً من أهل المشرق والمغرب ، ان هذا الأمر لك من بعده ، كان الأمر علينا أيسر ، ولكنه أعطاك هذا فرضيت به من قوله » (٢) . ولذا فالتنازلي أن ما عرضه المختار على عمه سعد بن مسعود من القبض على الحسن وتسليمه الى معاوية ان هو الا مظهر من مظاهر سخطة على الحسن لتخاذله ، وهذا السخط قد شاركه فيه معاصروه على اختلاف آرائهم .

The Arab Kingdom, p. 105 (١)

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١٦٦ .

رأينا المختار يبدأ حياته السياسية عثمانيا ، وكان العثمانيون وقتئذ أعداء الشيعة . ثم رأيناه معارضا لخلافة الحسن بن علي حتى أنه عرض على عمه سعد بن مسعود وإلى المدائن أن يسلمه لمعاوية . وقد ناقشنا سر هذا الموقف الذي وقفه المختار من الحسن ورأينا ما يبرره . وبدأ المختار في عهد معاوية يغير من آرائه السياسية ، فقد بدأ يبدى عطفه على الشيعة ، حتى إذا بدأت خلافة يزيد بن معاوية كان المختار قد تشبع تماما بتعاليم الشيعة وأبدى تأييده لهم جهارا ، وفتح أبواب بيته لمبعوث الحسين بن علي إلى أهل الكوفة وهو مسلم بن عقيل بن أبي طالب .

وظهر عطف المختار على الشيعة في شخص زعيمهم حجر بن عدي . فقد عادت الشيعة في عهد معاوية إلى الثورة والشغب ، ونحن نجد لهم العذر فقد كانت خلافة معاوية صدمة لهم ، لأنها خيبت آمالهم في إقامة خلافة علوية ، ولم يكن هذا رأى الشيعة وحدهم ، بل اتفق معهم في هذه الآراء معظم أهل الكوفة ، فكانوا يعتبرون عليا البطل السياسي الذي حقق استقلال العراق . ولما تولى المغيرة بن شعبة ، وهو ثقيفي كالمختار ، سار فيهم سيرة لم ترضهم ، فكان حجر يصعد المنبر فيمدح عليا ويذم معاوية والمغيرة . ولكن المغيرة لم يعرض للشيعة ولحجر بشر أو أذى ، فاستفحل أمر الشيعة حتى بلغ إلى حد أن حصب حجر المغيرة وهو على المنبر ،

ولكن المغيرة لم يغضب ، بل قصد من فوره الى دار الامارة وبعث الى حجر بخمسة آلاف درهم .

وقد لام بنو أمية المغيرة على تسامحه مع حجر ، فدافع عن نفسه بقوله : « اني قد قتلته . قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : انه سيأني أمير بعدى فيحسبه مثلي فيصنع به شيئا بما ترونه فيأخذه عند أول وهلة فيقتله شر قتلة » (١) . وكان المغيرة كان يقرأ الغيب في كتاب مسطور ، فقد أعاد حجر هذه السياسة مع زياد فقتله معاوية شر قتلة .

أعلن زياد بن أبيه (٢) على الشيعة حربا شعواء منذ اليوم الأول لتوليته حكم الكوفة ، رغم أنه كان شيعيا بالأمس ومن أخلص أنصار علي ، وتتبع زياد الشيعة في كل مكان بالقتل والتعذيب ، وقطع الأيدي والأرجل ، وسمل العيون ، وصلبهم على جذوع النخل ، وطردهم من العراق ، وساعده على ذلك أنه كان بهم عارفا ، فقد كان بالأمس واحدا من الشيعة .

عاد حجر بن عدى الى الحصب وذم معاوية وعثمان ثم زيادا ، وكانت بين زياد وحجر مودة قديمة ، يوم كان حزب الشيعة يجمعهما ، فاستدعاه وعاتبه وحذره . وحاول زياد أن يجعل حجرا يحذو حذوه في التحول من حب علي الى حب معاوية ، وأغراه بالجاه والمال . ولكن حجرا آثر دينه على دنياه ، فانتهاز فرصة خروج زياد الى البصرة حيث كان يمضى بها ستة

(١) الأصبهاني : الأغاني ج ١٦ ص ٢ .

(٢) أصبح يسمى زياد بن أبي سفيان بعد ان استلحقه معاوية .

أشهر كل عام ، ورفع راية العصيان على نائبه بالكوفة ، فكتب الى زياد ، فهرع الى الكوفة ، وبعث أمير الشرطة في استحضار حجر ، وخاف أشراف الكوفة من بطش زياد فتخلوا عن تأييد حجر ، بل تنافسوا في اظهار طاعتهم لزياد . وقبض زياد على حجر وأصحابه ، وكتب الى معاوية في أمرهم ، فأمره بأن يشدهم في الحديد ويبيع بهم اليه .

يروى المؤرخ الدينورى ^(١) أن معاوية كاد يعفو عن حجر وأصحابه لولا أن زيادا بعث برسالة يبين له خطورة حجر . ويروى الأصبهاني ^(٢) أن زيادا بذل كل الجهود في أن يشهد أكبر عدد ممكن من وجوه الكوفة بأن « حجر بن عدى خلع الطاعة وفارق الجماعة ولعن الخليفة ودعا الى الحرب والفتنة ، وجمع اليه الجموع يدعوهم الى نكث البيعة وخلع أمير المؤمنين معاوية ، وكفر بالله كفره صلعاء . فقال زياد : على مثل هذه الشهادة فاستشهدوا ، والله لأجهدن في قطع عنق الخائن الأحقق » .

ويتفق المؤرخون في أن المختار رفض أن يوقع هذه الشهادة ، وشاركه في امتناعه عن توقيعها ثقفى آخر هو عروة بن المغيرة ابن شعبة ، فيذكر الطبرى ^(٣) : « ودعا — زياد — المختار بن أبى عبيد وعروة بن المغيرة بن شعبة ليشهدا عليه فراغا » .

(١) الأخبار الطوال ص ١٣٧ .

(٢) الأغاني ج ١٦ ص ٧ .

(٣) الطبرى ج ٤ ص ٢٠١ .

حددت هذه الشهادة مصير حجر وأصحابه ، فقد فكر معاوية في العفو عنهم ، ولكن زيادا بعث برسالة جاء فيها : « عجبت لاشتباه الأمر عليك مع شهادة أهل مصرهم عليهم وهم أعلم بهم ، فإن كنت لك حاجة في هذا المصر فلا تردن حجرا وأصحابه إليه » .

كان الانتقال من تأييد حزب الى آخر في ذلك الوقت أمرا مألوفا عاديا ، مما يفسر لنا انتقال المختار من تأييد (العثمانية) الى العطف على الشيعة ثم اعتناق مذهب التشيع . وزياد بن أبيه خير مثال على التنقل بين الأحزاب المختلفة . فقد كان زياد في مبدأ حياته السياسية من شيعة على بن أبي طالب وعاملا له على فارس . ولما تولى معاوية الخلافة أدرك أن زيادا خير من يعتمد عليه في ارساء قواعد الدولة الأموية ، فقربه اليه واستلحقه واعتبره أخاه فأصبح يسمى (زياد بن أبي سفيان) وولاه حكم البصرة ثم ضم اليه الكوفة . ولم يجد زياد غضاضة في الانتقال من تأييد حزب الشيعة الى تأييد الحزب الأموي ، بل حاول أن يحث حجر بن عدى على أن يحذو حذوه ، فقال له : « رأيت ما كنت تعرفني به من حب على ووده ؟ فإن الله قد سلخه من صدرى فصيره بغضا وعداوة . وما كنت تعرفني من بغض معاوية وعداوته ؟ فإن الله سلخه من صدرى وحوله حبا ومودة . انك ان تستقم تسلم لك دنياك ودينك » (١) .

(١) الأصبهاني : الأغاني ج ١٦ ص ٧ .

اعتناق المختار مذهب الشيع في عهد يزيد بن معاوية :

كانت مراوغة المختار لزيد وامتناعه عن توقيع الشهادة التي كانت بمثابة الحكم بالاعدام على حجر وأصحابه ، مظهرا لعطف المختار على الشيعة من جهة ، ومعارضة سلبية لسياسة معاوية وواليه زياد من جهة أخرى . فقد كان معاوية حاكما قويا استطاع أن يدير دفة الدولة لمصالحه وصالح الحزب الأموي ، كما استطاع واليه زياد أن يقبض على العراق بقبضة من حديد (١) ، واستطاع القضاء على ثورات الشيعة والخوارج ، ونشر الأمن والطمأنينة في ربوع العراق ، بل كان اسمه كافيا لاثارة الرعب في القلوب (٢) .

فلا عجب أن نرى المختار يركن الى الهدوء طوال خلافة معاوية ، فيخرج الى ضيعة له في (خطرنيه) قرب الكوفة (٣) ، وينصرف الى أعمال الزراعة مع مواليه ، منتظرا الفرصة المناسبة للظهور على مسرح السياسة ، ولم يقدم من ضيغته الى الكوفة الا بعد قدوم مسلم بن عقيل بن أبي طالب مبعوثا من الحسين بن علي لأخذ البيعة للحسين والتمهيد لقدمه الى الكوفة من الحجاز ، ففتح المختار أبواب داره بالكوفة لمسلم ودعا الشيعة الى البيعة له فأقبلت على بيته من كل حذب

(١) Sykes : Hist. of Persia, V. I, p. 345

(٢) Ockley : Hist. of the Saracens, p. 361

(٣) البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢١٤ .

وصوب . ويجرنا الحديث عن الحسين ومسلم الى الحديث عن
تطور حزب الشيعة ومبادئه في العراق ، تلك المبادئ التي
اعتنقها المختار واستمر يدافع عنها حتى لاقى حتفه ، وقد أدى
هذا التطور الى تفكير الحسين بن علي في اعلان الثورة ،
واختيار الكوفة مكانا للثورة على الدولة الأموية .

كان هدف حزب الشيعة في أول نشأته المطالبة بحق علي بن
أبي طالب في الخلافة بعد الرسول ، ولما تولى علي الخلافة
اعتبروه الوصي والامام ، فقد عينه الرسول بعده ، وأنه معصوم
عن الكبائر والصغائر ^(١) وتطور حزب الشيعة بعد مقتل علي ،
فاقتصروا نفوذ الحزب على بلاد العراق ، فكان بالحجاز أولاد
الصحابة الذين لا يقررون الشيعة على مبادئهم ^(٢) ، وبعد مقتل
علي تكون حزب ديموقراطي يتألف بصفة خاصة من العناصر
العربية وانضم اليه عدد كبير من الموالي .

وقد أدت تولية يزيد بن معاوية الخلافة بعهد من أبيه الى
تحول في آراء الشيعة ، فقد نظرت الشيعة الى طريقة توليته
ومغزى تقلده مهام الخلافة وصفاته الشخصية نظرة لا تنطوي
على اقتناع أو رضى . أما الطريقة التي وصل بها يزيد الى
الخلافة فهي تخالف رأى الشيعة في الخلافة ، فهم يرون أن
الحسن ثم الحسين هما الخليفتان الشرعيان لعلي ، باعتبارهما

(١) الشهر ستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٤ .

(٢) مثل عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير بن العوام
وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب .

امامين ورثا هذه المرتبة في رئاسة الدولة وولاية الحكم فيها ، وفي العلوم والصفات الروحية التي اختصا بها ، وكل امام منهما وصى لسلفه الذي عينه باقراره الصحيح . وتعد الشيعة كل دستور غير هذا للخلافة اغتصابا وقهرا ، ولذلك فانها لم تعترف بحق يزيد في الخلافة ، ورأوا في خلافته أمرا مخالفا للدين ومبادئ الشيعة السياسية .

رأت الشيعة في تقلد يزيد الخلافة استمرارا للدولة الأموية التي كافحوا مؤسسها معاوية في صفين . وهم وان سكتوا — الى حد ما — طوال خلافة معاوية ، فان ذلك نتيجة ما أشاعه زياد بن أبيه من ارباب ، فقد قتل زياد الآلاف من الشيعة في البصرة ، كما قتل حجر بن عدى زعيم شيعة الكوفة . ولكن موت الحسن مسموما أثار كوامن الثورة في نفوس الشيعة في أواخر حكم معاوية . ولكنهم لم يجرؤا على التعبير عن غضبهم الا بعد وفاة معاوية . كذلك أضعف موت الحسن آمال الشيعة في توليه الخلافة بعد معاوية ، وكان معاوية قد تعهد له بذلك .

ثم جاءت خلافة يزيد رغم معارضة الشيعة ، ورأت الشيعة في خلافته بقاء دمشق مقرا للحكم ، فلا مفر من أن تقف الكوفة حاضرة الشيعة بالعراق في وجه دمشق حاضرة الأمويين . كما أن الشيعة لم ترض عن صفات يزيد الشخصية ، فقد كان معظمهم يتصفون بالزهد والتقوى ، بينما اشتهر يزيد بالانصراف الى اللهو والترف ورأت الشيعة أن كفاحهم ليزيد هو جهاد ديني

وأن موقفهم منه هو نفس موقف الرسول من الكفار حينما قام بالدعوة الى الاسلام (١) .

مسلم بن عقيل مبعوث الحسين بن علي في بيت المقدس

كان الحسين بن علي يرى أن عليا وأولاده أحق بالخلافة من يزيد . وكره الحسين نزول الحسن لمعاوية عن الخلافة ، ولكنه رأى أن خلافة معاوية أصبحت أمرا لا مفر منه ، فقد أجمع المسلمون في عام ٤٠ هـ على بيعته ، فأمر الحسن شيعته بالركون الى الهدوء حتى تنتهي حياة معاوية ويعود الأمر الى الحسن ، كما وعده معاوية بذلك ، فقال لهم : « ليكن كل رجل منكم حلما من أحلاس بيته مادام معاوية حيا ، فانها بيعة كنت والله لها كارها ، فان هلك معاوية نظرنا ونظرتم ، ورأينا ورأيتم » (٢) . وكان الحسين يشعر أن في خروجه على طاعة معاوية نقضا لبيعته له من جهة ، وقضاء على حياته من جهة أخرى . فقد أرسل أهل الكوفة يدعونه اليهم فأبى ذلك عليهم . فراسلوا محمد بن الحنفية ، فقصد الحسين يستشير ، فقال الحسين له : « ان القوم انما يريدون أن يأكلوا بنا ، ويستطيخوا بنا ، ويستنبطوا دماء الناس ودماءنا فأقام الحسين على ما هو عليه من الهموم ، مرة يريد أن يسير اليهم ، ومرة يجمع الاقامة

(١) جولد تسيهر : العقيدة والشرعية في الاسلام ص ٦٩ .

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١١٧ .

عنهم» (١) . وأراد معاوية أن يسرى عن الحسين همومه ، فأغدق عليه الصلات والعطاء ، لعلها تنسيه أمله الضائع .

ولما أراد معاوية أن يعهد بالخلافة من بعده لابنه يزيد في سنة ٥٠ هـ للهجرة رحل الى الحجاز ليستطلع رأى أبناء الصحابة ، ولم يدع الى مجلسه الحسن والحسين ، فقد كان رأيهما معروفا سلفا . ولكن أبناء الصحابة الآخرين هبوا في وجهه مما جعله يعدل عن رأيه الى حين ، ويعود أدراجه الى الشام . ثم مات الحسن ، فرأى معاوية أنه في حل من عهده له ، وحاول أخذ البيعة لابنه يزيد من كبار الصحابة بالحجاز فامتنعوا عن مبايعته .

وتوفى معاوية وخلفه يزيد ، فلم يبايعه الحسين بالخلافة ، فقد كان يعتبر نفسه خيرا منه « أبا وأما ونفسا » (٢) . ولكن الحسين ، وقد رأى نفسه بالحجاز بين عبد الله بن عمر وعبد الله ابن عباس بن عبد المطلب وعبد الله بن الزبير بن العوام وغيرهم من أبناء الصحابة ، لم يجرؤ أن يستند في حقه في الخلافة كوارث لعلى وممثل للبيت العلوى ، ولكن كواحد من أبناء المهاجرين الذين اعتبروا أنفسهم « ولاة الأمر » (٣) . وكان الحسين في حاجة الى تأييدهم ومناصرتهم ضد الخليفة الجديد .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ١٦١ .

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١١٧ .

(٣) ابن نشوان : الحور العين ص ١٥١ .

فلما بعث يزيد الى واليه بالمدينة يأمره بأخذ البيعة من الحسين،
خرج الحسين سرا الى مكة ، ينتظر ما تأتى به الأيام .
أيقنت الشيعة بالعراق أن الفرصة قد حانت لاهياء الخلافة
العلوية ونقل الحاضرة الى الكوفة . وأن الحسين وان كان قد
أبى الخروج اليهم بالأمس احتراماً لبيعة معاوية ، فانه بعد تولية
يزيد يلبي دعوتهم . وقد نعجب في أن تدعو الشيعة الحسين
ليولوه الخلافة في العراق رغم وجود خليفة آخر بالشام . ولكن
العجب يزول اذا علمنا أن بعض الشيعة كانوا يرون جواز «كون
امامين وثلاثة وأكثر من ذلك في البلدان المتقاربة في وقت واحد،
وأن الامامة لا يستحقها الا الفاضل الذي يعرف فضله وتقدمه
على جميع الأمة في خلال الخير» (١) .

ولما علم أهل الكوفة بوفاة معاوية وخروج الحسين الى مكة
اجتمعت الشيعة في منزل سليمان بن صرد وكتبوا للحسين
يدعونه للقدوم الى الكوفة ، ووعدوا بطرد الوالى الأمير النعمان
ابن بشير ، وهو والد زوجة المختار ، وتتابع كتب أشرف
الكوفة حتى بلغت خمسين كتاباً (٢) .

وأمام هذه الكتب المتلاحقة ، وأمام وعود أهل الكوفة
الخلافة ، رأى الحسين أن يستجيب لدعوتهم ويشخص اليهم .
ولكنه أراد أن يتحقق من صدق مقالتهن ، فرأى أن يرسل اليهم

(١) ابن نشوان : الحور العين ص ١٥١ .

(٢) الدينورى : الاخبار الطوال ص ٢٤٣ .

ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ليمهد له الطريق ويعرف أهواء الناس .

قدم مسلم الى الكوفة ، وقصد من توه الى دار المختار الذي كان قد قدم من ضيعته في (خطرنيه) مع مواليه الى الكوفة بعد اضطراب الأمر بوفاة معاوية ، ليرقب تطور الأحداث . وقد تساءل عن سبب اختيار مسلم لدار المختار دون غيرها من الدور ، رغم وجود كثير من زعماء الشيعة بالكوفة ، ورغم أن المختار لم يوجه الدعوة كتابة للحسين بالقدوم الى الكوفة .

ومن اليسير أن نجيب عن هذا السؤال ، فقد كان مسلم صديقا حميما للمختار ، وارتبط الرجلان بالمودعة منذ نعومة أظفارهما . ولولا أن مسلما شعر بأنه سيجد الأمان في دار المختار لما قصدها ، ولولا أنه يثق في اخلاص المختار للبيت العلوي ومبادئ الشيعة لما حل عليه ضيفا . كما أننا نضيف عاملا آخر نستطيع أن نستنتجه مما نعرفه عن حياة المختار الشخصية ، فقد كان المختار زوجا لعمرة بنت النعمان بن بشير والى الكوفة حينئذ ، ولا شك أن يد النعمان لن تمتد الى مسلم طالما هو مقيم في دار صهره المختار .

أصبحت دار المختار — وكانت تسمى دار مسلم بن المسيب — مقصدا للشيعة من كل مكان ، حتى اذا اجتمع عدد كبير من الشيعة ، قرأ مسلم عليهم كتاب الحسين بن علي ، وجاء فيه أنه مجيبهم الى ما يريدون ان لزموا العهد وتفرعوا بالصبر

على مكافحة أعدائهم . فأخذوا يكون ، وقام أحد الشيعة ، وهو عابس بن أبى شبيب الشكرى فقال لمسلم : « أما بعد فانى لا أخبرك عن الناس ولا أعلم ما فى أنفسهم وما أغرك منهم والله ما أحدثك عما أنا موطن نفسى عليه ، والله لأجيبنكم اذا دعوتهم ولأقاتلن معكم عدوكم ولأضربن بسيفى دونكم حتى ألقى الله ، لا أريد بذلك الا ما عند الله » (١) . وتتابع الخطباء يعلنون تأييدهم للحسين بن على ويحثونه على القدوم الى الكوفة .

وتمضى وفود الشيعة على دار المختار يرحبون بمسلم بن عقيل ويبايعونه . ويشبه أحد المؤرخين الشيعة (٢) البيعة التى أخذها مسلم من الكوفيين بالبيعة التى أخذها رسول الله من الأوس والخزرج فى العقبة الثانية ، وفى يوم الفتح ، والتى أخذها من المسلمين يوم الغدير ، والتى أخذها على بن أبى طالب يوم بويج بالخلافة ، والتى أخذها الحسن بن على من أهل الكوفة بعد استشهاد أبيه على ، وتدور حول الدعوة الى كتاب الله وسنة رسوله وجهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين واعطاء المحرومين وقسمة الفىء بين المسلمين بالسوية ورد المظالم الى أهلها ونصرة أهل البيت على من نصب لهم العداوة والبغضاء وجهل حقهم . والمسألة لمن سالموا ، والحرب لمن جاربوا ، من

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٦٤ .

(٢) المقدم : الشهيد مسلم بن عقيل ص ١٠٣ .

دون رد لقولهم ، ولا تخطئة لفعالهم ، ولا تنفيذ لرأيهم . وبعد
أن أخذ مسلم البيعة من الشيعة ، كانوا يمسحون أيديهم على
يده يهتفون بالرضا والتسليم ، على غرار ما كان يفعله الأنصار
مع الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة ، وقریش يوم الفتح ،
وبلغ عدد من بايعوا مسلماً ثمانية عشر ألفاً أو خمسة وعشرين
ألفاً ، وفي حديث الشعبي أنهم أربعون ألفاً .

وكان مما ساعد مسلم بن عقيل على نجاح مهمته أن النعمان
ابن بشير والى الكوفة ، لم يبادر الى الضرب على أيدي الشيعة ،
فقد كان كما وصفه الطبرى ^(١) « حليماً ناسكاً يحب العافية » .
ولذا نراه « يضرب صفحاً ولا يعاباً به » . ولكن بعض الأمويين
لم يعجبهم سكوت النعمان عن هذه الفتنة وهى تستفحل يوماً
بعد يوم ، فاتهموه بالضعف ، ولكنه دافع عن نفسه فقال : « أن
أكون ضعيفاً وأنا فى طاعة الله أحب الى من أن أكون قوياً فى
معصية الله ، وما كنت لأهتك بئراً ستره الله » .

وكتب بنو أمية بالكوفة الى الخليفة يزيد بن معاوية فى
دمشق يشكون اليه واليه النعمان بن بشير ، ويتهمونه بالضعف
أو التظاهر بالضعف ، ويبينون له خطورة الموقف . ويرى يزيد
أن يعزل النعمان ، وقد استشار أصحابه فىمن يولى بدله ،
فأشاروا عليه جميعاً بعبيد الله بن زياد بن أبيه والى البصرة ،
فرفض يزيد ذلك الاقتراح لكراهيته لعبيد الله ، ولكنه سرعان

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٦٤ .

ما خضع لرايهم ، فقد كان ابن زياد الشخص الوحيد الذي يمكنه الوقوف في وجه الحسين بن علي (١) .

بعث الحسين بن علي الى زعماء شيعته بالبصرة وأشرفها كتباً من نسخة واحدة ، جاء فيها : « أما بعد فإن الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم على خلقه وأكرمه بنصرته واختاره لرسالته ثم قبضه الله اليه ... وكنا أهله وأوليائه وأوصيائه ورثته وأحق الناس بمقامه في الناس ، فاستأثر علينا مؤمنا بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه » . وكتم أشرف البصرة كتب الحسين عدا المنذر بن الجارود الذي خشي أن يكون الكتاب دسيسة من قبل ابن زياد فأطلعه عليه ، فقتل ابن زياد رسول الحسين ، ووقف خطيباً يحذر أهل البصرة من الفتنة ، ثم خرج الى الكوفة ليقضى على مسلم بن عقيل كما أمره الخليفة يزيد .

خروج مسلم بن دار المنذر الى بيت هاني بن عروة :

خرج عبيد الله بن زياد الى الكوفة ، بعد أن استخلف أخاه عثمان على البصرة . ولما دخل الكوفة ملثماً ظنه أهلها الحسين بن علي ، فكانوا يوجهون اليه التحية والسلام . غادر مسلم بيت المختار ولجأ الى دار هاني بن عروة المرادي . ويفسر المؤرخ الطبري (٢) هذا الانتقال بقدوم ابن زياد

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٦٥ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٧٠ .

الى الكوفة واعلانه أنه سيقتل مسلماً ، فلجأ مسلم الى هانيء
 وطلب منه أن يجيره وينجده . وكره هانيء ايواء مسلم ولكنه
 اضطر الى نجده وقال : رحماك الله لقد كلفتنى شططا ، ولولا
 دخولك دارى وثقتك لأحببت ولسألتك أن تخرج عني ، غير أنه
 يأخذني من ذلك ذمام وليس مردود مثلى على مثلك من جهل .
 ويعلل كاتب شيعي ^(١) انتقال مسلم من دار المختار الى دار
 هانيء ، بأن مسلماً قد بلغه خطبة ابن زياد ووعيده ، وقد ظهر
 له حال الناس وخوفهم من ابن زياد ، فخشى مسلم أن يؤخذ
 غيلة ، فخرج من دار المختار بعد الظلام ، الى هذا الزعيم
 الكبير ، لعلمه بمكاته في مصر ، وشرفه في العشيرة ، وأنه
 مهاب الجانب أكثر من المختار ، مع ولاءه الصميم وعقيدته
 الراسخة ، وكان هانيء من كبار شيعة على بن أبي طالب .
 لم يكن المختار قد كون بعد حزبه السياسي ، ولم تكن له
 بعد عصية قوية في الكوفة تكفى لحماية مسلم ، كما أن والد
 زوجته النعمان بن بشير والى الكوفة كان قد عزله الخليفة يزيد
 ابن معاوية ، ففقد المختار العوامل التي جعلت مسلم يختار داره
 ملاذاً .

ويعتبر هانيء من أبرز أشراف الكوفة وقرائها وله ولعشيرته
 منزلة عظيمة في الكوفة ، وهو شيخ بنى مراد التي يحالفها
 كثيرون من بنى كندة ، وكان من المقربين للخليفة على بن
 أبي طالب وحضر معه حروبه وأبلى فيها بلاء حسناً .

(١) المقدم : الشهيد مسلم بن عقيل ص ١٢٩ .

علم ابن زياد أن مسلم بن عقيل يختبئ في بيت هانيء بن عروة المرادي ، فأرسل من يطلب هائثا ، وكان هانيء مقداما ثابت الجنان ، فجرؤ على أن ينصح ابن زياد بمغادرة العراق فقال : تشخص الى أهل الشام أنت وأهل بيتك سالمين بأموالكم ، فانه قد جاء حق من هو أحق من حقك وحق صاحبك (١) . على أن ابن زياد ما لبث أن كافأ هائثا على نصيحته بقتله .

كان المختار جريئا اذ فتح باب داره أمام مسلم بن عقيل وجعلها مقصدا للشيعة من كل أرجاء العراق . وكان المختار مؤمنا ببادئ الشيعة متحمسا لدعوة الحسين بن علي . ولم يطلب المختار من مسلم أن يغادر داره الى بيت هانيء بن عروة ، بل خرج مسلم من نفسه ، فقد ظن أنه يجد عند هانيء الأمان والنجدة . ولو طال بقاء مسلم في دار المختار لكان مصير المختار هو مصير هانيء .

وتناهى الى أسماع مسلم بن عقيل ما حل بمضيفه هانيء ، فخرج للانتقام والثأر ، وصحبه ثلاثون ألفا من أهل الكوفة ، وحاصر ابن زياد في قصره ، وكان في ثلاثين من وجوه الكوفة ، فأمر ابن زياد أصحابه أن يشرفوا من أعلى القصر « ويمنوا أهل الطاعة ويخذلوا أهل المعصية حتى أن المرأة ليأتي ابنها أو أخوها فتقول انصرف ان الناس يكفونك ! » (٢) . وتضاءلت الآلاف الثلاثون حتى أصبحت ثلاثين رجلا فقط . حتى اذا صلى بهم

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٩ .

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٣ .

مسلم صلاة العشاء ألقى نفسه وحيدا . فالتجأ الى بيت قريب ،
ولكن سرعان ما عرف ابن زياد مخبأه فقبض عليه وأمر بالقائه
من أعلى قصر الامارة ، فسقط مضرجا في دمائه ، ثم صلبه ،
فكان « أول قتيل صلبت جثته من بنى هاشم » (١) .

نجح عبيد الله بن زياد في مهمته وقضى على أركان الحزب
العلوي لسببين رئيسيين : أولهما اتباعه سياسة الشدة والارهاب
والاعدام لمجرد الظن والتهمة ، وإعلان الأحكام العرفية في كل
من البصرة والكوفة ، ثم انه أحسن كل الاحسان الى مريديه
وأتباعه .

أما السبب الثاني ، الذي مهد السبيل لنجاح ابن زياد في
العراق ، فهو بذله الأموال للأشراف من أهل الكوفة أنفسهم ،
ومعظمهم قد تعاهدوا وأقسموا الايمان المغلظة على نصرته
الحسين بن علي ، وللفرزدق الشاعر شهادة في الكوفيين تؤيد
لنا طمع الأشراف في الدرهم وعبادتهم للدينار ، واهتمامهم
بمصالحتهم قبل غيرها . فقد سأل الحسين الفرزدق عن أحوال
الناس في الكوفة فأجاب : قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بنى
أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء (٢) .

وخلاصة القول ، أن الجماعات التي أقامها النكير على بنى
أمية وراسلت الحسين وأكدت له اخلاصها وذرفت أمام مسلم
أعز دموعها هي الجماعات التي ابتاعها عبيد الله بن زياد بالدرهم

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٩٠

(٢) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٥٨

والدينار . وقد ابتاعها فيما بعد مصعب بن الزبير فتخلوا عن المختار وتركوه وحيدا يلي حقه ، ثم اشتراها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان فتخلوا عن مصعب وتركوه يلقي مصيره على يد عبد الملك .

موقف المختار من مأساة الحسين في كربلاء :

علم الخليفة يزيد بن معاوية بمصرع مسلم بن عقيل ، فبعث إلى عبيد الله بن زياد يأمره أن يكمل ما بدأه فيقتل أيضا الحسين بن علي (١) . وكان مسلم بن عقيل ، قد كتب إلى الحسين بن علي بعد أن شاهد اقبال الشيعة عليه في دار المختار بن أبي عبيد ثم في دار هانيء بن عروة : « ان الرائد لا يكذب أهله ، وقد يابغى من أهل الكوفة ثمانية عشر ألف رجل ، فاقدم ، فان جميع الناس معك ولا رأى لهم في آل أبي سفيان » (٢) . وكتب مسلم هذه الرسالة قبل مغادرته دار المختار ، وقبل مصرع هانيء ، وتناسى أهل الكوفة وعودهم وتخليهم عن هانيء ثم مسلم .

فخرج الحسين من مكة قاصدا الكوفة في ٨ ذي الحجة سنة ٦٠ هـ وحاول الكثيرون أن يثنوه عن عزمه ويذكروه بتخلي الشيعة عن أبيه وأخيه من قبل ، ولكنه لم يستمع إلى

(١) أنظر نص الخطاب في تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢١٣ .

(٢) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٥٦ .

فصائحهم وأصر على الرحيل . وعندما بلغ القادسية علم بمقتل مسلم فأثر العودة . ولكن اخوة مسلم أصرّوا على السير قدما للأخذ بثأره (١) . وأرسل ابن زياد قائده عمر بن سعد بن أبي وقاص لقتال الحسين ولكنه تباطأ في قتاله ، فبعث شمر بن ذي الجوشن والحسين بن نمير وشبث بن ربعي في جيش عدته عشرون ألفا ما بين فارس وراجل ليقاتلوا الحسين وكان في تسعين نفسا ما بين رجل وامرأة وطفل وقتلهم الحسين في كربلاء في شجاعة وبسالة حتى لقي مصرعه (١) .

ويسدل الستار على هذه المأساة التي شهدتها كربلاء . فما موقف المختار منها ؟ وهل يهب لينجد الحسين ويدفع عنه مصيره المؤلم ؟

كان المختار الى ذلك الحين فردا لم يكون حزبا ولم يكن له مؤيدون أو جماعة سياسية ، وان كان له منزلته بين أشراف الكوفة ، ومكاته في قلوب الشيعة ، وخاصة بعد نزول مسلم ابن عقيل مبعوث الحسين في داره . لهذا لم تكن الفرص مواتية للمختار لأن يمد المساعدة بطريقة عملية ناجعة للحسين أو يغير من مصيره المحتوم ، فقد تجمعت جميع العوامل والظروف لترسم مأساة كربلاء ، وكان ما لاقاه الحسين نتيجة لكثير من الأخطاء التي ارتكبتها الشيعة ، أو الجوانب التي أغفلها الحسين ، فلم يكن في وسع المختار أن يتلافها أو يصلح من أمرها شيئا ، وكانت جميع التيارات السياسية تدفع بالحسين الى نهايته المؤلمة .

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٢٠ .

ولا شك أن شيعة العراق يتحملون الجانب الأكبر من دماء الحسين ، فشيعة البصرة لم تحرك ساكنا ، ولقت الحسين نظرهم الى ذلك ، ولكنهم استمروا في استكاثتهم . أما شيعة الكوفة وهم الذين راسلوا الحسين ، فقد كان زعيمهم سليمان بن صرد ، وهو أعلم الناس بهم ، غير مطمئن الى ثباتهم على موقفهم . ولم تمهد الشيعة الأمور قبل قدوم الحسين اليهم ، فلم يتخلصوا من أمرائهم ولم يطردهوا بنى أمية ، ونرى هذا واضحا فيما قاله عبد الله بن عباس بن عبد المطلب للحسين : أتسير الى قوم قتلوا أميرهم ، وضبطوا بلادهم ، ونفوا عدوهم ؟ فان كانوا فعلوا ذلك فسر اليهم ، وان كانوا انما دعوك اليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم ، وعماله تجبى بلادهم ، فانما دعوك الى الحرب ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ويستنفروا اليك فيكونوا أشد الناس عليك !! (١) .

لم تكن الظروف مواتية لقدوم الحسين ، فكما تخلت الشيعة عن مسلم تخلت أيضا عن الحسين ، فقد تفرقوا عنه وامتنعوا عن مؤازرته « حتى بقى في أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة » (٢) . فلما ذكرهم الحسين بالكتب التي كانوا يرسلونها ، والتي بلغت الخمسين عددا قالوا : انا والله لا ندرى ما هذه الكتب التي تذكر !! فأخرج الحسين خرجين مملوءين صحفا فنشرها بين

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٦ .

(٢) الطبرى ج ٦ ص ٢٢٥ .

أيديهم (١) . وقد أدرك الحسين خذلان الشيعة فطلب من أصحابه الذين قدموا معه من المدينة التفرق عنه ، لأنهم « انما اتبعوه لأنه يأتى بلدا قد استقامت له طاعة أهلها فكره أن يسيروا معه الا وهم يعلمون على ما يقدمون » (٢) .

وقد وصف أحد الشيعة حال شيعة الكوفة للحسين فقال : « أما أشرف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم ، يستمال ودهم ويستخلص به نصيحتهم ... وأما سائر الناس بعد فان أفئدتهم تهوى اليك ، وسيوفهم غدا مشهورة عليك » (٣) . وقد صدق هذا في قوله ، فقد نسيت الشيعة حقوق آل البيت بما كانت تغمرهم به الحكومة الأموية من أعطيات وأرزاق ، فدانوا لها بالخضوع والطاعة .

ولم يهتم الحسين بتنظيم دعوته ونشرها بين الناس ، وأغفل عنصر الدعاية اللازمة للحروب ، فظن أن القوم سيقدمون على بيعته ويتهاكون في نصرته لانتسابه الى رسول الله ، ولكن الحياة جهاد ، والقوى هو السباق الى اكتساب ولاء الناس اما ببذل الأموال لهم واشراكهم في بعض المطامع الدنيوية ، واما باسناد المناصب العالية لأشرافهم وزعمائهم كما فعل الأمويون . ونرى هذا واضحا فيما قاله عمر بن عبد الرحمن بن الحرث للحسين : « لقد بلغنى أنك تريد العراق واني مشفق عليك انك

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٢٠ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ١٦٩ .

(٣) الطبري ج ٦ ص ٢٣ .

تأتى بلدا فيه عماله وأمرأؤه ومعهم بيوت الأموال ، وانما الناس
عبيد الدينار والدرهم ، فلا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك
نصره ومن أنت أحب اليه ممن يقاتلك معه (١) .

ولا شك أن هذه الظروف التى أوضحناها تبرر عجز المختار
عن مد يد المساعدة الحاسمة الى الحسين ، وقد ذكرنا أنه لم يكن
قد كون حزبه السياسى بعد ، فتكون مساعدته اذن مجهودا
فرديا محدود الفائدة ، وان كان المختار قد بذل كل جهده فعلا .
ويرى ابن خلدون (٢) أن هزيمة الحسين كانت أمرا محتوما ،
لأن الحسين لم يكن له الشوكة التى تمكنه من هزيمة الأمويين
«لأن عصية مضر كانت فى قريش ، وعصية قريش فى عبد مناف
وعصية عبد مناف فى أمية تعرف ذلك لهم قريش وسائر
الناس لا ينكرونه » وكان المسلمون يتوقعون فشل حركة
الحسين وقتله ، فيقول ابن العربى (٣) : « لولا معرفة أشياخ
وأعيان الأمة بأن أمرا صرفه الله عن أهل البيت ، وحالا من الفتنة
لا ينبغى لأحد أن يدخلها ما أسلموا أحدا » .

قد نجد العذر للشيعه اذ لم يقدموا يد المساعدة للحسين ،
اذا علمنا السياسة الارهابية التى اتبعها عبيد الله بن زياد ،
وما ارتكبه من قتل وتعذيب ، فقد سجن اثني عشر ألفا من

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٦ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٥٢ .

(٣) العواصم من القواصم ص ٢٣٢ .

الشيعة ، ولم يترك واحدا من زعمائهم طليقا ، وهددهم بقدوم جيوش الشام .

ولكن المختار بذل كل ما يستطيع بذله في الدفاع عن مسلم ابن عقيل بن أبى طالب أولا ثم عن الحسين بن على بن أبى طالب أما عن تأييده لمسلم ، فقد مر بنا كيف فتح المختار داره أمام مسلم وشيعته ، ويذكر المؤرخ ابن كثير ^(١) : « فلما كان من أمر مسلم بن عقيل ما كان وقتله ابن زياد ، كان المختار يومئذ بالكوفة فبلغ ابن زياد أنه يقول : لأقومن بنصرة مسلم ولأأخذن بثأره ! فأحضره بين يديه وضرب عينه بقضيب كان بيده ، وأمر بسجنه » .

أما عن مساعدة المختار للحسين ، فيذكر المؤرخ اليعقوبى ^(٢) : « وكان المختار بن أبى عبيد الثقفى أقبل فى جماعة عليهم السلاح يريدون نصر الحسين بن على عليه السلام ، فأخذه عبيد الله فحبسه وضربه بالقضيب حتى شتر عينه ، فكتب فيه عبد الله بن عمر — ابن الخطاب — الى يزيد بن معاوية ، وكتب يزيد الى عبيد الله — ابن زياد — أن خل سبيله ، فخل سبيله ، وثقاه ، فخرج المختار الى الحجاز ، فكان مع ابن الزبير » .

وهكذا قام المختار بواجبه نحو كل من مسلم بن عقيل والحسين بن على على قدر استطاعته ، وحسب ما سمحت

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٩ .

(٢) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٥ .

الظروف السياسية ، وقد لحق الأذى بالمختار نتيجة تأييده لهما ،
فقد شتر ابن زياد عينه وألقاه بالسجن ، ثم أخرجه منفا شريدا
من العراق .

استفاد المختار من بعض العيوب التي شابت حركة
الحسين بن علي . فقد اهتم المختار بعنصر الدعاية لحركته بكل
الوسائل ، فخطب عواطف الناس كما خطب عقولهم . وبدأ
حركته السياسية بأن تخلص من ولاية الأمويين بالعراق والسيطرة
على بيوت الأموال ، وأصبح صاحب النفوذ الأول ، مما مهد له
الطريق لأن ينشر دعوته وتلاقى فيما بعد النجاح المنشود . كما
أغدق المختار الأموال والصلات والمناصب على أهل العراق
فأقبلوا على نصرته والتخلي عن تأييد الأمويين .

كان مصرع الحسين بن علي ، حفيد الرسول ، صدمة عنيفة
مست مشاعر المسلمين في كل مكان ، فأثارت عطفهم على
الحسين وآل بيته وشيعته ، وأصبح المسلمون لا يرون ما يمسح
أحزانهم أو يخفف من آلامهم سوى الأخذ بثأر الحسين من
قتله . ورأى المختار أن يكون هو القائد الذي يقود الشيعة
للأخذ بثأر الحسين ويشفي غليل المسلمين والشيعة ، وأصبح
الأخذ بثأر الحسين الأساس الأول للحركة السياسية التي قام
بها المختار في بلاد العراق .

المختار وزير عبد الله بن الزبير بالحجاز :

نفي المختار من العراق - موقف الحجاز من يزيد
ابن معاوية - موقف ابن الزبير من يزيد والحسين بن علي -
بين المختار وابن الزبير في الحجاز - موقف عبد الله
ابن عمر صهر المختار من ابن الزبير - النعمان بن بشير
صهر المختار مبعوث يزيد الى المدينة - المختار ووزير
ابن الزبير - المختار يزود عن الكعبة - المختار ينبذ طاعة
ابن الزبير - المختار يلتقى بابن الحنفية قبل رحيله الى
العراق .

الفصل الثالث

المختار وزير عبد الله بن الزبير بالحجاز :

نفي المختار من العراق :

أصبح المختار في خلافة معاوية بن أبي سفيان يعتقد مذهب الشيعة ، ويمد يد المساعدة لزعماء الشيعة ، فرأيناه يفتح داره أمام مسلم بن عقيل حيث تلقى بيعة الشيعة ، ويبدل كل جهد لمعاوته ، ثم يجمع أنصاره ويخرج لمساعدة الحسين . ولكن عبيد الله بن زياد ، والى الكوفة الأموى ، لم يرض عن تصرفات المختار ، فأمر بالقبض عليه ، وأتت به الشرطة أمامه ، ف ضرب ابن زياد المختار بقضيب كان في يده على عينه فشرها ، وأمر بالقائه في السجن .

ولما علمت أخت المختار وهى زوجة عبد الله بن عمر ابن الخطاب بسجن أخيها ، طلبت من زوجها أن يعمل على الافراج عنه ، فكتب ابن عمر الى الخليفة يزيد بن معاوية يشفع في المختار ، واستجاب يزيد لطلبه ، فقد كان لابن عمر شأن بين المسلمين ، وكتب يزيد الى ابن زياد يأمره بالافراج عن

المختار . واضطر ابن زياد الى طاعة أمر الخليفة ، فأطلق سراح المختار ، ولكنه قرر تقيمه خارج العراق وأمهلته أن يغادره في خلال ثلاثة أيام ، والا ضرب عنقه بعدها ، وخرج المختار من العراق الى الحجاز وهو يقول : والله لأقطعن أنامل عيد الله ابن زياد ، ولأقتلن بالحسين بن علي عدد من قتل بدم يحيى ابن زكريا (١) . وبر المختار بقسمه ، فقد لقي ابن زياد مصرعه على يد المختار ، كما نجح المختار فيما بعد في قتل كل من اتهم بالاشتراك في قتل الحسين بن علي في كربلاء .

ويروى بعض المؤرخين (٢) قصة طريفة حول المختار خلال وجوده في سجن ابن زياد ، تدور حول نبوءة قيام المختار بطلب الثأر للحسين . فقد كان في السجن مع المختار رجلان ، هما ميثم التمار ، وعبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وآمن المختار وعبد الله بن الحارث بأن ابن زياد سيقدم على قتلهم جميعا ، وأخذا يستعدان للقاء الموت . ولكن ميثم التمار تنبأ لهما بأنه سيطول البقاء لهما ، فيتولى ابن الحارث حكم البصرة ، أما المختار فتنبأ له بأنه سيعيش حتى يقتل ابن زياد ويأخذ بثأر الحسين ، فقال ميثم للمختار : وأنت تخرج ثائرا بدم الحسين عليه السلام فتقتل هذا الذي يريد قتلنا وتطأ بقدميك على وجنتيه . وتحققت النبوءة تماما كما ذكر ميثم .

خرج المختار قاصدا الحجاز ناجيا بحياته ، وفي الطريق لقي

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٩ .

(٢) الحديدي : رسالة أخذ الثأر وشرح النهج ج ١ ص ١١٠ .

رجلا يدعى ابن العرق ، فروى له المختار كيف ضربه عبيد الله ابن زياد على عينه فسترها ، ثم قال له : قتلني الله ان لم أقطع أنامله وأعضاءه اربا اربا ، يا ابن العرق ، ان الفتنة قد أرعدت وأبرقت وكأنها قد انبعثت فوطئت في خطامها ، فاذا رأيت ذلك وسمعت به بمكان قد ظهرت فيه فقل ان المختار في عصائبه من المسلمين يطلب بدم المظلوم الشهيد المقتول سيد المسلمين وابن سيدها الحسين بن علي . فقال ابن العرق : سبحان الله ، وهذه أعجوبة مع الأحداث الأولى . فقال المختار : هو ما أقول لك فاحفظه عني حتى ترى مصداقه .

ثم سأل المختار ابن العرق عن أحوال الحجاز ، وعن أحوال عبد الله بن الزبير بن العوام ، فعلم المختار منه أن ابن الزبير لم يظهر الثورة علنا بعد ولكنه سيفعل ذلك قطعاً حينما يشعر بأن لديه قوة كافية . وسأل المختار ابن العرق عن ابن الزبير فأجاب ابن العرق : انه عائد بالبيت وانه يبايع سرا ، ولو اشتدت شوكته وكثر رجاله لظهر . فقال المختار : انه رجل العرب اليوم ، وان اتبع رأيي أكفه أمر الناس ، ان الفتنة أرعدت وأبرقت (١) .

وطال العمر بابن العرق حتى اذا كانت أيام الحجاج بن يوسف الثقفي بالعراق في خلافة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، قص ابن العرق على الحجاج ما دار من حديث بينه وبين المختار ، فعلق الحجاج على حديث المختار وقال عنه : لله درهم أي رجل دنيا ومسر حرب ومقارع أعداء ! . وكان المختار

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٧١ .

والحجاج يختلفان في السياسة وإن كانا يتفقان في الانتساب إلى
قبيلة ثقيف ، فكان الحجاج سيف بنى مروان وعضد الدولة
الأموية ، بينما كان المختار سيف الشيعة وعضد البيت الهاشمي
والعلوي .

وكان هناك كثير من المسلمين يعترضون على تولية الخليفة
الأموي يزيد بن معاوية ، فإلى جانب غضبهم من أن الخلافة
أصبحت ملكية وراثية ، وكأنها تحولت إلى كسروية أو قيصرية ،
فقد كانت صفات يزيد وأخلاقه لا ترضى المسلمين ، ولا يمكن
لهم مقارنتها بما كان عليه الخلفاء الراشدون ، بل معاوية نفسه .

موقف الحجاز من خلافة يزيد بن معاوية :

اختار المختار بلاد الحجاز ليقصدها بعد نفي ابن زياد له من
العراق ، وكان لمعارضة الحجاز للدولة الأموية وموقفه من خلافة
يزيد بن معاوية من الدوافع التي جعلت المختار يختار الحجاز
دون غيره من الأمصار .

بويح يزيد على أثر وفاة أبيه معاوية بن أبي سفيان ، وكان
اعتلاؤه عرش الخلافة خروجاً على مبادئ الشورى التي تقضي
باختيار الخليفة ، وهي المبادئ التي افتتن بها العرب اقتناها
جعلهم يتجاهلون حق أسرة الرسول في زعامة المسلمين الروحية
والدينية . ومنذ ذلك الحين أخذ الخليفة يوصى لمن يتولى

الخلافة من بعده ، وقد ضمن أن البيعة التي قام بها الجنود
 ووفود الأمصار لن تلقى شيئا من المعارضة بعد وفاته .
 وعندما شعر معاوية بقرب منيته استدعى ابنه يزيد وأوصاه
 وصيته الأخيرة ، فرسم له طريقة معاملة أهل الأمصار وكبار
 الشخصيات الإسلامية وأوصاه خيرا بأهل الحجاز اذ يقول :
 « أنظر أهل الحجاز فانهم أهلك فأكرم من قدم عليك منهم ،
 وتعاهد من غاب » . ثم حذره من ثلاثة أشخاص : عبد الله
 ابن عمر ، والحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير . ولكن ابن عمر
 قد تقدمت به السن وانصرف الى الدين والعبادة . وأما الحسين
 فلا يظهر خطره الا اذا دعاه أهل العراق ، أما ابن الزبير فأشدهم
 خطرا على يزيد فيقول معاوية : « وأما الذي يجثم لك جثوم
 الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب ، فان أمكنته فرصة وثب فذاك
 ابن الزبير ، فان هو فعله بك فظفرت به ، فقطعه اربا اربا » (١)
 كان هم يزيد منذ أصبح خليفة للمسلمين ، أن يأخذ البيعة
 من الأمصار ، فلبت ندائه ، ولم يستعص عليه سوى بلاد الحجاز
 حيث يعيش أبناء الصحابة ، الذين استطاعوا أن يجمعوا رأى
 أهالي الحجاز على معارضة البيعة ليزيد « فلم تكن ليزيد همة
 الا بيعة هؤلاء النفر » (٢) ، وخاصة الحسين بن علي بن أبي
 طالب وعبد الله بن الزبير بن العوام ، ولذا طلب يزيد من واليه
 بالمدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أن يأخذ البيعة منهما .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٣ .

(٢) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٤٠ .

وبعث الوليد الى الحسين وابن الزبير يستدعيهما اليه ، فاتفق الرجلان على أن يذهب الحسين الى الوليد ليتبين سر الدعوة ، وفوجيء الحسين بنبا وفاة معاوية ، وطالب الوليد بالبيعة ليزيد ، فقال : أما البيعة فان مثلى لا يبايع سرا ، ولا يجترى بها منى سرا ، فاذا خرجت الى الناس ودعوتهم للبيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحدا (١) .

موقف ابن الزبير من يزيد وحسين بن علي :

خرج المختار من العراق الى الحجاز حيث كان عبد الله ابن الزبير يقود حركة معارضة ضد الدولة الأموية . وقنع المختار أن يكون وزير ابن الزبير ، وأن يتناسى أطماعه وآماله في أن يصبح الرجل الأول ، قانعا بأن يلعب الدور الثاني في الأحداث السياسية في الدولة العربية الاسلامية . وكان لموقف ابن الزبير من كل من الخليفة الأموي يزيد بن معاوية ، والحسين بن علي ، أثره في موقف المختار من ابن الزبير . فقد أعلن المختار نبذه لطاعة الأمويين من جهة ، كما كان داعيا من دعاة الحسين بالعراق ، وأعلن أنه يأخذ بثأره من قتلته ، من جهة أخرى .

طلب الوالي الأموي بالمدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان من ابن الزبير أن يبايع ليزيد بعد وفاة معاوية ، فوعده بالحضور ، لكنه أسرع الى داره فكنن فيها متحرزا بأنصاره ،

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٦ - ٧ .

وفي جنح الليل خرج هاربا الى مكة . وفي اليوم التالي لحق به الحسين بن علي الى مكة دون أن يبائع ليزيد ، بينما بايع كل من عبد الله بن عمرو بن الخطاب وعبد الله بن عباس بن عبد المطلب . وفي مكة ، وجد ابن الزبير الأمن والطمأنينة التي افتقدوها في المدينة ، واستطاع أن يكسب عطف المسلمين وتأييدهم حينما قال لهم : « أفا عاخذ البيت » . ولكن والى المدينة الجديد عمرو بن سعيد بن العاص — الذي خلف الوليد وقد عزله يزيد لتهاونه مع الحسين وابن الزبير — شن حربا شعواء على ابن الزبير ، فولى على شرطته عمرو بن الزبير الذي كان يحقد على أخيه عبد الله بن الزبير ، فتتبع أنصاره في كل مكان ، وكان من بينهم أخوه المنذر بن الزبير وولده محمد (١) .

ورأى ابن الزبير التفاف المسلمين حول الحسين الذي نجح في تحريك عاطفتهم الدينية وأخذ في استغلالها لتحقيق مطامعه السياسية . ورأى أن يجد طريقا آخر — غير طريق القرابة من الرسول — يحرك به عاطفة المسلمين الدينية ، لعل ذلك يساعده في تنفيذ سياسته ، فكان أن لاذ بالكعبة وسمى نفسه (العاخذ بالبيت) ، وقام يصلى بجوار الكعبة ليلا ونهارا ، يطيل السجود ، ويكثر من التسييح ، فأجبه المسلمون وأعجبوا بصلاحه وتقواه .

وشعر ابن الزبير بعظم مركز الحسين وتقواه عليه ، وقد

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٨ .

صور المؤرخ ابن كثير^(١) الموقف بقوله : « وعظم شأن ابن الزبير عند ذلك ببلاد الحجاز ، فاشتهر أمره وبعد صيته ، ومع هذا كله ليس هو معظما عند الناس مثل الحسين ، بل الناس انما ميلهم الى الحسين لأنه السيد الكبير ، وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليس على وجه الأرض يومئذ أحد يساميه ولا يساويه » . ولذا كان ابن الزبير ممن يفدون على الحسين ويجلسون اليه ، اذ كان تباعده عنه مما يغضب المسلمين .

سنت الفرصة لابن الزبير حين أرسلت شيعة الكوفة الى الحسين ويجلسون اليه ، اذ كان تباعده عنه مما يغضب المسلمين .

على أن ابن الزبير شجع الحسين على الخروج الى العراق حيث لاقى حتفه . فيذكر ابن الأثير^(٢) أن الحسين استشار ابن الزبير في الرحيل فقال ابن الزبير : أما لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلت عنها . ويقول البياسي^(٣) ان الحسين كان « أثقل خلق الله على ابن الزبير ، وقد عرف أن أهل الحجاز لا يبايعونه ولا يتابعونه مادام حسين بالبلد » . ويذكر (أوكلی)^(٤) أن ابن الزبير كان مقتنعا تماما بأن كل جهوده ستضيع عبثا طالما بقي الحسين على قيد الحياة ، ولكن اذا أصابه مكروه فان طريق الخلافة سيكون مهذا له .

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٥٠ .

(٢) الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٧ .

(٣) الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام (مخطوط بدار

الكتب) ج ٢ ص ٨ .

(٤) The Hist of The Saracens, P. 397 (٤)

أدرك الحسين أن رحيله يرضى أطماع ابن الزبير ، فقال
الحسين عنه : ان هذا ليس شيء في الدنيا أحب اليه من أن
أخرج من الحجاز ، وقد علم أن الناس لا يعدلونه بي ، فود
أنى خرجت حتى يخلو له . وقال عبد الله بن عباس للحسين :
لقد أقررت عين ابن الزبير بتخليتك إياه والحجاز والخروج منها ،
وهو اليوم لا ينظر اليه أحد منك (١) .

ولئن كان خروج الحسين يحقق مصالح ابن الزبير ، الا أننا
نرى أن نصيحة ابن الزبير لم يكن لها أثر في عزم الحسين على
الرحيل الى العراق ، كما رأينا من عبارته التي علق بها على
نصيحة ابن الزبير ، الى جانب ما ذكرنا من العيوب التي شابت
حركة الحسين مما أدى الى اخفاقها .

لا شك أن ابن الزبير قد استفاد من مصرع الحسين ، فقد
خلا الجو له وأكمل مواطن النقص في حركة الحسين .

وأبرز هذه المواطن اكتفاء الحسين بإبداء معارضته لخلافة
يزيد بن معاوية وامتناعه عن البيعة له ، ولكنه لم يبادر بأخذ
البيعة لنفسه ليظهر أمام المسلمين بمظهر الخليفة صاحب الحق
الشرعى . ولو أنه فعل لسارع الناس الى بيعته ودانت له
الأمصار جميعا . ولكن امتناعه عن أخذ البيعة ، جعل بعض
الناس ينظرون اليه باعتباره خارجا على الخليفة الشرعى ، كما
أتاح الفرصة ليزيد لأن يقتله بحجة القضاء على الفتنة التي تهدد
كيان الدولة الاسلامية .

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٨٨ .

ولذا بادر ابن الزبير الى أخذ البيعة لنفسه ، وأعلن نفسه
أميرا للمؤمنين ، ونظر اليه المسلمون نظرهم الى الخليفة الذي
يجاهد في سبيل حقوقه ، ولم ينظروا اليه ككائن أو عاص .
اختار المختار طريقا يخالف الطريق الذي اتبعه الحسين
أو ابن الزبير . فهو لم يبايع نفسه بالخلافة طوال تاريخه
السياسي ، واكتفى أن يكون في مطلع حياته داعيا للحسين وحزب
الشيعه ، ثم أصبح وزيرا لعبد الله بن الزبير حين بايع نفسه خليفة
بالحجاز ، ثم رحل الى العراق حيث أعلن أنه وزير محمد بن
الحنفية زعيم الشيعة بعد مصرع الحسين .

بين المختار وابن الزبير في الحجاز :

رأينا المختار مغادرا العراق ناجيا بحياته بعد أن هدده عبيد الله
ابن زياد بالقتل ان طال به البقاء في الكوفة أكثر من ثلاثة أيام .
ولعلنا نتساءل عن سر اختيار المختار لبلاد الحجاز دون غيرها من
الأمصار الاسلامية منفي له بعد مغادرته بلاد العراق ؟

وللاجابة على هذا السؤال نقول : لقد كان الحجاز البلد
الوحيد الذي حمل لواء المعارضة للدولة الأموية في هذه الفترة
وتركزت فيه روح الثورة ، فبلاد العراق كانت قد أصيبت بصدمة
عنيفة بمقتل الحسين بن علي في كربلاء ، واستطاع عبيد الله بن
زياد أن يقبض بيد من حديد على بلاد العراق ، بما اتبعه من سياسة
القتل والتعذيب ، وقد أسرف في سفك الدماء ، وأصبحت بلاد

العراق في حاجة الى فترة من الهدوء تسترد فيها أنفاسها اللاهثة وتجمع فيها شملها وفلولها .

أما بلاد الشام فهي قلب الدولة الأموية ، وكانت لا تعرف طوال عصر الخلفاء الراشدين ثم في العصر الأموي غير طاعة بنى أمية .

أما مصر ، فقد كان أهله يميلون طوال عهد الخلفاء الراشدين والأمويين الى السلام والهدوء والبعد عن تيارات الأحداث السياسية ، وإن كنا سنرى بعض المصريين يقبلون على البيعة لعبد الله بن الزبير فيبعث اليهم بواليه ابن حجدم . وستظل مصر أيضا بعيدة تماما عن نشاط المختار ، فهي القطر الاسلامي الوحيد الذي لم يصل اليه نفوذ المختار .

أما بلاد الحجاز ، فهي موطن أبناء الصحابة الذين كونوا حزبا بالمدينة له شأنه ، فقد ارتفع صوتهم دائما بالاحتجاج والمعارضة للحكم الأموي ، وتركزت المعارضة في شخص عبد الله بن الزبير الذي أصبح سيد الموقف في الدولة العربية الاسلامية في ذلك الحين .

بعد مقتل الحسين بن علي في كربلاء ، تخلص ابن الزبير من منافس قوى ، فخلا ميدان السياسة أمامه ، وأصبح الرجل الأول في الدولة الاسلامية .

قدم المختار على عبد الله بن الزبير ، وكان مجلس ابن الزبير دائما عند الكعبة ، فرحب به وأجلسه الى جواره ، وتحادث الرجلان ، وسأل ابن الزبير المختار عن أحوال العراق ، ولكن

ابن الزبير لم يصرح بنواياه وأطماعه للمختار ، وقد يكون ابن الزبير مدفوعا في ذلك أنه حديث عهد بالمختار فلم يشأ أن يسرف في ثقته به وهو لم يختبره بعد ، كما كان ابن الزبير بطبعه كتوما ، حريصا على المال ، قليل الكلام ، مترددا في أقواله وأفعاله (١) .

وتقدم المختار الى عبد الله بن الزبير يعرض عليه أن يبايعه ، وقال له : « أبسط يدك أبايحك ، وأعطنا ما يرضينا ، وثب على أهل الحجاز فان أهل الحجاز كلهم معك » (٢) .

هذه العبارة الموجزة ، تبين أهداف المختار الحقيقة ، فهو يطلب من ابن الزبير أن يبايع لنفسه ، فقد شعر أنه الزعيم الوحيد الذي يمكن أن تتركز فيه حركة الثورة والمعارضة للدولة الأموية ، وشعر المختار أيضا أنه لا يستطيع منافسة ابن الزبير في الزعامة والرئاسة ، ولكنه رأى أن يتيح لنفسه الفرصة ليكون الرجل الثاني في الدولة ، فيكون أول من يبايع لابن الزبير ، وطلب المختار من ابن الزبير أن يقود أهل الحجاز في طريق الثورة ، فقد أجمع كل أهله على تأييده .

وكان أهل الحجاز بعد مصرع الحسين بن علي قد طلبوا من ابن الزبير أن يبايع لنفسه فقالوا : أيها الرجل أظهر بيعتك فإنه لم يبق أحد اذ هلك الحسين ينازعك هذا الأمر . ولكن ابن

(١) البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢١٦ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٤٤٤ .

الزبير قال لهم : لا تعجلوا (١) . وربما كان رفض ابن الزبير راجعا الى خوفه من أن يكون مصيره كمصير الحسين ، وربما أراد أن يظهر للمسلمين زهده في الخلافة . ولذا اكتفى ابن الزبير بأن سمى نفسه (العائد بالبيت) ورفض أن يتخذ لقب الخلافة .

ولذا رفض ابن الزبير ما عرضه المختار عليه من البيعة له . ويعمل المؤرخ الطبرى (٢) رفض ابن الزبير عرض المختار ، بأن المختار كان يتحدث مع ابن الزبير في أمر البيعة علنا وبصوت مرتفع ، مما يكشف السر الذي يحرص ابن الزبير على كتمانها ، « فهذا الكلام لا ينبغي أن يكون الا والستور دونه مرخاة والأبواب دونه مغلقة » . ولكننا نعلم رفض ابن الزبير البيعة التي اقترحها المختار بأن يزيد بن معاوية كان حينئذ لا يزال على قيد الحياة . وبعد مقتل الحسين ، وقف عبد الله بن الزبير يرثي الحسين ويذم أهل الكوفة لخذلانهم إياه ، ويذم الخليفة يزيد بن معاوية وقتله الحسين وخاصة ابن زياد ، ويعلن عدم اطمئنانه الى الحكم الأموي ، فيقول : « ... أقبعد الحسين فطمئن الى هؤلاء القوم ونصدق قولهم ، وتقبل لهم عهدا ؟ لا ، ولا نراهم لذلك أهلا . أما والله لقد قتلوه طويلا بالليل قيامه كثيرا في النهار ، صيامه أحق بما هم فيه منهم ، وأولى به في الدين والفضل .. » (٣) .

فما كاد الناس يسمعون مقالة ابن الزبير حتى هبوا طالبين منه

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٦٤ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٤٤٥ .

(٣) الطبرى ج ٤ ص ٣٦٤ .

أن يبايع لنفسه بالخلافة ، فقد كانوا في حاجة الى زعيم جديد بدلا من الحسين يقودهم الى الخلاص من الحكم الأموي . ولكنه رأى ألا يجيئهم الى ذلك . وربما كان ذلك راجعا الى ما رآه من مصير الحسين ، فرأى ألا يتعجل ، وربما أراد أن يظهر للناس زهده في الخلافة ، وإن كان في الحقيقة يرى أنه أجدر المسلمين في ذلك الحين بهذا المنصب ، بل إن المؤرخ (كاترمير)^(١) يرى أنه لم يكن بين العرب الطامعين في الخلافة في القرن الأول الهجري ، باستثناء علي بن أبي طالب ، رجل اجتمعت له الحقوق والمؤهلات ، سوى شخص واحد هو عبد الله بن الزبير .

وكان ابن الزبير يرى أن الوقت لم يحن لتحقيق اقتراح المختار ، فيتخذ لقب أمير المؤمنين ، مكتفيا الى حين بلقب العائد بالبيت . ويروي لنا المؤرخ ابن عساكر^(٢) سبب تمسكه بالاحتماء بالكعبة دون الخروج الى الأمصار فيقول : « الذي دعا عبد الله بن الزبير الى التعمد بالبيت شيء سمعه من أبيه حين سار من مكة الى البصرة ، وذلك أن الزبير التفت الى البيت بعد ما ودع وتوجه يريد الركوب ، وأقبل الى ابنه عبد الله وقال : أما والله ما رأيت مثلاً لطالب رغبة أو خائف رهبة » .

وأحسن المختار بعدم جدوى الالاحاح على ابن الزبير ، فغادره ، وغادر مكة الى الطائف ، مسقط رأسه ، وموطن قبيلة ثقيف

Memoire Hist. Sur la Vie d'Abd-Allah ben Zobeir, (J.A), P.239 (١)

(٢) التاريخ الكبير ج ٧ ص ٤٠٩ .

الأصلى ، وكان المختار قد فارق الطائف منذ خرج مع أبيه
 أبى عبيد بن مسعود حين صحبه فى قيادة الجيش الذى خرج
 ليفتح العراق فى خلافة عمر بن الخطاب . فقد أقام المختار بعد
 مصرع أبيه فى مدينة المدائن فى كنف عمه سعد بن مسعود .
 كانت الطائف على مسافة قصيرة من مكة ، فكان من اليسير
 على المختار أن يرقب الأحداث السياسية فى مكة من قرب من
 الطائف ، وكانت الطائف أحسن جوا وأكثر خيرات من مكة .
 وربما أراد المختار أن يستعيد ذكريات الطفولة والصبا فى الطائف ،
 وأن يكون بعيدا عن رقابة عبد الله بن الزبير ، وأن ينتظر ما تأتى
 به الأحداث والأيام .

أقام المختار فى مدينة الطائف عاما كاملا ، ولم نخبرنا المصادر
 التاريخية العربية شيئا عن نشاط المختار طوال هذا العام فى
 الطائف ، ولكنها تذكر أنه كان عند خروجه من مكة الى الطائف
 يردد عبارة : « أنا مبير الجبارين » ^(١) ، وعبارة « أنا صاحب
 الغضب ومسير الجبارين » ^(٢) . وهاتان عبارتان توضحان
 السياسة التى اتبعها المختار دائما طوال تاريخه السياسى ، فقد
 كان ينتهز كل فرصة للدعاية لنفسه وسياسته ، فقد كان المختار
 معتزلا بنفسه وبمقدرته ، طموحا الى المجد ، على جانب كبير من
 الذكاء والدهاء ومعرفة نفوس الناس وطبائعهم .

(١) انساب الأشراف ج ٥ ص ٢١٦ .

(٢) الكامل ج ٤ ص ٧٢ .

من أبرز الشخصيات الإسلامية في مكة في ذلك الحين عبد الله ابن عمر بن الخطاب ، وكان متزوجا من صفية بنت أبي عبيد ، شقيقة المختار . وقد لعب عبد الله بن عمر دورا كبيرا في تاريخ المختار السياسى ، فقد كان المختار يدخر ابن عمر ليستجد به وقت الشدة . فقد أنقذه كما رأينا من سجن عبيد الله بن زياد ، وقد يكون هذا السجن مقدمة لقتله . وسينقذه ابن عمر كما سنرى بعد قليل من سجن ولاية ابن الزبير بالعراق . وقد رأينا المختار يقصد ابن الزبير معلنا تأييده له ، طالبا منه أن يبايع له . فماذا سيكون موقف صهره عبد الله بن عمر من ابن الزبير ؟

علم الخليفة يزيد بن معاوية بالتفاف أهل الحجاز حول عبد الله ابن الزبير وطلبهم منه البيعة لنفسه ، فاستشاط غضبا ، وأقسم أن يوثقه بسلسلة . ولكن والى يزيد في مكة ، عمرو بن سعيد ابن العاص ، رغم حزمه وشدته ، لم يجرؤ على تحقيق قسم يزيد ، فقد كان ابن الزبير يزداد قوة يوما بعد يوم ، مما يجعل مقاومته عسيرة ، وخاصة أن الحامية الأموية بالحجاز قليلة العدد ، فأثر هذا الوالى السلامة وطلب العافية ، فكان « يدارى ويرفق » .

تحدث المؤرخ الطبرى ^(١) عن ارتفاع شأن عبد الله بن الزبير فقال : « علا أمر ابن الزبير بمكة ، وكاتبه أهل المدينة ، وقال الناس : أما اذا هلك الحسين عليه السلام فليس أحد ينازع ابن

الزبير» . ومن الطريف أن عمرو بن سعيد والى مكة الأموى أراد أن يكشف عن مستقبل ابن الزبير فبعث الى صديقه عبد الله ابن عمرو بن العاص فى مصر، وكان قد اشتهر بالعلم والاطلاع على كتب دانيال ، يسأل عن ابن الزبير فأجاب : لا أرى صاحبك الا أحد الملوك الذين تتم أمورهم حتى يموتوا وهم ملوك . فلم يزد عمرو عند ذلك الا شدة على ابن الزبير وأصحابه مع الرفق بهم والمدارة لهم (١) .

حمل عامل البريد الى ابن الزبير خبر السلسلة التى أقسم يزيد أن يوثق فيها ابن الزبير ، وأنذر ابن الزبير بأن مصيره سيكون كمصير الحسين بن على . فقال ابن الزبير : ان الحسين ابن على خرج الى من لا يعرف حقه ، وان المسلمين قد اجتمعوا على . فقال عامل البريد لابن الزبير : فهذا ابن عباس وابن عمر لم يبايعاك (٢) .

أدرك ابن الزبير صدق مقالة عامل البريد ، فان قصوره عن طلب البيعة من عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس ابن عبد المطلب يعتبر نقصا يجب تلافيه ، فقد كان لهما شأنهما العظيم بين المسلمين فى جميع الأمصار ، وخاصة فى الحجاز . ورأى ابن الزبير أن يجد فى أخذ البيعة منهما . ورأى أن يبدأ بابن عمر ، ولكن مهمته كانت معه شاقة ، اذ كان قد بايع يزيد

(١) اليباسى : الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام

(مخطوط) ج ٢ ورقة ٣٢ .

(٢) اليعقوبى ج ٣ ص ٢٢٠ .

من قبل ، ومن الصعب على ابن الزبير أن يقنع ابن عمر بنكت
بيعته .

رأى ابن الزبير أن يلجأ الى الحيلة ، بأن قصد زوجته صفية
بنت أبي عبيد ، وهى أخت المختار « وذكر لها أن خروجه كان
غضباً لله وللرسول وللمهاجرين والأنصار من أثره معاوية وابنه
يزيد بالفى » ، وسألها مسألة زوجها عبد الله بن عمر أن يبايعه .
فلما قدمت له عشاء ذكرت له أمر ابن الزبير واجتهاده وأثنت عليه
وقالت : ما تدعو الى طاعة الله عز وجل ؟ وأكثرت القول فى ذلك .
فقال : أما رأيت بغلات معاوية التى كان يحج عليها الشهباء ، فان
ابن الزبير ما يريد غيرهن ! » (١) .

لا شك أن عطف صفية بنت أبي عبيد ، والحاكما على زوجها
عبد الله بن عمر أن يبايع لعبد الله بن الزبير ، كان نتيجة لموقف
أخيها المختار من ابن الزبير ، فقد رأت صفية أخيها وقد شد رحاله
من العراق الى الحجاز معلناً تأييده لابن الزبير . ولكن عبد الله
ابن عمر لم يستمع الى نداء زوجته ، فقد وضع لنفسه سياسة
مرسومة ، فقد أراد الابتعاد عن المشاكل السياسية ، وقد رشحه
المسلمون مرتين للخلافة ، مرة بعد أن طعن أبوه عمر بن الخطاب ،
ومرة خلال التحكيم بعد معركة صفين ، ورفض عمر فى المرتين أن
يتولى الخلافة ، كما كان ابن عمر قد بايع ليزيد بن معاوية فلم

(١) البياسى : الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام

(مخطوط) ج ٢ ورقة ٣٢ .

يشأ أن ينكث البيعة . كما كان لابن عمر رأي في ابن الزبير
لا يتغير بتأييد المختار لابن الزبير .

وأما عبد الله بن العباس ، فقد خيب آمال ابن الزبير كما فعل
ابن عمر ، وامتنع عن البيعة له . وفرح يزيد بن معاوية بذلك كل
الفرح ، فكتب اليه يشكره ويعرض عليه أن يتخذ منه عضدا ضد
ابن الزبير . وفي الحق لم يكن امتناع ابن العباس عن البيعة لابن
الزبير نتيجة اخلاصه ليزيد ، أو لاقتناعه بأحقية بنى أمية في
الخلافة ، ولكنه كان قد بايع ليزيد حين بايعه معظم المسلمين ،
فراى ألا ينكث هذه البيعة ، وربما رأى أن من صالحه أن يبعد
عن السياسة وأخطارها .

النعمان بن بشير صهر المختار سبغ يزيدي إلى المدينة :

كان المختار متزوجا من ابنة النعمان . وكان النعمان على
تقيض صهره ، فقد كان مواليا لبنى أمية ، فتولى حكم الكوفة
وقت أن قدم اليها مسلم بن عقيل ، وكان تساهله مع مسلم
والمختار سببا لعزله عن حكم الكوفة . ولكن عزله لم يغير من
ولائه للبيت الأموي ، كما لم يغير من موقف الخليفة الأموي
يزيد بن معاوية منه ، فقد ادخر جهوده الى حين ، وأخيرا رأى أن
يكون مبعوثه الى المدينة .

فقد حدث أن عزل الخليفة يزيد الوليد بن عتبة واليه بالمدينة،
وولى بدله عثمان بن محمد بن أبي سفيان ، فقد أراد يزيد تغيير

سياسة العنف والشدة التي اتبعها عمرو بن سعيد والوليد بن عتبة بعد أن لمس اخفاق هذه السياسة وكان عثمان هذا « فتى غرّ عمر لم يجرب الأمور ولم يحنكه السن » (١) . وأراد الوالي الجديد، عثمان بن محمد ، أن يتبع سياسة اللين التي ارتآها يزيد ، فأرسل وفدا من أهل المدينة ظنا منه أن يزيد باكرامه لهم يقنعهم بأحقّيته في الخلافة دون ابن الزبير ، فيعودوا لسانا ناطقا معبرا عن رغبات يزيد ، وينكثوا ببيعة ابن الزبير وينفضوا من حوله .

قدم وفد المدينة ، وعلى رأسه عبد الله بن حنظلة الغسيل ، والمنذر بن الزبير ، وعبد الله بن أبي عمرو بن خوص ، وهم من أشرف المدينة ، على يزيد بدمشق ، فبالغ في الحفاوة بهم وأكرمهم اكراما لا حد له ، ونال هؤلاء الأشراف من يزيد العطاء والصلات ، ولم ينل منهم سوى الهجاء والسياب ، فما كادوا يعودون الى أهل المدينة حتى « قاموا فيهم فأظهروا شتم يزيد وعيبه وقالوا : انا قدمنا من عند رجل ليس له دين ، ويشرب الخمر ويعزف بالطناير ويضرب عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ويسامر الخراب والفتيان ، وانا نشهدكم انا قد خلعناه » (٢) . وأقبل أهل المدينة على عبد الله بن حنظلة الغسيل يبائعونه على خلع يزيد وولوه عليهم .

غضب يزيد أشد الغضب لما ناله من سب واهانة من أهل المدينة ، فأراد أن يحذرهم وينير السبيل أمامهم ، فبعث النعمان

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٤٤ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٣٦٨ .

ابن بشير ، وهو والد زوجة المختار ، الى المدينة ليصدهم عن الفتنة والخلاف . وقدم النعمان المدينة فأمر أهلها بالطاعة ولزوم الجماعة وخوفهم الفتنة وأفهمهم أنه لا طاقة لهم بأهل الشام . ولكن أهل المدينة لم يستمعوا لمقاتته ، فاضطر الى العودة الى دمشق خائبا (١) .

وظن أهل المدينة أن حلم يزيد بهم ، ضعف منه ، فتمادوا في عصيانهم ، وأعلنوا خلع يزيد ، ووثبوا على عثمان بن محمد ومن معه بالمدينة من بنى أمية ومواليهم وكانوا فحوا من ألف رجل ، فخرجوا بجماعتهم حتى نزلوا دار مروان بن الحكم ، فحاصروهم أهل المدينة فيها ، واستعاث الأمويون بيزيد . وما لبث أهل المدينة أن أخرجوهم من المدينة ، وتبعهم الصبيان والسفهاء يرمونهم بالحجارة .

وقرأ يزيد كتاب الأمويين فغضب كثيرا ، ورأى أن يحيد عن سياسة الحلم واللين ، وقد رأى أن حركة ابن الزبير ترداد يوما بعد يوم حتى استطاعت أن تسيطر على الحجاز ، واعتبر ابن الزبير محرضا لأهل المدينة . وعزم على ارسال جيش لتأديبهم ، نصب عليه مسلم بن عقبة قائدا حتى اذا وصل مسلم الى المدينة أمهل أهلها ثلاثة أيام يختارون فيها أحد أمرين ، البيعة أو الاستسلام ، ولكنهم اختاروا الحرب .

تزعّم عبد الله بن حنظلة الغسيل الأتصاري أهل المدينة في مقاومة الأمويين ، وحفروا خندقا كما فعل الرسول ، وتردد أهل

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٦١ .

الشام في قتال اخوانهم المسلمين أهل المدينة ، ولكن مسلما
حرضهم على القتال . وقامت معركة (الحرة) وانتهت بهزيمة أهل
المدينة ، وأتى الجيش الأموي كثيرا من القطائع والمذابح
والكباثر ، مما أجمع المؤرخون على استنكاره ، فقد أباح مسلم
المدينة ثلاثا لجنده يقتلون أهلها ويسلبونهم أموالهم (١) . وقتل
ثمانون من أصحاب الرسول وسبعمائة من قريش والأنصار ،
وعشرة آلاف من سائر الناس والموالي (٢) .

مضى الجيش الأموي في طريقه ، فرحف من المدينة الى مكة ،
ليحاصر ابن الزبير في الكعبة ، وكان المختار قد وصل الى مكة
عائدا من الطائف فاشترك الى جانب ابن الزبير في الدفاع عن مكة
وبيت الله الحرام .

المختار وزير ابن الزبير :

وبعد أن أمضى المختار عاما في وطنه القديم الطائف ، ظهر
فجأة مرة أخرى في مكة ، وكان ابن الزبير قد بدأ يطلب البيعة
من الناس . فدخل المختار على ابن الزبير المسجد وقد تبدى في
مظهر الرجل الخطير ، فرحب ابن الزبير به كثيرا وكان لقاءه له
هذه المرة أحسن من لقائه في العام الماضي .

كان ابن الزبير في حاجة الى تأييد المختار ، وشعر ابن الزبير

(١) الطبري ج ٤ ص ٥١ .

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١٥٩ .

أن الوقت قد حان ليطلب عون المختار له ، فقد تبلورت حركة ابن الزبير واتخذت شكلا متكاملا واضحا . وبدأ العداء السافر والصدام الحربي بين الزبيريين والدولة الأموية ، فقد قدم جيش أموى الى المدينة فأنزل بها سخطه وانتقامه ، ثم بدأ هذا الجيش زحفه الى مكة ، وأصبح موقف ابن الزبير حرجا ، وفي حاجة الى كل من يعاضده ويناصره . وربما أدرك ابن الزبير الأهمية الحقيقية للمختار ، فله شأنه في العراق والحجاز ، وخاصة أن ابن الزبير كان يطمح في أن يغير المختار من موقف عبد الله بن عمر بن الخطاب من ابن الزبير فيقبل على البيعة لابن الزبير وينكث ببيعة يزيد ابن معاوية ، كما شاهد ابن الزبير أن يزيد قد اختار النعمان ابن بشير صهر المختار ليكون مندوبه ورسوله الى أهالى المدينة . ولذا أكرم ابن الزبير وفادة المختار .

وفي هذه المرة ، طلب ابن الزبير من المختار أن يبايعه ، وكان المختار بالأمس يلح على ابن الزبير أن يمد اليه يده لبايعه . ووافق المختار على أن يبايع ابن الزبير ، على أن يقرن بيعته ببعض الشروط التى اشترطها على ابن الزبير ، وهى شروط تحقق مصالحه وأطماعه . وفى ذلك يقول المختار : أبايحك على أن لا تقضى الأمور دونى ، وعلى أن أكون أول داخل ، وإذا ظهرت استعنت بى على أفضل عملك .

ولكن ابن الزبير كان حريصا ، كعهدنا به دائما ، فلم يشأ أن يقيد نفسه بهذه الشروط رغم حاجته الى بيعة المختار ، فيقول للمختار : أبايحك على كتاب الله وسنة رسوله . ولكن المختار

يصمم على ألا يبايع ابن الزبير الا وفق ما اشترط عليه . ولا يلبث ابن الزبير أن يجيب المختار الى ما طلبه (١) . وأصبح المختار وزير ابن الزبير في كل الأمور ، فقد اشترط عليه ألا يقضى أمرا دونه ، ويذكر المؤرخ ابن كثير (٢) أن المختار كان « من كبار الأمراء عنده » . وأخلص المختار لابن الزبير وبر بوعده ، عسى أن يبر ابن الزبير بوعده أيضا . فيتحدث المؤرخ المسعودي (٣) عن المختار أنه قاتل الى جانب ابن الزبير « داخلا في جملته منضافا الى بيعته ، منقادا الى امامته على شرائط شرطها عليه لا يخالف له رأيا ولا يعصى له أمرا » . ويتحدث ابن الأثير (٤) عن موقف المختار من غزو الجيش الأموي لابن الزبير في مكة فيقول : « فأقام — أى المختار — عنده — أى ابن الزبير — وشهد معه قتال الحصين بن نمير وأبلى أحسن بلاء ، وقاتل أشد قتال ، وكان أشد الناس مع أهل الشام » . ويذكر ابن كثير (٥) أن ابن الزبير لما حاصره الحصين بن نمير مع أهل الشام « قاتل المختار دون ابن الزبير أشد القتال » .

وفي المختار بعهوده وفاء تاما ، وأجمع المؤرخون كما رأينا على أن المختار قاتل بكل شجاعة وبسالة . ولكن ابن الزبير

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٧٢ .

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٩ .

(٣) مروج الذهب ، ج ٣ ص ١٩ .

(٤) الكامل ج ٤ ص ٧٢ .

(٥) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٩ .

— كما سئرى — لم يف بوعوده ، وتنكر لعهوده ، فاضطر المختار إلى مفارقتة ، وخرج عن طاعته ، فرحل من الحجاز إلى العراق ، وبدأ يدعو لمحمد بن الحنفية وحزب الشيعة .

المختار يزود عن الكعبة :

كان حصار الجيش الأموى للكعبة ، وهجومه على مكة ، حدثا خطيرا هز مشاعر المسلمين ، فقد كان المسلمون دائما حريصين على أن تظل مكة — تلك المدينة المقدسة — لها حرمتها وقداستها ، وبعيدة عن أى صدام حربى . ولذا لم يكن من المستغرب أن يزود المختار عن الكعبة فى شجاعة نادرة ، ولم يكن مدفوعا فى هذا الاستبسال برغبته فى الدفاع عن ابن الزبير ضد مهاجميه من الأمويين ، ولكنه رأى أن يساهم فى الدفاع عن بيت الله الحرام . وخاصة أن المختار قد أعلن معارضته السافرة للدولة الأموية منذ أن أقدمت على قتل الحسين بن على .

وشارك المختار سخطه على اقدام الجيش الأموى على غزو الكعبة جماعات عديدة ، تختلف فى آرائها ومبادئها ، ولكنها اتفقت فى وجوب حماية مكة والكعبة . فقد قدم على ابن الزبير جند أهل المدينة الذين نجوا من قبضة مسلم بن عقبة بعد معركة الحرة ، ثم قدم نجدة بن عامر الحنفى الذى ثار فى اليمامة على الحكم الأموى . وقدم الخوارج الأزارقة من العراق على ابن الزبير يريدون مؤازرته ، فقبل مساعدتهم رغم مخالفتهم له فى

مبادئه ، لكنه قال : « لو شايعتنى الترك والديلم على قتال أهل الشام لشايعتها » (١) . وأخيرا جاءت الى ابن الزبير نجدة لم يكن يتوقعها ، وقد انفرد المؤرخ البلاذرى بذكر خبرها ، فقد غضب نجاشى الحبشة المسيحى لاقدام الأمويين على حصار الأماكن المقدسة فى مكة ، فبعث فرقة من جنده الأحباش للدفاع عن الكعبة . وحارب المختار جنبا الى جنب مع هذه الفرق المختلفة فى الجنسية والمذاهب . فهو يحارب الى جانب الخوارج الأزارقة وهو يخالفهم تماما فى آرائهم السياسية ومعتقداتهم الدينية . فقد اعتنق المختار المذهب الشيعى الذى ينادى بانحصار الخلافة فى على بن أبى طالب ثم أولاده من بعده . بينما الخوارج ينادون بآراء جمهورية واسعة النطاق ، فيجعلون الخلافة من حق كل مسلم تتوفر فيه مؤهلات الخلافة ، عربى أو غير عربى ، قرشى أو غير قرشى ، حر أو رقيق . وكان المختار يعبد على بن أبى طالب وآل بيته ، بينما الخوارج يكفرون عليا ، وقد شنوا عليه بعد التحكيم حربا شعواء . بل كان المختار يخالف ابن الزبير — رغم بيعته له — فى كثير من آرائه . فابن الزبير يرى نفسه أحق المسلمين بالخلافة ، بينما يرى المختار أن الخلافة يجب أن تكون فى بيت على بن أبى طالب ، فهو بالأمس يدعو الى الحسين ابن على ، حتى اذا قتل أخذ يدعو الى امامة محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية . وتناسى المختار ، كما تناسى

(١) السياسى : الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام (مخطوط) ج ٢ ورقة ٤٨ .

الخوارج الأزارقة ، ذلك الاختلاف في وجهات النظر والمعتقدات ، فقد جمعهم عداؤهم للدولة الأموية ورغبتهم في الذود عن مكة وبيت الله الحرام .

وغل الجيش الأموي بقيادة الحصين بن نمير يحاصر ابن الزبير والمختار ومن معها حتى اليوم الرابع من شهر ربيع الأول عام ٦٤ هـ ، حيث توفي الخليفة يزيد بن معاوية . ولما علم الحصين بموت الخليفة اتفق مع ابن الزبير على أن يعقدا مؤتمرا في الأبطح . وحضر المختار مؤتمر الأبطح ، وفيه عرض الحصين على ابن الزبير أن يتوقف القتال ، وأن يخرج ابن الزبير مع الجيش الأموي الى الشام ، ووعدوه وعدا قاطعا أن يأخذ له البيعة ، فقال له : أنت أحق بهذا الأمر ، هلم لنبايعك ، ثم اخرج معنا الى الشام ، فان الجند الذين معي من وجوه الشام وفرسانهم ، فوالله لا يختلف عليك اثنان ، وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك وبين أهل الحرم . ورفض ابن الزبير هذا العرض رفضا باتا وقال : أنا لا أهدر الدماء ، والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم . ويئس الحصين من ابن الزبير فبدأ يستعد للرحيل الى الشام ^(١) .

ولكن ابن الزبير سرعان ما ندم على رفضه ما عرضه عليه الحصين بن نمير . فيذكر الطبري ^(٢) أن ابن الزبير أرسل الى الحصين يقول له : أما أن أسير الى الشام فلست فاعلا وأكره

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٥٥ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٣٨٦ .

الخروج من مكة ، ولكن بايعوا لى هنالك فانى مؤمنكم وعادل فيكم . ورفض الحصين أن يبايع له فى مكة وأصر على أن يصاحبه ابن الزبير الى الشام حيث يبايع له بالخلافة هناك .

عاب كثير من المؤرخين على ابن الزبير عدم قبوله ما عرضه الحصين عليه ، وظنوا أن الطريق قد أصبح ممهدا أمامه ، وأنه كان يستطيع الوصول الى الخلافة لو أنه استمع الى ما أشار به الحصين عليه ، فقد مات الخليفة يزيد ، وخلفه ابنه معاوية الثانى الذى كان صغير السن ضعيف الشخصية ، وقد عرض عليه قائد جيوش الشام الطاعة والبيعة ، وتعهد له بتمهيد الطريق . فقال ابن الأثير ^(١) : « ولو خرج معهم ابن الزبير لم يختلف عليه أحد » . كما قال أبو الفدا ^(٢) . « لو سار ابن الزبير مع الحصين الى الشام أو صانع بنى أمية ومروان لاستقر أمره » .

كان المختار حاضرا هذا المؤتمر ، وكان المتفاوضون من الطرفين المتعادين ، الزبيريين والأمويين ، يمتطون صهوة جيادهم . وكان المختار على ظهر حصانه على مقربة من ابن الزبير ، ينصت الى الحوار الذى دار بين ابن الزبير والحصين بن نمير . وكان ابن الزبير حريصا على أن يسمع المختار وسائر المتفاوضين من أنصاره كل ما يدور من حوار ، حتى يعلموا أنه يرفض أن يمد يد الصداقة والمهادنة الى أعدائهم جميعا الأمويين ، وأنه مازال متسككا بموقفه العدائى منهم ، وحتى لا يشعر المختار وغيره من

(١) الكامل ج ٤ ص ٥٥ .

(٢) المختصر فى أخبار البشر ج ١ ص ٧٥ .

أنصار ابن الزبير ، أن ابن الزبير قد تخلى عنهم وهادن الأمويين ، ولذا كلف ابن الزبير يتحدث بصوت مرتفع حتى يسمعه الجميع . أما الحصين بن نمير ، القائد الأموي ، فكان يريد أن تكون المفاوضات سرية ومنحصرة بينهما دون اشتراك غيرهما ، كما كان الحصين يحاول اقناع ابن الزبير أن يصاحب الجيش الأموي الى بلاد الشام ، ولذا أبدى غضبه من ابن الزبير لأنه كان يتكلم جهرا ، فقال له : قبح الله من يعدك بعد هبا وآيا ، قد كنت أظن أن لك وآيا ، وأنا أكلمك سرا وتكلمني جهرا ، وأدعوك الى الخلافة ، وأنت لا تريد الا القتل والهلكة ! (١) . ولقد أراد ابن الزبير أن يرضى المختار وسائر رجاله وجنده ، فقد أعلن للحصين أنه لا يرضى بقتل عشرة من جند الشام مقابل كل رجل يقتل من جنده .

ونحن نتساءل ، ماذا يكون موقف المختار وسائر قواد ابن الزبير اذا كان ابن الزبير قد وافق على عرض الحصين بن نمير واستجاب الى دعوته بالرحيل الى الشام ؟ لا شك أنهم كانوا ينقلبون على ابن الزبير ويشنون عليه حربا شعواء . ونحن نجد العذر لابن الزبير في رفضه عرض الحصين ، ونخالف في ذلك كثيرا من المؤرخين الذين أشرنا الى آرائهم ، فأهل الشام لا يدينون بالولاء إلا للأمويين ، وليس لابن الزبير في الشام عصية وأنصار يعتمد عليهم . كما أن بلاد الحجاز كانت قد عانت كثيرا من الحكم الأموي ، وناصر المختار والحجازيون ابن الزبير لأنه أصبح

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٥٥ .

المعارض الوحيد للحكم الأموي ، فماذا يكون موقفهم منه لو رأوه يسير مع الأمويين الى حاضرتهم دمشق وعلي رأس جيشهم ؟!

المختار بن زياد طاعة ابن الزبير

رأينا المختار يبذل جهودا كبيرة في سبيل فصرة عبد الله ابن الزبير ، فقد أجمع المؤرخون على أنه حارب الى جانبه في شجاعة واستبسال . واضطر الجيش الأموي الى فك الحصار عن الكعبة ومكة ، والعودة الى دمشق ، وحان الوقت ليطالب المختار عبد الله بن الزبير بالمكافأة ، وآن الأوان ليحضى ثمار جهوده وتأيدده .

استفاد عبد الله بن الزبير من وفاة الخليفة يزيد بن معاوية فائدة كبيرة ، فقد أعلن نفسه خليفة بالحجاز ، ونجح في السيطرة على جميع الأمصار الاسلامية . وكان البيت الأموي منقسما على نفسه ، فقد كان بعض الأمويين بعد وفاة معاوية الثانى يرشحون خالد بن يزيد بن معاوية ، بينما رشح بعض الأمويين شيخ بنى أمية : مروان بن الحكم . وتغلب رأى الفريق الثانى ، فبيع لمروان بالخلافة فى دمشق ولكن نفوذه اقتصر على رقعة صغيرة فى بلاد الشام ، بينما سائر أرجاء الدولة العربية الاسلامية ، كالعراق والحجاز ومصر والجزيرة قد دانت بالطاعة لخليفة الحجاز عبد الله ابن الزبير .

تطلع المختار الى أن يفى ابن الزبير بعهوده ووعوده التي بذلها للمختار وقت محنته وشدته ، وانتظر المختار أن يحقق ابن الزبير آماله وأطماعه ، فقد مرت فترة الكفاح والجهاد ، وجنى ابن الزبير ثمار جهوده ونضاله ، وأصبح على جانب كبير من القوة والعظمة ، وبدأ المختار يطالب ابن الزبير بالجائزة . فقد وعد ابن الزبير المختار أنه اذا ظهر استعان بالمختار على أفضل عمله ، وألا يقضى ابن الزبير أمرا دون رأى المختار .

تناسى ابن الزبير وعوده تماما ، ولم يكافئ المختار على تأييده له ، وكان المختار يطمع في أن يوليه ابن الزبير حكم بلاد العراق . وقد وقع اختيار المختار على العراق دون غيرها من الأمصار ، لأنها أصبحت وطنه الثانى بعد الطائف ، فقد عاش فيها فترة طويلة ، بل اشترك فيها بسيفه في فتحها ، ولاقى أبوه وأخوه مصرعهما في أرض العراق . كما كانت بلاد العراق مركز الشيعة وأنصار آل على بن أبى طالب وكان المختار يعتنق المذهب الشيعى ويدعو للعلويين . كما كانت بلاد العراق في تلك الفترة قلب العالم العربى الاسلامى رغم أنها لم تكن مركز الحكم ، فكانت تحرك الأحداث السياسية ، وشهدت جميع الأحزاب السياسية والفرق الدينية وخاصة الشيعة والخوارج .

وكانت وعود ابن الزبير للمختار بنت الساعة ، بذلها في سهولة ويسر وقت محنته ، وتناساها حين أصبح في غير حاجة الى تأييد المختار . ولم يكن ابن الزبير يستطيع أن يولى المختار بلاد العراق ، فقد كان عالما بميول المختار الشيعية ، وكان حكم المختار

العراق بمثابة اناحة الفرصة له ليلتقى بشيعة العراق ، وكانت العراق موطن المال والرجال في ذلك الحين ، وكان ابن الزبير حريصا على أن يتولى الحكم فيها صنيعة له يضمن ولاءه واخلاصه على الدوام .

حقد المختار على ابن الزبير اذ رآه قد نكث بعهده ، ولكنه لم يجهز بحقه على ابن الزبير ، ومكث الى جواره بعد وفاة الخليفة يزيد بن معاوية خمسة شهور ، ثم بدأ المختار يفكر في العودة الى بلاد العراق ، وأخذ يستفسر من القادمين منها عن أحوال العراق كما تركوها ، فأخبروه عن انقياد بعض الناس للدعوة ابن الزبير ، وان كانت الغالبية لا تهدف الا للأخذ بثار الحسين ، ولكن ينقصها الزعيم الذي يستطيع أن يجمع شملها تحت لوائه .

رأى المختار أن يكون هذا الزعيم الذي تنشده بلاد العراق وتنتظره ليقودها الى النصر ، والى الأخذ بثار الحسين ، وعبر عن ذلك بقوله : « أنا أبو اسحق ، أنا والله لهم ، أن أجمعهم على الحق ، وألقى بهم ركبنا الباطل ، وأهلك بهم كل جبار عنيد » (١) ثم عزم المختار على العودة الى بلاد العراق ، ليوفر لنفسه الزعامة والسلطة التي افتقدها في الحجاز عند ابن الزبير . ولكن المختار خشى أن يمنعه ابن الزبير من مغادرة الحجاز الى العراق ، فرأى أن يلجأ الى الحيلة والدهاء . خدع المختار ابن الزبير فعرض

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٧٢ .

عليه أن يرّحل إلى العراق ليجمع له الجند والأنصار ليستعين
ابن الزبير بهم فيغلب على أهل الشام ، فقال المختار لابن الزبير :
انني لأعرف قوما لو أن لهم رجلا له رفق وعلم بما يأتي لأستخرج
لك منهم جندا تغلب بهم أهل الشام . فقال ابن الزبير : من هم ؟
قال : شيعة بني هاشم بالكوفة . قال : كن أنت ذلك الرجل .
وجازت الحيلة على ابن الزبير فسمح للمختار بالرحيل إلى
العراق (١) .

المختار يلتقي ابن الحنفية قبل رحيله إلى العراق :

بدأ المختار يستعد للرحيل إلى العراق ، ولما كان عازما على
أن يستعين بالشيعة في تحقيق أطماعه وآماله ، فقد كان طبيعيا أن
يلتقى بزعيم الشيعة الأكبر في ذلك الحين ، محمد بن علي
ابن أبي طالب ، المعروف باسم (ابن الحنفية) (٢) .

عرفنا موقف المختار من كل من الخليفة الأموي يزيد
ابن معاوية ، ومن خليفة الحجاز عبد الله بن الزبير . فماذا كان
موقف محمد بن الحنفية من كل منهما ؟

في ذلك الوقت عاد وفد المدينة من دمشق بعد لقاء يزيد بن
معاوية فأعلنوا خلع طاعة يزيد . وكان أهل المدينة في ثورة جامحة

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٢١ .

(٢) كان محمد بن الحنفية ابنا لعلي بن أبي طالب من زوجة أخرى

غير فاطمة ، من بني حنيفة .

على يزيد حتى أنه لن يكن أبغض الى قلوبهم من دفاع أحد عنه ،
ولذلك أغضبهم موقف محمد بن علي بن أبي طالب ، المعروف
بابن الحنفية ، من حركة عبد الله بن الزبير ، ودفاعه عن يزيد
ابن معاوية ، فعندما اتهموا يزيد بشرب الخمر وترك الصلاة قال
ابن الحنفية : ما رأيت منه ما تذكرون ، وقد حضرته وأقمت عنده
فرايته مواظبا على الصلاة متحررا للخير ، يسأل عن الفقه ملازما
للسنة (١) .

أصر ابن الحنفية على موقفه من الحركة الزبيرية ، فعرض
عليه أهل المدينة أن يولوه عليهم ، أن كان كارها لبيعة ابن الزبير ،
فرفض ابن الحنفية هذا العرض ، كما أبي أن يشترك هو أو أحد
من ولديه في القتال معهم ، فهدده الناس باكراهه على ذلك ،
فخاف وغادر المدينة .

غضب ابن الزبير أشد الغضب لموقف ابن الحنفية من حركته ،
وأراد أن يعاقبه ، فموقفه هذا يحول دون معاضدة الشيعة .
ولكن ابن الحنفية كان قد غادر المدينة ، فرأى أن ينتقم منه في
شخص ابنه الحسن بن محمد بن الحنفية ، فحبسه في الحبس
المعروف بحبس غارم « وهو حبس موحش مظلم ، وأراد قتله ،
فعمل الحيلة حتى تخلص من السجن وتعسف الطريق على الجبال
حتى أتى منى وبها أبوه محمد بن الحنفية » (٢) . وكان هذا خطأ

(١) ابن طولون : قيد الشريد من أخبار يزيد (مخطوط)
ورقة ٤ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٣ .

ارتكبه ابن الزبير ، فقد أثار عليه بنى هاشم الذين وقفوا من حركته موقف المعارضة ، بينما كان في حاجة لمناصرتهم وتأييدهم لما لهم في نفوس المسلمين من حب واحترام .

ورأى المختار قبل رحيله الى العراق ، أن يلتقى بابن الحنفية ، زعيم بنى هاشم والشيعة والعلويين ، ليخبره بخطته وينال تأييده ، فقد كان لابد لكل حركة سياسية في تلك الفترة أن تصطبغ بصبغة دينية ، وتنال مساندة زعيم ديني ورئيس روجي . ولذا سعى المختار الى لقاء ابن الحنفية حيث قال المختار : اني على الشخوص للطلب بدمائكم والانتصار لكم . فأجاب ابن الحنفية : اني لأحب أن ينصرنا ربنا ويهلك من سفك دماءنا ، ولست بأمر بحرب ولا اراقة دم ، فانه كفى بالله لنا نصرا ، ولحقنا آخذا ، وبدمائنا طالبا (١) .

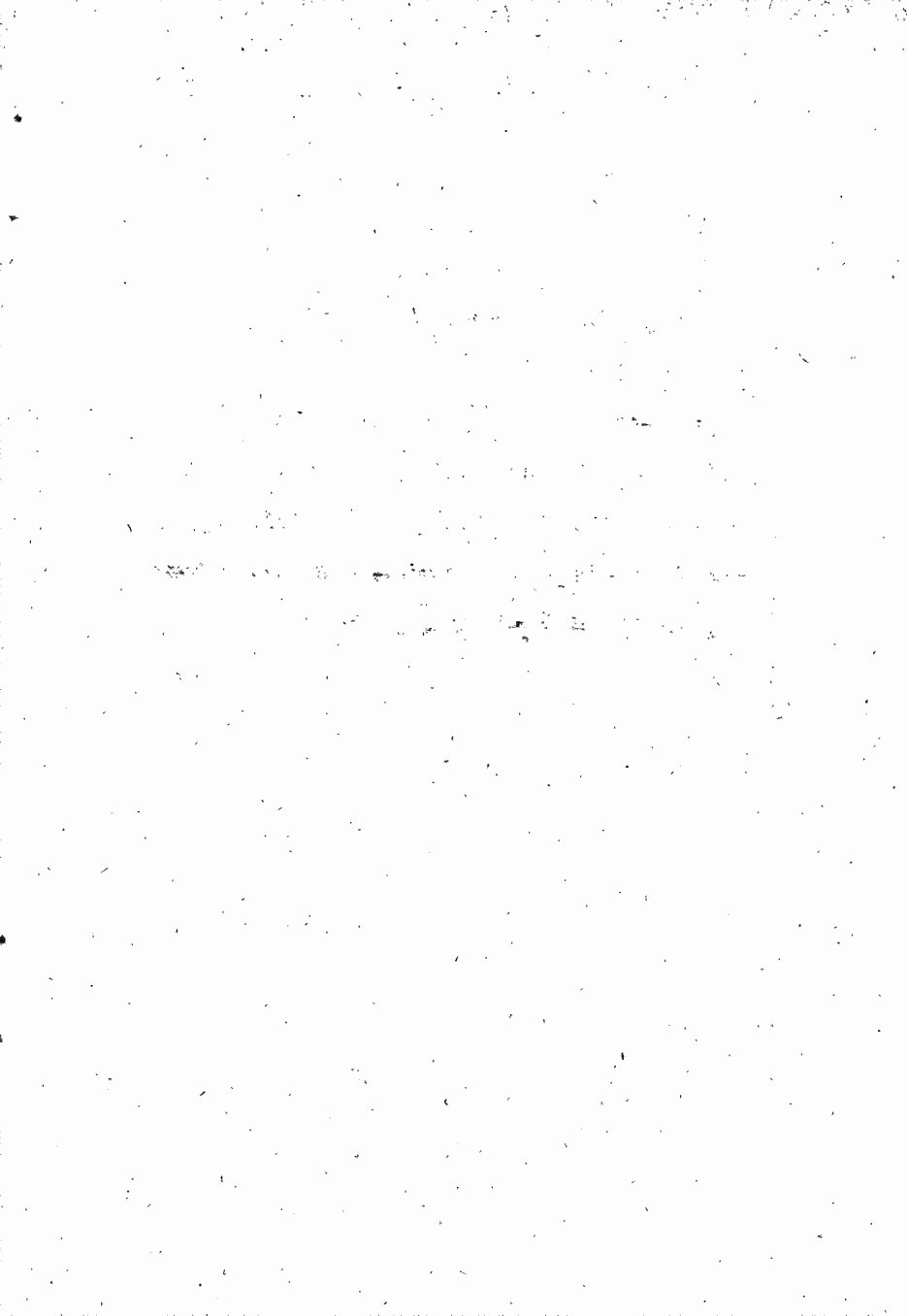
وان عبارة ابن الحنفية لترسم الطريق أمام المختار ، وتبين حرصه وحذره ، فهو يرى أنه وان كان يرجو من الله النصر وأن يمكنهم من الأخذ بالنار ، ثأر الحسين وقتلى كربلاء ، الا أنه يرجو أن يتحقق ذلك بتدبير من الله سبحانه وتعالى ، دون قيام حرب أهلية تراق فيها الدماء . وابن الحنفية يجذب المعارضة السلبية ، دون الكفاح الايجابي .

لم يفوض ابن الحنفية المختار في أمر من أموره ، ولم يعهد اليه بشيء ، فكانت عبارته تنطوي على تمنيات ونصائح . ولكن

(١) البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢١٨ .

المختار حرص على أن يستفيد من لقاءه بابن الحنفية كل الفائدة ،
فقد جمع الشيعة وأعلنهم أن ابن الحنفية قد اختاره « أمينا ووزيرا
ومنتخبا وأميرا » وأنه أمره بالأخذ بثأر القتلى من آل الرسول
في كربلاء (١) . ثم بدأ المختار رحلته الى بلاد العراق .

(١) المصدر السابق .



المختار الرجل الأول في العراق

أحوال العراق قبيل قبوم المختار - المختار في
العراق - حزب التوابين منافس خطير للمختار - مدى
مسئولية المختار عن مصير التوابين - المختار يستفيد من
أخطاء ولاية ابن الزبير - المختار في سجن ولاية ابن الزبير -
المختار يغادر السجن ويستعد للثورة على ابن الزبير -
المختار يعلن الثورة في الكوفة .

الفصل الرابع

المختار الرجل الأول في العراق

أحوال العراق قبيل قدوم المختار :

خرج المختار الى بلاد العراق لأول مرة مع أبيه أبي عبيد ابن مسعود خلال الفتوحات العربية الاسلامية في خلافة عمر ابن الخطاب ، مفارقا وطنه الطائف . وقضى المختار في العراق فترة صباه وشبابه ورجولته ، وارتبطت حياة المختار ببلاد العراق ارتباطا وثيقا وأصبح من العسير أن تنفصم هذه الرابطة . ولم يغادر المختار العراق الى الحجاز الا مضطرا ، فقد تفاه الوالى الأموى عبيد الله بن زياد وهدده بالقتل ان طال به المكوث في العراق أكثر من ثلاثة أيام . ولم يكن تأييد المختار لابن الزبير الا لأن المختار طمع أن يوليه ابن الزبير حينما يصبح صاحب النفوذ الأول في الدولة الاسلامية حكم بلاد العراق . حتى اذا خيب ابن الزبير آماله ، أخذ المختار يستعد للرحيل الى العراق دون غيرها من الأمصار الاسلامية .

غاب المختار عن بلاد العراق فترة طويلة نسبيا ، وعاش عاما كاملا في وطنه الأصلي الطائف ، وشهد قدوم الجيش الأموى الى

المدينة ثم حصاره لمكة ، ثم مكث في مكة خمسة شهور بعد وفاة يزيد بن معاوية وفك الحصار الأموي . وحرص المختار قبل رحيله الى العراق أن يسأل جميع القادمين من العراق الى الحجاز عن أحوال العراق السياسية حتى يستطيع أن يرسم خطته وطريقه ، وكيف سياسته حسب ظروف العراق في تلك الفترة . ولذا علينا أن نتساءل عن أحوال العراق وقتئذ ؟

كان موت يزيد ثم معاوية الثاني ضدمة عنيفة لعبيد الله ابن زياد الوالي الأموي بالعراق ، فخفت قبضته ولانت سطوته ، لأن الموقف أصبح مضطربا ، ولم يعد هناك خليفة قوى من بنى أمية يستند اليه في حكمه وسلطانه . فرأى أن يستند الى حب أهل العراق ، فبدأ يتقرب اليهم ، ولكن مسعاه في هذا السبيل لم يتحقق لأن البصرة أصبحت مسرحا للعصبية القبلية بين مضر وربيعة والأزد . واتهز الخوارج فرصة هذا الاضطراب فبدأوا يعيشون في البصرة فسادا ..

ورأى ابن زياد أن يبدأ في طلب البيعة من أهل البصرة ، إذ كان يعلم أنهم أقل انتصارا لآل البيت من الكوفة . فدعاهم الى الاجتماع في المسجد ، وافتتح الاجتماع بكثير من الاعتدال خلافا لعادته ، وأشار في خطبته الى ما قامت به أسرته من خدمات في العراق ، وخاصة في البصرة ، وكيف بذل جهده للعمل على رفع شأن أهلها ، ثم طلب منهم البيعة له حتى تستقر أمور الشام . ولا شك في أن أهل البصرة انشرفت صدورهم لما أظهره ابن زياد من ضعف ، فبايعوه على أن يلي أمورهم ريشا يتفق

الناس. ولكن أهل البصرة عبروا عن حقيقة شعورهم بعد خروجهم من المسجد ، فقد « مسحوا بأيديهم في الحيطان وقالوا : أيظن ابن مرجانة أننا نقياد له في الجماعة والفرقة ؟! » (١)

وظل ابن زياد أميراً على البصرة لفترة قصيرة ، ثم أخذ سلطانه في الضعف ، فكان يأمر بالأمر فلا يقضى ، وكان يصعد المنبر فيحصبونه ويرمون به الحجارة ويسبونونه . ولم يجمع أهل البصرة رأيهم الا على نبذ طاعة ابن زياد ، فقد رأت عامة الناس أن في بقاء حكم ابن زياد الضعيف مما يهددهم بخطر الخوارج ، وقصدت الشيعة الى الأحنف بن قيس لينهض بهم فأبى . وغضب الموالي على ابن زياد لتفضيله العرب عليهم ، بل ان الخوارج ، ومن ورائهم القراء ، خرجوا لطرد ابن زياد ، ورأى ابن زياد أن ينجو بحياته ، فخرج هارباً الى الشام .

ولكن خروج ابن زياد من البصرة لم يقض على متاعبها ، فقد اشتعلت نيران العصبية بين مضر واليمن . وآثروا أن يعيدوا قصة التحكيم ، فاختارت كل فئة من يمثلها . ولكن الحكيمين اختلفا ، فرأى المضري في بني أمية ، ورأى اليماني في بني هاشم ، وفي أقل من ستة شهور أقام البصريون أربعة أمراء .

وبحثت البصرة عن خلاص من هذه الفوضى ، وجدها أخيراً ، فقد ظهر في سوق البصرة أحد دعاة عبد الله بن الزبير ووقف ينادي في أهل البصرة : « أيها الناس ، هلموا الى أدعوكم الى

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٥٦ .

ما لم يدعكم اليه أحد ، أدعوكم الى العائد بالحرم . يعنى عبد الله ابن الزبير » (١) .

فكتب أهل البصرة الى عبد الله بن الزبير يعلنون ولائهم له ، ويطلبون منه أن يولى عليهم واليا من قبله ، وأن يعين أحد قواده لقتال الخوارج ورشعوا المهلب بن أبي صفرة لقيادة الجيش ، ووافق ابن الزبير عليه .

ولكن سلطة ابن الزبير ستظل صورية ، فقد كان المختار بن أبى عبيد صاحب السلطة الحقيقية فى البصرة ، الى أن قتل وتولى حكم البصرة مصعب بن الزبير . ولم يرسل البصريون ابن الزبير الا نتيجة تعرضهم لخطر الخوارج والعصية القبلىة (٢) . فالخوارج تمتاز بالشجاعة والاقدام ، ولا يمكن اخضاعها الا بجيوش كبيرة منظمة ، ولذا لجأ البصريون الى خليفة الحجاز ابن الزبير . أما المختار فكان لم يقدم بعد الى العراق ، وكان لا يزال مقيما فى الحجاز منضافا الى صفوف ابن الزبير .

أما الكوفة ، وطن المختار الثانى ، فقد أخفق ابن زياد فى أن ينال بيعة أهلها له ، كما أخفق فى البصرة ، ولم يكذ رسوله يفد الى الكوفة ويدعو الى البيعة له حتى ألقى الكوفيون به فى غياهب السجن . وقام خطيبهم فقال : « لا حاجة لنا من بنى أمية ، ولا من امارة ابن مرجانة — أى ابن زياد — انما البيعة لأهل الحجاز » (٣)

(١) الطبرى ج ٧ ص ٢٠ .

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢٢ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٣١ .

واختار أهل الكوفة عامر بن مسعود وكتبوا بذلك إلى عبد الله ابن الزبير فأقرهم على اختيارهم .

ظل ابن مسعود والياً على الكوفة ، حتى عزله ابن الزبير ، وولى عبد الله بن يزيد . وفي أيامه قدم المختار إلى الكوفة ، وبدأ يعمل للسيطرة عليها ، فاصطدم بوالى ابن الزبير ، وبدأت مرحلة من الصراع العنيف ، ستنتهى بالقاء المختار في السجن .

المختار في العراق :

رحل المختار من الحجاز إلى العراق بعد أن فشل في تحقيق آماله بالحجاز ، وآمن أن أرض العراق هي الأرض الصالحة ليئذر فيها بذور الآمال والأمانى . وفي طريقه إلى الكوفة ، كان يصحبه رجل واحد هو عبد الله بن كامل الهمداني ، وقد لقينا بالعذيب رجلاً من أهل الكوفة ، فسأله المختار عن أخبار الكوفة ، فقال : تركت الناس كالسفينة تجول بلا ملاح عليها . فقال المختار : أنا ملاحها الذي يقيمها ^(١) .

ومضى المختار في سيره ، حتى إذا اقترب من الكوفة قصد بحر الحيرة ، فنزل فيه ، واغتسل وادهن ، ولبس ثيابه وعمامته ، وتقلد سيفه . ثم ركب راحلته ، فمر بمسجد السكون وجبابة كنده ، فكان لا يمر بمجلس إلا سلم على أهله ، وقال : أبشروا

(١) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٧١ .

بالنصر والصلح ، أتاكم ما تحبون . فقد كان المختار حريضا دائما
على تحقيق وسائل العناية ، وتوفير سبل الاعلام ، وهى من أهم
عناصر نجاح الحركات السياسية .

ودخل المختار مدينة الكوفة فى يوم الجمعة ١٥ رمضان
سنة ٦٤ هـ (٦ مايو سنة ٦٨٤ م) « والناس يتهيئون للصلاة ،
فجعل لا يمر بملا الا سلم عليه وقال : أبشروا بالنصر . ودخل
المسجد فصلى الى سارية هناك حتى أقيمت الصلاة ، ثم صلى من
بعد الصلاة حتى صليت العصر ، ثم انصرف فسلم عليه الناس
وأقبلوا اليه وعظموه ، وجعل المختار يدعو الى امامة المهدي
محمد بن الحنفية ، ويظهر الانتصار لأهل البيت ، وأنه ما جاء الى
الكوفة الا ليقيم شعارهم ، ويظهر منارهم ، ويستوفى ثأرهم » (١)
وهكذا أوضح المختار لأهل الكوفة خطته وسياسته ، فهو
وزير محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية ، يدعو
الناس الى البيعة له باعتباره اماما للمسلمين ، وأعلن أنه نصير
آل بيت الرسول ، وأنه قدم الى الكوفة داعيا لهم ، وأنه سيأخذ
بثأر الحسين بن على وآله قتلى كربلاء .

كانت مأساة كربلاء لا تزال ماثلة فى أذهان أهل الكوفة ،
وكان كثير منهم يشعرون بالندم ويعتبرون أنفسهم مسئولين عن
دم الحسين وآله ، وباتوا يتطلعون الى الأخذ بثأره ، وأخذوا
يبحثون عن زعيم يقودهم لتحقيق هذا الغرض . وأدرك المختار

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٩ .

هذه الحقيقة ورأى أن يكون هو ذلك الزعيم المنشود . ويذكر المسعودي (١) أنه بعد استقرار المختار في الكوفة « جعل يظهر البكاء على الطالبين وشيعتهم ، ويظهر الحنين والجزع لهم ، ويحث على أخذ الثأر لهم ، والمطالبة بدمائهم ، فمالت الشيعة اليه ، وانضافوا الي جملته » .

ونجح المختار فيما قصد اليه من جمع الشيعة حوله ، وأصبح زعيمها . وكانوا له أنصارا يصل عن طريقهم الى ما يتمناه من الحكم والنفوذ .

ولكن ما كاد المختار يصل الى العراق حتى وجد سليمان بن صرد قد سبقه الى الشيعة ، فجمعهم حوله بعد أن حرك عواطفهم نحو آل علي . ورأى المختار في سليمان منافسا خطيرا ، فعزم على أن يكيد له ويفرق جماعته .

ووقف المختار وسط الشيعة يخطب فيهم ، فيصرفهم عن الالتفاف حول سليمان بن صرد ، ويدعوهم الى تأييده والوقوف خلفه . وتحدث المختار في خطبته عن أمرين ، أولهما أنه أجدر من ابن صرد في تزعم الشيعة ، فقد اختاره ابن الحنفية وزيرا وأميناً ونائباً ، ووصف المختار ابن الحنفية بأنه « ولي الأمر » وأنه « الامام المهدي » . أما الأمر الآخر ، فهو أن ابن صرد لا يصلح للزعامة ، فليس له خبرة بشئون الحكم والسياسة ، جاهل بأمور الحرب ، وأنه يريد أن يقود الشيعة فيهلك ويهلكهم

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢١ .

معه ، ثم طلب المختار من الشيعة في آخر خطبته أن يستمعوا اليه
ويلتفتوا حوله ، وأن يتفاءلوا اذ سيحقق لهم كل آمالهم
ورغباتهم (١) .

ونجح المختار فيما كان يهدف اليه ، فانضم اليه كثير من
الشيعة من أنصار سليمان بن صرد « وصاروا يختلفون اليه
ويعظمونه » ، وبدأ المختار يعمل على التخلص تماما من ابن صرد
فقد كان « أثقل خلق الله على المختار » (٢) .

حزب التوايين منافس لخمّار :

بدأ سليمان بن صرد يجمع حوله الشيعة ، وينظم صفوفهم
ليكون منهم حزبا شيعيا جديدا يأخذ بثأر الحسين بن علي وآله ،
وهو حزب التوايين . فكيف تكون هذا الحزب ، وما موقف
المختار منه ؟

قتل الحسين بن علي في سنة ٦١ هـ نتيجة تخلي أهل الكوفة
عنه برغم أن خروجه اليهم كان بدعوة منهم ، فقد خدعوه
بوعودهم البراقة ، وتعهدهم بنصرته ، ثم تركوه ليلقى مصيره على
يد عبيد الله بن زياد في كربلاء . وقد شعر أهل الكوفة بما أتوه
في حق حفيد الرسول وابن علي بن أبي طالب ، فندموا على

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٧٣ .

فعلتهم ، ولام بعضهم بعضا « ورأوا أنهم لا يغسل عنهم ذلك الجرم الا قتل من قتله ، أو القتل فيه » (١) .

وصاحوا عند قبر الحسين طالين التوبة والمغفرة من الله ، وسموا أنفسهم التوايين ، فقد كانوا يرددون دائما الآية الكريمة (فتوبوا الى بارئكم . فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم) .

تزعّم حركة التوايين خمسة من زعماء الشيعة هم : سليمان ابن سرد الخزاعي ، وهو من صحابة الرسول ، والمسيب بن نجبة الفزارى ، وعبد الله بن سعد بن قنيل الأزدي ، وعبد الله بن والى التميمي ، ورفاعة بن شداد البجلي ، وكلهم من خيار أصحاب عليّ بن أبي طالب . ونظرة واحدة الى هذه الأسماء تعطينا فكرة عن القبائل التي ساهمت في هذه الحركة التوايية .

اجتمع هؤلاء الزعماء في منزل سليمان بن سرد وتناوبوا الخطابة ، وأعلنوا ندمهم على تخاذلهم في الدفاع عن الحسين ، وأقسموا على الأخذ بثأره ، ولو أدى ذلك الى قتلهم . وخير ما يصور حماسة هؤلاء التوايين خطبة خالد بن سعد بن قنيل التي قال فيها : « أما أنا فوالله لو أعلم أنه ينجينى من ذنبي ويرضى ربي عن قتلى نفسي لقتلتها . وأنا أشهد كل من حضر أن كل ما أصبحت أملكه سوى سلاحى الذى أقتل به عدوى صدقة على المسلمين أقويهم به على قتال الفاسقين » (٢) .

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٦٨ .

بدأت حركة التوابين منذ مصرع الحسين سنة ٦١ هـ ، الا أنهم رأوا كتمان مبادئهم واتفقوا على الخروج الى النخيلة في آخر ربيع الثاني سنة ٦٥ هـ ، ولكنهم سرعان ما قدموا هذا الموعد الى شهر ربيع الأول من سنة ٦٤ هـ حين علم زعمائهم بوفاة الخليفة الأموي يزيد بن معاوية (١) .

قضى حزب التوابين الفترة بين ٦١ — ٦٤ هـ في الاستعداد للقتال وجمع الأسلحة واستمالة الناس . ويصف الطبرى (٢) هذا الاستعداد بقوله : « كان أول ما ابتدعوا من أمرهم سنة إحدى وستين وهى السنة التى قتل فيها الحسين رضى الله عنه . فلم يزل القوم فى جمع آلة الحرب والاستعداد للقتال ودعاء الناس فى السر من الشيعة وغيرها الى الطلب بدم الحسين فكان يجيبهم القوم بعد القوم ، والشجر بعد الشجر ، فلم يزالوا كذلك حتى مات يزيد ابن معاوية » . وكتب ابن سرد الى شيعة المدائن ، وكانوا قد انتقلوا اليها من الكوفة ، والى شيعة البصرة يستنهضهم للأخذ بثار الحسين ، فأجابوه جميعهم الى مادعاهم اليه . ثم كانت وفاة يزيد وما تبعه من اقسام بنى أمية فاعتبرها التوابون نصرا لهم ، وآمن ابن اسرد أن وفاة يزيد تؤدي الى التفاف الناس حوله ، مما يكتب لحركة التوابين النصر (٣) .

تمكن حزب التوابين ، الركن المتين من أركان الشيعة ، من لم

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٠٦ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٧ ص ٥١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٤٦ .

شعته والالتفاف حول زعمائهم لمسيبين : أولهما تبرع الزعماء بالأموال الكثيرة لأجل الدعوة ، فمكثهم هذا من استنفار الناس للجهاد وتشويقهم للقتال ، فقدم خالد بن سعد بن قنيل كل أمواله وأملاكه ومزارعه في سبيل الحرب . وثانيهما ، استخدام التوابين البلغاء من الرجال في نشر دعوتهم ، فمثلوا مقتل الحسين تمثيلا محزنا مبكيا ، فكانوا أينما حلوا ينالون من أعدائه الذين اتهموا حرمة فاحتزوا رأسه وداسوا بخيولهم على جسده . وحملوا على قتلته أولئك الذين لا تعرف الشفقة قلوبهم ولا الرحمة نفوسهم . فكانوا ييكون ويستبكون الناس على القتل حفيد رسول الله . وقد اتبع المختار فيما بعد وسائل مشابهة لمخاطبة عواطف الناس كما كان يخاطب عقولهم بخطبه البليغة وحديثه الرصين .

حدث بعد قدوم المختار الى الكوفة أن بدأ النزاع حول السيادة في الكوفة بين ثلاثة فئات : حزب التوابين ، وولاء عبد الله ابن الزبير ، وحزب المختار . فقد بعث ابن الزبير على حكم الكوفة عبد الله بن يزيد الأنصاري ، وولى على خراج الكوفة ابراهيم ابن محمد بن طلحة بن عبيد الله . وكان على هذين الرجلين اللذين يمثلان ابن الزبير مسئوليات جسيمة ، وعليهما أن يحددا موقفهما من حزب التوابين ومن حزب المختار .

أبدى عبد الله بن الزبير سروره لقيام حركة التوابين ، وهي حركة عراقية صميمة ، فقد رأى بعد أن واقفه أهل الحجاز على مناوأة الأمويين ، أن يمد سلطانه الى بلاد العراق وينتزع هذه البلاد الغنية من الأمويين فيحرمهم من أن يتهلوا من مواردها التي

لا تنضب . كما أراد ابن الزبير أن يشغل الدولة الأموية باخمد
حركة التوابين فيصرف أنظارهم عنه ، وينتهر هذه الفرصة ليقوى
جيشه ويوطد دعائم نفوذه استعدادا للمعركة القريبة الحاسمة .
كان قدوم المختار الى الكوفة من أعظم العقبات التي تواجه
ولاية ابن الزبير بالكوفة . فقد فارق المختار ابن الزبير وخرج من
الحجاز متظاهرا بجمع الشيعة حول لواء ابن الزبير ، ولكن ممثلي
ابن الزبير كانوا يدركان طموح المختار وآماله العريضة ، ولذا رأوا
أن يقصرا تأييدهما على حزب التوابين دون حزب المختار ، فقد
كانت أهداف ابن الزبير والتوابين متقاربة ، فهم جميعا يعملون
على زوال الحكم الأموي ، وإن كانت الوسيلة التي يتبعها كل
فريق تختلف عن الفريق الآخر . ولم يكن التوابون يرمون الى
اقامة دولة أو الدعوة الى خلافة أو الوصول الى الحكم ، فقد
ركزوا أهدافهم في أغراض محدودة ، فكل ما يدعون اليه الأخذ
بشار الحسين بن علي وآله من قتلته من بنى أمية والتكفير عن
أخطائهم وتخليهم عن الحسين . أما المختار فكان يدعو الى اقامة
خلافة علوية شيعية ، فقد كان يدعو الى امامة محمد بن الحنفية ،
ودعا أهالي العراق الى البيعة له بالخلافة ، بينما كان أهل الحجاز
قد بايعوا ابن الزبير بالخلافة ، وكان ابن الزبير عدوا تقليديا
لعلی بن أبی طالب وأولاده ، فقد وقف ابن الزبير موقفا عدائيا
من علی في موقعة الجمل ، بل حرّض خالته عائشة زوجة الرسول
على قتال علی . كما اضطهد ابن الزبير ابن الحنفية . ولذا كانت

أهداف ابن الزبير تخالف تماما أهداف المختار ، ولا يجمعهما سوى كراهية الحكم الأموي .

أراد عبد الله بن يزيد أن يقف على أخبار المختار والتوايين ، فأرسل عيونه اليهم ، فجاءه أحدهم يقول : « ان الناس يتحدثون بأن هذه الشيعة خارجة عليك مع ابن صرد ، ومنهم طائفة أخرى مع المختار وهي أقل الطائفتين عددا ، والمختار فيما يذكر الناس لا يريد أن يخرج حتى ينظر ما يضير اليه أمر سليمان بن صرد ، وقد اجتمع له أمره وهو خارج من أيامه هذه ، فان رأيت أن تجمع الشرطة والمقاتلة ووجوه الناس ثم تنهض اليهم وتنهض معك ، فاذا دفعت الى منزله دعوته فان أجابك حسبه ، وان قاتلك قاتلته وقد جمعت له وعبأت وهو مقتر ، فاني أخاف عليك ان هو بذلك وأقررت حتى يخرج عليك أن تشتد شوكته وأن يتفاقم أمره . فقال عبد الله بن يزيد : الله بيننا وبينهم ان هم قاتلونا قاتلناهم ، وان تركونا لم نطلبهم ، حدثني ما يريد الناس ؟ قال : يذكر الناس أنهم يطالبون بدم الحسين بن علي ، قال : فأنا قتلت الحسين ؟ لعن الله قاتل الحسين ! » (١) .

في ذلك الحين ثار سليمان بن صرد وأصحابه في الكوفة ، ورأى عبد الله بن يزيد أن يستفيد منهم ، فلم يكن هناك حاجة ليضعف قوته في مقاومة فئة لم تقم الا لنضال أعدائه الأمويين . وخرج ابن يزيد الى المسجد فرأى أن يوجههم الى عدوهم

الحقيقى بعيدا عن الكوفة فيأمن بذلك شرهم ويستفيد من ثورتهم فيخطب فيهم حاثا لهم على قتال قتلة الحسين وداعيا لهم الى الأخذ بثأره فيقول : « ما أنا قتلت الحسين ، ولا أنا ممن قاتله ، ولقد أصبت بمقتله رحمة الله عليه ، فان كان هؤلاء القوم آمنين فليخرجوا ولينتشروا ظاهرين ليسيروا الى قاتل الحسين فقد أقبل اليهم وأنا لهم على قاتله ظهر » وأنبأهم ابن يزيد أن القائد الأموى عبيد الله بن زياد قاتل الحسين قد قدم بجيشه وأصبح على مقربة من الكوفة ، واقترح ابن يزيد على التوايين أن يخرجوا لقتاله ، فيقتلوه أخذا بثأر الحسين (١) .

كانت هذه الخطة التى رسمها عبد الله بن يزيد فى صالح حركة التوايين والحركة الزبيرية . فالتوايون ما قاموا الا للأخذ بثأر الحسين ، وها هو ذا ابن زياد قد بعثه مروان بن الحكم الخليفة الأموى الجديد لينتزع الكوفة من أيدي ولاية ابن الزبير ، ففى قتالهم له وقتلهم اياه نجاح لأغراضهم . أما ابن يزيد فهو يعلم غرض ابن يزيد فهو قادم لقتاله ورد العراق الى حظيرة الدولة الأموية ، وهو لا يضمن نتيجة قتاله له ، فان الأمور فى الكوفة لم تستقر له بعد ، وخاصة بعد قدوم المختار بن أبى عبيد ذلك المنافس الخطير لكل من الحركة الزبيرية والحركة التوايية . ورأى ابن يزيد فى التوايين قوة يستخدمها فى صد ابن زياد دون أن يحرك هو ساكنا .

(١) الطبرى ج ٧ ص ٥٤ .

عزم سليمان بن صرد على الخروج للأخذ بثأر الحسين ، وأخذ يستعرض جيشه ولكنه رآه قليل الجند ، فبعث يدعو الناس للخروج معه ، فلم يستجب لندائه سوى أربعة آلاف ، فقد نجح المختار في ضم فريق من التوابين . وأقام سليمان ثلاثة أيام بمكان يسمى النخيلة على مقربة من الكوفة يدعو المتخلفين عنه ، فلم يقدم عليه أكثر من ألف رجل آخرين (١) .

تقدم التوابون حتى بلغوا قبر الحسين ، وهناك استرحبوا عليه وبكوا بكاء مريرا وتابوا عن خذلانهم له . ثم ساروا الى الأنبار ومنها الى قرقيسيا وكان بها زفر بن الحارث الكلابي ، عامل ابن الزبير ، فقدّم لهم المال والمؤن وعرض عليهم البقاء في قرقيسيا وتوحيد جهودهم ليسهل لهم القضاء على ابن زياد ، ولكن ابن صرد أصر على المسير لقتال ابن زياد ، قاتل الحسين بن علي . كان ابن زياد في طريقه الى قرقيسيا ، فأتته الأنباء بوفاة الخليفة مروان بن الحكم وتولية ابنه عبد الملك ، الذي أرسل اليه يقرّه على ما ولاه أبوه مروان ، فسار ابن زياد حتى لقي التوابين عند عين الوردة ، فطلب منهم أن يبايعوا للخليفة الأموي الجديد عبد الملك ، فرد عليه ابن صرد طالبا منه الاستسلام ، كما دعا جند الشام الى خلع عبد الملك ومساعدة التوابين في اخراج عمّال ابن الزبير من العراق وتسليم الأمر الى أهل بيت الرسول . وكان التوابين كانوا يعبرون تماما في ذلك الحين عن آراء المختار

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٧٤ .

ومبادئه ، فقد كان المختار يدعو الى القضاء على كل من النفوذ
الأموي والنفوذ الزيري بالعراق ، كما يدعو الى اقامة خلافة
علوية يتولاها محمد بن الحنفية رأس العلويين حينئذ . ولكن
التوايين والأمويين أبوا الا أن يقاتلوا في سبيل الأغراض التي
خرجوا من أجلها . و انتهت معركة عين الوردة بمقتل سليمان بن
صرد ومعظم أصحابه (١) .

مدى مسؤولية المختار عن مصير التوايين :

كان موقف المختار العدائي من حركة التوايين ومنافسته لهم
أول أسباب اخفاقهم ، وما لاقوه من هزيمة ومصير مؤلم . فقد
قدم المختار في نفس الوقت الذي قدم فيه عبد الله بن يزيد عاملا
لابن الزبير ، وبدأ كل من الرجلين جهوده لتحقيق أهدافه الخاصة ،
فكان ابن يزيد يهدف الى أخذ البيعة من أهل الكوفة لابن الزبير ،
على حين أراد المختار أن يجمع الناس حوله فيكون منهم حزبا
قويا يساعده في الوصول الى النفوذ والسلطان .

وكانت الدعوة لابن الزبير قد انتشرت سريعا ، فخاف المختار
انهيار آماله وضياع جهوده ولكنه كان في حاجة الى أنصار يشد
بهم أزره ، وكان يدرك أنه في العراق موطن الشيعة ، فرأى أن
يستعين بهم ويعتمد عليهم ، ولكنه سرعان ما وجدهم قد اندمجوا

(١) البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢١٠ .

في حركة التوايين ، فكان عليه أن يمزق شمل هذه الحركة فبدأ يشن الناس عن عزمهم في الخروج مع ابن صرد لقتال ابن زياد « فكان المختار اذا دعا الشيعة الى نفسه والى الطلب بدم الحسين قالوا : هذا سليمان بن صرد ثم يخ الشيعة وقد أطاعته الشيعة واتقادت له وولته أمرها . فيقول : ان سليمان رجل لا علم له بالحروب وسياسة الرجال ، فلم يزل حتى انشعبت اليه طائفة منهم » (١) . ويروى ابن الأثير (٢) أن سليمان بن صرد لاحظ قلة جنده خلال المعركة ، ممّا أثار غضبه ، ولما تساءل عن سبب قلتهم « قيل له ان المختار يثبط الناس عنك ، انه قد تبعه ألفان » ويدافع المؤرخ الألماني المعروف (فلهوزن) (٣) عن المختار ويترر موقفه من التوايين ويعتبره غير مسئول عن اندحار التوايين ، ويصف خروج التوايين وسليمان بن صرد لقتال الأمويين في عين الوردية بأنها (مغامرة) تنبأ لها بالاخفاق ، فيقول : كان المختار ينوى أن يتزعم الشيعة ، ولكنه لم يستطع أن ينال هذه الزعامة من سليمان ابن صرد ، رغم ما صادفه من بعض النجاح ، ولكنه تخلص من سليمان بما وقع لهذا الأخير في حملته المشنومة ضد أهل الشام . وهناك استطاع أن يرث زعامته وهو مرتاح الضمير ، لأنه طالما حذر من القيام بتلك المغامرة وتنبأ بالمصير السيء الذي آلت اليه ، وراح في خطبه يعلن مقدما الاخفاق . فأخذ يمسك بزمام

(١) البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٠٧ .

(٢) الكامل ج ٤ ص ٧٣ .

(٣) الخوارج والشيعة ص ٢٠١ .

الأمر بيد قوية وأراد أولاً أن يبدأ بامتلاك ناصية الكوفة فوجه الشيعة هذا الاتجاه .

وفي رأينا أن مما يخفف مسئولية المختار عن مصير التوابين ، أنه كانت هناك عوامل كثيرة أدت الى مصيرهم المؤلم ، فكانت كالمعامل التي اشتركت في هدم الحركة التوابية ، وكالسوس ينخر في عظامها ، مما أدت في النهاية الى انهيارها .

فأول هذه العوامل ، أن نجاح حركة التوابين كان يتطلب القضاء على بعض أشراف الكوفة الذين انضموا الى جيش ابن زياد في كربلاء . وقد رأى عبد الله بن سعد أحد زعماء التوابين ذلك فقال لابن صرد : « انما خرجنا نطالب بدم الحسين وقتله الحسين كلهم في الكوفة ، منهم عمر بن سعد بن أبي وقاص ورءوس الأرباع وأشراف القبائل ، فأنى نذهب ؟ » (١) . ولكن ابن صرد وأصحابه قد امتنعوا عن قتل هؤلاء الأشراف لأن منهم من كان من بنى عمومتهم ، وأقرب أقربائهم ، فلا عجب أن يتفرق الكثير عن التوابين لأنهم ناقضوا أنفسهم بأنفسهم .

وقد تلافي المختار هذا الخطأ الذي وقع فيه التوابون ، فبعد أن أصبح صاحب النفوذ في الكوفة ، كان أول ما أقدم عليه هو الأخذ بثأر الحسين وقتل قتلته المقيمين في الكوفة وهدم دورهم ، وفي مقدمتهم عمر بن سعد بن أبي وقاص ، فشنى بذلك غليل الشيعة بالكوفة .

(١) الطبرى ج ٧ ص ٦٨ .

وثاني هذه العوامل ضعف التوابين من الناحية العسكرية ونقص عدتهم ، ومرد ذلك الى فقرهم في المال ، فلم يصمدوا أمام الجيش الأموي الوفير العدد والعدة ، والذي يعتمد على بيت مال الشام العامر بالأموال ، لم يستطع ابن صرد أن يمدّ جنده بما يحتاجون اليه من سلاح وعتاد ، واعترف حين خرج يستعرض جيشه ، فلم تعجبه عدّتهم ، ويروي الطبري (١) : « ان سليمان ابن صرد دعا الى ديوانه لينظر فيه الى عدّة من بايعه حين أصبح فوجدهم ستة عشر ألفا ، فقال : سبحان الله ما أرى الا أربعة آلاف من ستة عشر ألفا !! » .

وقد صرّح التوابون أنهم فقراء وأنه ليس عندهم مال يهبونه للناس كما تفعل الحكومة الأموية في دمشق ، وأن لا غاية لهم سوى التوبة بثأرهم للحسين ، وكان هذا الاعتراف دليلا على عجزهم وضعفهم ، والناس لا يستهويهم الكلام الجذاب الى أمد طويل ، وان استهواهم فالى حين . وعبر ابن صرد عن ذلك بقوله : « .. ومن كان يريد الدنيا وحرثها فوالله ما تأتي فينا نستقيته ولا غنيمة نغنمها ما خلا رضوان الله رب العالمين ، وما معنا من ذهب ولا فضة ولا خز ولا حرير ، وما هو الا سيوفنا في عواتقنا ورماحنا في أكفنا ، وزاد قدر البلغة الى لقاء عدونا ، فمن كان غير هذا ينوى فلا يصحبنا ! » (٢) .

واستفاد المختار من هذا الخطأ أيضا ، فلم يبدأ المختار طلب

(١) تاريخ الطبري ج ٧ ص ٦٦ .

(٢) الطبري ج ٧ ص ٦٨ .

الأخذ بثأر الحسين إلا بعد أن سيطر تماما على الكوفة ، وأصبح له بيت مال عامر بالأموال ، وجيش وافر العدة والعدد .

وثالث العوامل ، رفض التوابين مساعدة ابن الزبير . فقد أراد ابن الزبير أن يستفيد من التوابين ، ، فجزّب أن يقنع زعماءهم في الانضمام اليه والانتصار له ، فأبوا أن يقاتلوا في صفوفه لئلا يكونوا سُلّما يرقى عليه لمطامعه ، وآلة سهلة ليّنة يديرها كيفما شاء .

ولقد حاول أنصار ابن الزبير أن يؤكدوا للتوابين أن الأمويين أعداء لكل من الطرفين على السواء ، ولقد عرضوا عليهم المساعدات المالية ، فلم يقبلوا إذ كانت دعوتهم إنما هي لطلب ثأر الحسين . على أن التوابين وإن لم ينضموا إلى الزبيريين فإنهم رغم ذلك قد شغلوا الأمويين في العراق عن التفرغ لمناهضة ابن الزبير . وكان التوابون يعتقدون أن القتال مع ابن الزبير ضلال ، ويتضح هذا في قول ابن سرد : « .. ولا أرى الجهاد مع ابن الزبير إلا ضلالا ، وإن نحن ظهرنا رددنا هذا الأمر إلى أهله ، وإن أصبنا فعلى نيّاتنا تائبين من ذنوبنا ، إن لنا شكلا ولا ابن الزبير شكلا » (١) .

واتفق المختار مع التوابين في رفض التعاون مع ولاية ابن الزبير ، ولكنه تميّز عنهم أنه جعل هذا الرفض يأخذ صورة إيجابية وصداما مسلّحا .

ونحن نعتبر ولاية ابن الزبير مسئولين عمّا لحق بالتوابين ،

(١) الطبري ج ٧ ص ٦٥ - ٦٧ .

في معركة عين الوردة من هزيمة واندحار ، فقد كان عليهم أن يبعثوا جيشا زبيريا لنجدتهم ، ويستحثوا الكوفيين والزبيريين على مساعدة التوابين ، فانتصار التوابين يعود حتما على الحركة الزبيرية بفوائد عظيمة . وكنا نتوقع أن يمدّ ولاية ابن الزبير التوابين ببعض المال ، فكانوا في أشد الحاجة اليه ، وقد عرف زفر بن الحارث والى قرقيسيا حاجتهم فمدّهم ببعض المال والمؤن ، وكان جديرا بابن الزبير أن يحذو حذو عامله زفر .

ونضيف الى العوامل الثلاثة السابق ذكرها ، عاملا رابعا ، هو تخاذل أهل المدائن والبصرة من الشيعة عن مساعدة التوابين والوفاء بوعودهم . وبطبيعة الحال لم يكن المختار مسئولا عن تخاذلهم فقد كان مقيما في الكوفة ولم يمد نفوذه بعد الى البصرة أو المدائن .

فقد أجمع التوابون أن يكون معسكرهم في النخيلة ، وموعد اجتماعهم في ربيع الثاني سنة ٦٥ هـ (٦٨٤) وذلك لتعبئة صفوفهم ولتهيئة الخطط العسكرية الضرورية قبل الزحف لملاقاة الجيوش الأموية القادمة بقيادة عبيد الله بن زياد . فلم يوافقهم أنصارهم من أهل المدائن والبصرة للميعاد المضروب بينهم . وقد أقعدهم عن اللحاق بهم قلة المال وسوء عدتهم ، فأقاموا مدة يتجهزون ، فانتهر الأمويون الفرصة وناجزوا التوابين في عين الوردة قبل قدوم الأمداد لهم فهزموهم هزيمة منكرة .

استفاد المختار من القضاء على التوابين ، بينما الدولة الأموية لم تستفد كثيرا ، ولم يستفد عبد الله بن الزبير كذلك . فقد

استطاع المختار أن يرث سليمان بن صرد وزعماء التوابين .
أما الدولة الأموية فإن كانت قد تخلصت من حزب ثائر مناوئ
الآن أنها اشغلت بهم عن أعدائها الأقوياء ابن الزبير والمختار
وأنصارهما . أما ابن الزبير فقد كانت نهاية حركة التوابين أيذا
ببداية صراعه مع المختار ومع الأمويين حول النفوذ في العراق .

قضت الدولة الأموية على حركة التوابين في معركة عين الورد
كما قلنا ، ولكنها لم تقض على الأحقاد المتأصلة في نفوس الشيعة .
فكانت تغلو مراحل الضغينة في صدورهم اذ لاقوا من المذلة
والإهانة بعد معركة كربلاء وعين الورد ما جعلهم مستعدين
استعدادا تاما لقبول زعيم نشيط يدير دفة سياستهم ويتسلم زمام
أمورهم . وقد كان المختار شابا طموحا عالي الهمة لم تقتر همته
عن جمعهم تحت لوائه فتكللت مساعيه بالنجاح . ورغم فشل
حركة التوابين ، فإنها أتت ببعض الثمار التي جناها المختار في
سهولة ويسر . فقد جمع سليمان بن صرد وغيره من الزعماء
فلول الشيعة في العراق وكونوا منهم حزبا واحدا له نظمه
وشعاراته وأصبح لهذا الحزب جيش يبلغ عدد جنده رسميا ستة
عشر ألفا ، وفي الواقع أربعة آلاف جندي . ونجح ابن صرد
وأخوانه أن يبلوروا آراء الشيعة ويجعلوا طلب ثأر الحسين المحور
الذي تلتف الشيعة حوله . وقضى التوابون الفترة بين سنة ٦١ هـ
وهي السنة التي لقي الحسين فيها حتفه وسنة ٦٤ هـ التي أعلنوا
فيها الثورة ، يستعدون للقيام بحركتهم ، فجمعوا الأموال والسلاح
والجنود ، وبذلوا في سبيل ذلك كثيرا من الجهود . وقد تسلم

المختار زمام حزب التوايين بما يضم من جند وأسلحة ومؤن وعدد ،
واستفاد من جهود التوايين طوال ثلاث سنوات من الاستعداد .

المختار يستفيد من أخطاء ولاية ابن الزبير :

قدم المختار الى بلاد العراق ليصبح فيها الرجل الأول ،
وصاحب السلطة الوحيد . فوجد من سبقه الى أهل العراق . فقد
استطاع ولاية ابن الزبير أن يتخلصوا من النفوذ الأموي ويسلطوا
سلطانهم على بلاد العراق . كما وجد المختار التوايين قد سبقوه
الى شيعة العراق فضموهم الى صفوفهم . ونجح المختار في صرف
الشيعة عن الانضمام الى التوايين ، وانتهت الحركة التوايية كما
رأينا بالاخفاق . وبقي للمختار أن يقضى على نفوذ ابن الزبير
بالعراق ، ولكن لم تكن هذه المهمة سهلة أو يسيرة ، فقد استفحل
شأن عبد الله بن الزبير وسيطر على جميع الأمصار الاسلامية عدا
بلاد الشام ، وأصبح له جيوش كبيرة وامتلك بيوت المال . فكان
على المختار أن يترقب الفرصة المواتية ، وأن يصبر ويصابر ، وأن
يستفيد من الأخطاء التى قد يقع فيها ولاية ابن الزبير ، وكان من
حسن حظ المختار أن تعددت أخطأؤهم .

كان عبد الله بن الزبير ، خليفة الحجاز ، يعلم أنه فى حاجة الى
تأييد العراق التى كانت مورد المال والرجال ، كما كان يعلم أن
معظم أهل العراق شيعة على ، وأنهم لم يغضبوا لشيء أكثر من

غضبهم لمصرع الحسين بن علي ، وكان هذا الغضب سببا في التفاف الشيعة حول التوابين ثم حول المختار .

وما دام ابن الزبير في حاجة الى تأييد أهل العراق ، ويريد صرفهم عن المختار ، فقد كان عليه أن يتجاريهم في شعورهم ويوافقهم على أهوائهم ، عملا بالمثل المشهور (دارهم ما دمت في دارهم) . فكان عليه أن يأمر واليه عبد الله بن يزيد بالتظاهر بالحزن على مصرع الحسين ، وأن يوافق أهل العراق فيما يريدونه من المطالبة بثأره ، وكلما زادت حماسهم زاد عدد الخارجين لقتال عبيد الله بن زياد قائد الجيش الأموي ، وفي ذلك هلاك للفرقتين وعلو شأن ابن الزبير .

حقا ان عبد الله بن يزيد شجع أهل العراق على الخروج لقتال ابن زياد ، ولكنه لم يذكر لهم أنه على رأيهم ، كما أنه لم يساعدهم ماديا أو أدبيا ، بل اتبع نحوهم سياسة سلبية (١) . فقد قصر مساعدته على النصح والتحذير . ولكن جهود ابن يزيد ضاعت أمام سياسة ابن الزبير مع بني هاشم فقد اضطهدهم وآذاهم وأهانهم ، فقد حبس محمد بن الحنفية وابنه الحسن ، وأمر بدم علي بن أبي طالب على المنابر وتنبع الهاشمين بالاضطهاد . ولا شك أن هذه السياسة كفيلة بأن تجعل أهل العراق يتخلون عن تأييد ولاية ابن الزبير ، ولا يصدقوهم في أنهم جادون في طلب ثأر الحسين . وقد استفاد المختار من تخبط عبد الله بن يزيد والى ابن الزبير

(١) أنظر خطبته في كتاب الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٦٩ .

في سياسته . فقد كان هذا الوالى لا يستقر على حال . وكان
جديرا بآبن يزيد أن يتبع نحو التوابين احدى هاتين السياستين :
أولاهما : أن يمد التوابين بالمال والجند والسلاح وكانت بيوت
المال في يده ، وبذلك يصبح التوابون في حالة تمكنهم من الانتصار
على عبيد الله بن زياد . وثانيتهما ، أن يحاول اثناء التوابين عن عزمهم
في الخروج وينصحهم بالترث حتى يصل ابن زياد الى العراق ،
فيخرج ابن يزيد بجيوشه يؤازره التوابون وأهل العراق ، فتسهل
عليه هزيمة عدوهم . ولكن ابن يزيد تردد بين هاتين السياستين ،
فتراه في أول الأمر يحضثهم على الخروج دون أن يساعدهم حتى
إذا بدأوا رحلتهم ، شعر بخطئه فبعث اليهم رسولا يطلب منهم
العودة ، لأنه شعر بضعف التوابين وقلة عددهم ، فخاف عليهم
من الهزيمة في وقت هو في حاجة الى انتصارهم .

بعث ابن يزيد الى التوابين يحثهم على العودة ويحذرهم من
المخاطرة بالخروج فقال : « أقيموا معنا حتى تتيسر وتهيأ ، فإذا
علمنا أن عدونا قد شارف بلدنا خرجنا اليه بجملتنا فقاتلناهم » (١) .
ولكن سليمان بن صرد رفض الاستماع الى هذا الرأي وقال :
انا ليس للدينيا خرجنا (٢) .

وكان من حسن حظ المختار أن اختار عبد الله بن الزبير ،
ابراهيم بن محمد بن طلحة ليتولى خراج الكوفة ، ولينوب عنه في
أخذ البيعة من أهلها . فقد أساء ابن الزبير الاختيار ، حيث لم يكن

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٥٥ .

(٢) المصدر السابق .

ابراهيم أهلاً لثقتهم . ويرجع خطأ ابن الزبير في ذلك ، الى أنه كان يعلم تماماً أن أهل العراق كلهم شيعة على . وخاصة أن ابراهيم وصل الى العراق في وقت ظهرت فيه حركة التوايين الشيعية ، وقدم المختار الى العراق وبدأ يجمع الشيعة حوله وأعلن لهم أنه وزير محمد بن الحنفية . ولذا لم يكن هناك مفر من صدام ابراهيم بأهل العراق ، فقد نسي ابراهيم أنه يمثل ابن الزبير خليفة الحجاز ، وأنه من الواجب عليه أن يتناسى أحقادهم . كان المختار يهدف الى هدم النفوذ الزبيرى ، وأتاح ولاية ابن الزبير له هذه الفرصة ، فقد وقع خلاف شديد بين الواليين الزبيريين : ابراهيم بن محمد بن طلحة وعبد الله بن يزيد . فقد أبدى ابراهيم عدم رضاه عن سياسة اللين والتسامح التي اتبعها ابن يزيد نحو أهل العراق والتوايين ، ووقف ابراهيم يهددهم ويتوعددهم ويسب زميله ابن يزيد فقال : « أيها الناس ، لا يغرنكم من السيف والعشم مقالة هذا المهادن المخادع — يقصد ابن يزيد — والله لئن خرج علينا خارج لنقتلنه ، ولئن استيقنا أن قوما يريدون الخروج علينا لنأخذن الوالد بولده والمولود بوالده ، حتى يدينوا للحق ، ويذلوا للطاعة » (١) .

لم يرض أهل العراق عن تهديد ابراهيم ووعيده ، وهبوا في وجهه ، فوقف أحد زعماء التوايين ، وهو المسيب بن نجبة ، يسبه ويتهمه أنه مورتور اذ قتل أهل العراق من قبل جدّه طلحة بن عبيد الله

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٢٥ .

وأباه محمداً في موقعة الجمل في خلافة علي بن أبي طالب ، وامتدح سياسة عبد الله بن يزيد . وهكذا هدم ابراهيم كل جهود ابن الزبير في سبيل نيل تأييد أهل العراق ، ودفع بهم للالتفات حول المختار دون أن يبذل المختار جهداً في حملهم على الانضمام اليه . وكنا نتوقع أن يقف ابن يزيد في وجه ابراهيم فيُحدّ من سياسة العنف التي اتبعها في معاملته لأهل العراق ، ولكن ابن يزيد أبدى خوفه من مرءوسه وهرع اليه يقدم اعتذاره له ويطلب الصفح منه ، فقد « تهدده ابراهيم أن يكتب الى ابن الزبير يشكوه ، فجاءه عبد الله بن يزيد في منزله واعتذر اليه فقبل عذره » (١) . وتمادى ابراهيم في سياسة اضطهاد أهل العراق عامة والشيعة خاصة ، ولم يحرك ابن يزيد ساكناً ، وابن الزبير في الحجاز جاهل بما يرتكبه ولاته من أخطاء تقضى على نفوذه ، وتتيح الفرصة للمختار أن ييسط سلطانه على بلاد العراق .

استفاد المختار كل الفائدة من أخطاء عبد الله بن يزيد و ابراهيم ابن محمد بن طلحة من ولادة ابن الزبير ، فقد أدّت سياستهما الى نفور الشيعة من الحركة الزبيرية ، فأسرعوا الى الالتفاف حول المختار .

المختار في سجن ولادة ابن الزبير :

شعر عبد الله بن يزيد ، و ابراهيم بن محمد بن طلحة ، الواليان الزبيريان ، باستفحال أمر المختار ، وخطورته على نفوذ ابن الزبير

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٦٩ .

بالعراق ، فقبضا عليه وألقياه في السجن . ولكن المختار لم يكن الرجل الذي يدخل اليأس قلبه ، فقد استمر وهو في سجنه يمضي في تنفيذ سياسته المرسومة ، فأخذ يرسل الشيعة والتوايين ويحثهم على تأييده باعتباره نائب ابن الحنفية واستطاع أن يثير عواطفهم نحوه اذ وجدوه قد ألقى به في السجن مظلوما ، وكان يحقدون على ابراهيم بن محمد بن طلحة ، « فكتب اليهم — المختار — من الحبس يشنى عليهم ويمنهم بالظفر ، ويعرفهم أنه هو الذي أمره محمد بن علي المعروف بابن الحنفية بطلب الثأر . فلما قرأوا كتابه بعثوا اليه عبد الله بن كامل يقولون له : اننا بحيث يسرك ، فان شئت أن نأتيك ونخرجك من الحبس فعلنا . فأتاه فأخبره ، وقال لهم : اني أخرج في أيامي هذه » (١) .

وهكذا كان المختار على اتصال بأنصاره من الشيعة طوال بقائه في السجن ، كما كان في نفس الوقت يبذل جهده من سجنه ، فبعث الى زوج أخته عبد الله بن عمر بن الخطاب يطلب منه أن يشفع فيه الى عبد الله بن يزيد و ابراهيم بن محمد بن طلحة . ولبى ابن عمر رجاء المختار هذه المرة أيضا ، وكان قد شفع فيه بالأمر عند الخليفة يزيد بن معاوية حين سجنه عبيد الله بن زياد فأمر يزيد واليه بالافراج عنه ، فأطلقه ونهاه الى الحجاز . وكتب ابن عمر الى ابن يزيد و ابراهيم يرجوهما اطلاق سراح المختار ، وقبل رجاءه وأفرجا عن المختار ، فقد كان لابن عمر منزلة كبرى في قلوب المسلمين جميعا . ونلاحظ أن ابن عمر توجه برجائه الى الواليين

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٨٨ .

الزبيرين مباشرة دون الرجوع الى خليفتهما عبد الله بن الزبير رغم
أنهما كان يقيمان في بلدة واحدة هي مكة ، فقد كانت العلاقات
بين ابن عمر وابن الزبير على غير ما يرام ، نتيجة رفض ابن عمر
البيعة لابن الزبير . كما نلاحظ أيضا أن ابن يزيد و ابراهيم لم يرجعا
الى ابن الزبير قبل الافراج عن المختار فيستأذنا منه في ذلك . ولم
يكن المختار بالرجل الهين الأمر أو القليل الشأن ، بل كان أجدر
رجالات العرب في ذلك الحين ، كما كان زعيما سياسيا له خطورته .
ولكن ابن يزيد و ابراهيم أرادا أن يضمنا ركون المختار الى الهدوء
والسلام ، فطلبا منه أن يقسم أغلظ الايمان على طاعتهما ومسألتهما
« ولا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان ، فان فعل فعليه ألف بدنة
ينحرها عند الكعبة ، ومما ليكه أجرار ، ذكرهم وأنشاهم » (١) .
غادر المختار سجنه ، وهو يسخر من سذاجة ابن يزيد و ابراهيم
ابن محمد بن طلحة ، اللذين أصبحا يأمنانه لقسم بسيط لم يكلفه
شيئا ، بينما اعتبر هو هذا القسم وسيلة تبررها غايته الكبرى ،
وهو حتما سيحدث مستقبلا يمينه ، فقال ساخرا من رجلى
ابن الزبير : « قاتلهم الله ما أحققهم حين يرون أفتى أفى لهم ،
أما حلفى بالله ، فانتى اذا حلفت على يمين فرأيت خيرا منها أن
أكهر عن يمينى ، وخروجى عليهم خير من كفى عنهم ، وأما هدى
البدن وعق الممالك ، فهو أهون على من بصقة ، فوددت أن
تم لى أمرى ولا أملك بعده مملوكا أبدا » (٢) . وكان المختار

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٨٩ .

(٢) المصدر السابق .

على جانب كبير من الثراء ، اذ يمتلك كثيرا من الموالى وضيفة كبيرة قرب الكوفة ، مما ييسر له أمر التكفير عن حنثه في قسمه ، فيعقق رقاب بعض رقيقه .

المختار يغادر السجن ويستعد للثورة على ابن الزبير

ويخرج المختار من سجنه ليجد آلاف الشيعة في انتظاره ، فقد قتل سليمان بن صرد في معركة عين الوردة ، وعادت فلول التوايين تبحث عن زعيم جديد ، ووجدت هذا الزعيم في شخص المختار . ووقف المختار يتحدث الى التوايين ، فترحم على سليمان بن صرد وأخبرهم أن روحه مع أرواح الأنبياء والشهداء والصالحين ، ولكنه لم يكن الزعيم المنشود الذي يصلح لهذه المهمة الكبرى ، وأعلن المختار أنه « قاتل الجبارين » ، وطلب منهم الاستعداد للقتال ، ثم أعلن أنه يدعوهم « الى كتاب الله وسنة نبيه ، والطلب بدماء أهل البيت والدفع عن الضعفاء » .

ورأى المختار أن تستند دعوته الى أحد العلويين ، مما يجعل الشيعة ترتبط به ارتباطا وثيقا ، أعظم من ارتباطهم بسليمان بن صرد . فقد قصر ابن صرد أهدافه على طلب الثأر للحسين ، ولكنه لم يستند في حركته على أحد العلويين ولم يرسم خطة عريضة للمستقبل ، فلم يعمل على اقامة خلافة علوية يتولاها أحد أولاد علي أي أن أهداف ابن صرد كانت سلبية وليست ايجابية ، تنظر الى الماضي ولا تتطلع الى المستقبل .

ووقع اختيار المختار على علي بن الحسين ، فهو من سلالة الرسول وابن شهيد كربلاء الذي يطالبون بثأره . فكتب المختار اليه يقترح عليه أن يأخذ البيعة له من أهل العراق ، وبعث المختار مع رسالته مبلغا كبيرا من المال . ورفض علي اقتراح المختار ، فقد كانت مأساة كربلاء ماثلة في أذهانه ، فقد كان وقتئذ صيا في مستقبل العُمر وشاهد مصرع أبيه ، ورأى أن يتعد عن السياسة ومخاطرها .

فتحوّل المختار الى محمد بن الحنفية ، وكان المختار قد التقى به قبل رحيله الى العراق وأخبره بعزمه على الثأر لأخيه الحسين والانتصار لآل بيته ، فقال ابن الحنفية : « انى لأحب أن ينصرنا ربنا ويهلك من سفك دماءنا ، ولست آمر بحرب ولا اراقة دم » (١) . ولما امتنع علي بن الحسين عن قبول البيعة ، أعلن المختار للشيعة والتوابين أن ابن الحنفية قد أرسله وزيرا وأميرا لطلب دماء أهل بيته وقتل ابن زياد . ولكن الشيعة شكت في أمره فخرجوا الى ابن الحنفية يسألونه عن الحقيقة ، فقال لهم : « ما أحب إلينا من طلب ثأرنا وأخذ لنا بحقنا وقتل عدونا » (٢) . فعادوا ليلتفؤوا حول المختار وينضوا تحت لوائه . وبعد أن استفحل أمر المختار ، قرر عبد الله بن الزبير أن يعزل عامله عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة ، وولّى

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢١ .

(٢) اليعقوبى ج ٣ ص ٥ .

عبد الله بن مطيع بدلها على الكوفة . فكان ابن الزبير أعطى المختار فرصة ليتخلص من يمينه ، فقد أقسم على ألا يقف في وجه ابن يزيد وابن طلحة ، ولكنه لم يعد الوالى الجديد ابن مطيع بشيء .

قدم عبد الله بن مطيع الى الكوفة في يوم الخميس ٢٤ رمضان سنة ٦٥ هـ ، وكان من أشد أنصار ابن الزبير حماسة . وكان على ابن مطيع أن يشد العنان في الكوفة أكثر مما فعله سلفاه المتساهلان (١) ! واتهم ابن مطيع أول فرصة ليعرض من فوق منبر الكوفة برنامجه السياسى ، وأعلن لهم « ان أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بعثنى على مصركم وثغوركم وأمرنى بجباية فينكم ، وأن لا أحمل فضل فينكم عنكم ، وأن أتبع وصية عمر بن الخطاب التى أوصى بها عند وفاته ، وسيرة عثمان بن عفان ، فاتقوا الله واستقيموا .. » (٢) .

ولكن خطاب ابن مطيع مسـ قرحا في أهل الكوفة فقد كانوا جميعا لا يرضون أن يؤخذ فضل في مصرهم ، بل طالبوا دائما بالابقاء عليه في الكوفة وتوزيعه فيهم ، وهى نفس السياسة التى اتبعها على بن أبى طالب ، وكانت الكوفة في عهده عاصمة الخلافة ومقر بيت المال المركزى ، لا كما فعل عمر بن الخطاب ، أو كما فعل عثمان بن عفان .

(١) فلهوزن : الخوارج والشيعه ص ٢٠٢ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٨٩ .

وقف أحد الشيعة المتحمسين، وهو السائب بن مالك الأشعري،
يعترض على ما رسمه ابن مطيع من سياسة مالية تتبعها مستقبلا ،
واستغل هذا الشيعة الفرصة ليذكر الناس بعظمة الكوفة في
عهد عليّ بن أبي طالب ، وأعلن أن أهل العراق يطالبون ابن مطيع
باتباع سياسة عليّ وأنهم يرفضون اتباع سياسة عمر بن الخطاب
أو عثمان بن عفان ، كما أنهم يرفضون أن يبعث ابن مطيع فائض
في العراق الى ابن الزبير بمكة ، ويصرون على اتفاق جميع الفئ
على مصالح بلادهم . واضطر ابن مطيع أن يعلن أنه يوافق على
تحقيق جميع رغبات أهل العراق (١) .

بدأ ابن مطيع يتفرغ لنضال المختار ، فولّى على شرطته اياس
ابن مضارب ، وكان خيرا بأعمال الشرطة ، فبث رجاله في كل
مكان يجمعون له أخبار الشيعة والمختار . وجاء اياس الى ابن مطيع
فأخبره أن السائب بن مالك الأشعري الذي وقف بالأمس يعارض
ابن مطيع ويشير مشاعر أهل العراق ضده « من رؤوس أصحاب
المختار » . كما أعلن ابن اياس لابن مطيع أنه لا يأمن المختار ،
ونصح ابن مطيع أن يبعث في استدعاء المختار حتى اذا قدم عليه
قبض عليه وألقاه في السجن « حتى يستقيم أمر الناس » فان أمره
قد استجمع له ، وكأنه قد وثب بالمصر .

واستجاب ابن مطيع لنصيحة رئيس شرطته ابن اياس ، وبعث
برسولين يستدعيان المختار اليه ، وأراد المختار تلبية دعوة

(١) ابن الأثير : انكامل ج ٤ ص ٨٩ .

ابن مطيع ، ولكن واحدا من الرسولين كان من مريدي المختار ،
فأُلح له من طرف خفيّ بعزم ابن مطيع على الغدر به ، اذ قرأ عليه
الآية الكريمة (واذا يمكر بك الذين كفروا ليشتكوك أو يقتلوك
أو يخرجوك) . فظاهر المختار بالمرض ، وطلب من رسول
ابن مطيع أن يخبره بأن المرض يمنعه من القدوم عليه (١) .

ثم رأى المختار أن يتخذ موقفا حاسما من عبد الله بن مطيع ،
فهو وإن كان قد تجا من قبضة ابن مطيع هذه المرة ، فقد يعيد
ابن مطيع الكرة مرة أخرى . ولذا بدأ المختار يستعد لإعلان
الثورة في مستهل العام الجديد ، عام ٦٦ هـ ، ورأى أن تستند
الثورة على تأييد زعيم الشيعة وقتئذ محمد بن الحنفية .

قام المختار يدعو باسم محمد بن الحنفية ويسميه (المهدي)
ويسمى نفسه (وزير المهدي وأمينه) . وشكّ نفر من الشيعة
في صحة هذه الدعوى ، فراحوا الى المدينة ليتبينوا جلية الأمر
من محمد بن الحنفية ، فقال لهم : « أمّا ما ذكرتم ممن دعاكم
الى الطلب بدمائنا ، فوالله لو ددت أن الله انتصر لنا من عدونا
بمن شاء من خلقه » (٢) .

كانت هذه الاجابة العامة المجملّة تكفى أولئك الشيعة ، فعادوا
بعد شهر الى الكوفة ، وأخبروا المختار بجواب ابن الحنفية ،
فشعر المختار بأنه استراح من همّ ثقيل ، ودعا في الحال الى اجتماع
للشيعة صال فيه وجال وسخر من المرتابين .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٨٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٩٠ .

وكان على المختار أن يكسب الى صفه رجلا آخر يقيم في الكوفة نفسها ، ولا يستطيع المختار دونه أن يلقى رؤساء الشيعة نجاحا ضد الأشراف بالكوفة ووالى ابن الزبير . هذا الرجل هو ابراهيم بن الأشتر زعيم قبيلة النخع من مذحج ، وكان بارعا ماكرا مستقل الرأي ، وكان كأييه مخلصا لعلی بن أبی طالب ، وكان على اتصال بمحمد بن الحنفية ، ولكنه لم يكن يؤمن بالتشيع على الصورة التي استحال اليها في ذلك العهد ، ولم يشأ الانضمام الى سليمان بن صرد في حركة التوابين ، كما لم يشأ الانضمام الى صفوف المختار رغم بذله عدة محاولات (١) .

كان المختار يدرك أهمية انضمام ابراهيم بن الأشتر اليه ، فقد شرح له أنصاره أهمية تأييد ابن الأشتر ، فقالوا : « ان أشراف أهل الكوفة مجمعون على قتالكم مع ابن مطيع ، فان أجابنا الى أمرنا ابراهيم بن الأشتر رجونا القوة على عدونا ، فانه فتى رئيس ، وابن رجل شريف ، له عشيرة ذات عز وعدد » . وخرج أنصار المختار الى ابن الأشتر فأعلموه بحالهم وطلبوا منه الانضمام اليهم وتأييدهم ، وذكروه بما كان أبوه عليه من ولاء على ابن أبی طالب وأهل بيته ، فقال ابن الأشتر : انى قد أجبتكم الى الطلب بدم الحسين وأهل بيته على أن تولوني الأمر . فقالوا له : أنت لذلك بأهل ولكن ليس الى ذلك سبيل ، هذا المختار قد جاءنا من قبل المهدي ، وهو المأمور بالقتال وقد أمّرنا بطاعته . فسكت ابراهيم ولم يتجبههم فأنصرفوا عنه .

(١) فلهوزن : الخوارج والشيعة ص ٢٠٥ .

وبعد أيام ثلاثة ، قصد المختار وأنصاره الى ابراهيم بن الأشر ، فرحب بهم ، وجلس المختار الى جانب ابن الأشر ، وما لبث أن سلمه رسالة من ابن الحنفية وقال : هذا كتاب من المهدي محمد بن علي أمير المؤمنين وهو خير أهل الأرض اليوم ، وابن خير أهلها قبل اليوم بعد أنبياء الله ورسله وهو يسألك أن تنصرنا وتؤازرنا .

قرأ ابراهيم بن الأشر رسالة محمد بن الحنفية ، والتي جاء فيها : « من المهدي الى ابراهيم بن مالك الأشر ، سلام عليك ، فاني أحمد الله اليك الذي لا اله الا هو . أما بعد ، فاني قد بعثت اليكم وزيرى وأمينى الذي ارتضيته لنفسى وأمرته بقتال عدوئى والطلب بدماء أهل بيته ، فانهض معهم بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك ، فانك ان تنصرنى وأجبت دعوتى كان لك بذلك عندى فضيلة ولك أعنة الخيل وكل جيش غاز وكل مصر ومنبر وثمر ظهرت عليه فيما بين الكوفة وأقصى بلاد الشام » (١) .

أبدى ابراهيم بن الأشر شكه فى صدور هذه الرسالة من محمد بن الحنفية ، لأنه بدأها بعبارة « من محمد المهدي » ، فقال : قد كتب الى ابن الحنفية قبل اليوم وكتبت ، فلم يكتب الا باسمه واسم أبيه . وأسرع المختار يثبرر ما فعله ابن الحنفية اذ قال : ان ذلك زمان وهذا زمان . ويقصد المختار أن ابن الحنفية بدأ يتطلع لتولّى الخلافة ، ودخل غمار السياسة ، ولذا اتخذ ألقاباً

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٩١ .

جديدة . ولكن ابن الأشرط طالب المختار بأدلة دامغة على صدور الخطاب من ابن الحنفية . ولكن الذين قدموا بالكتاب ، والمختار نفسه أكدوا صحة الكتاب ، إلا اثنين لفتا نظره بتحفظهما ، فاتتحي بعامر الشعبي ناحية وسأله هل يشك في أمانة هؤلاء الشهود على صحة الكتاب . فقال عامر الشعبي : معاذ الله فانهم سادة القراء ومشايخه المصرو وفرسان العرب ولا أرى مثل هؤلاء يقولون إلا حقا . فسأله ابن الأشرط أن يكتب له أسماءهم ، وكتب محضرا بما وقع . فلما اطمان قلبه بهذا امتثل لما ورد في الكتاب ووضع نفسه في خدمة المختار بن أبي عبيد « ودعا ابراهيم عشيرته ومن أطاعه ، وأقبل يختلف الى المختار كل عشية عند المساء يدبّرون أمرهم ، واجتمع رأيهم على أن يخرجوا ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأول سنة ٦٦ هـ » (١) .

كان افضلهم ابراهيم بن الأشرط الى المختار كسبا عظيما لحركته ، فقد كان ابن الأشرط من أبرز شخصيات عصره ، كما كان له عصبية قوية أصبحت تضمها صفوف المختار . وقد انتهى بانضمام ابن الأشرط ورجاله الى المختار دور الاستعداد للثورة ، وبدأ الدور الايجابي ، دور الثورة .

المختار يعلن الثورة في الكوفة :

تناهى الى اسماع عبد الله بن مطيع خطة المختار وابن الأشرط ، وعزمهما وأنصارهما اعلان الثورة ، وان كان لم يعرف الموعد

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٩١ .

المضروب بالدقة ، وكان الموعد الخميس ١٤ ربيع الأول سنة ٦٦ هـ
ومنذ يوم الاثنين احتلت الشرطة الميادين العامة والسوق القريبة
من المسجد الجامع ، وكان على رأس الشرطة اياس بن مضارب
الذى أقبل على ابن مطيع يرسم له خطة مقاومة المختار وأنصاره
فقال : ان المختار خارج عليك باحدى هاتين الليلتين ، وقد بعثت
ابنى الى الكناسة ^(١) ، فلو بعثت فى كل جبانة ^(٢) عظيمة بالكوفة
رجلا من أصحابك فى جماعة من أهل الطاعة لهاب المختار وأصحابه
الخروج عليك ^(٣) . واحتل أنصار المختار من بنى تميم السبخة
وكانوا بقيادة شيب بن ربيع ، الذى بعث الى كل جبانة بجماعة
من جنده .

تقدم قائد المختار الكبير ابراهيم بن الأشتر على رأس فرقة
من مائة جندي مسلح ، والتقى فى طريقه باياس بن مضارب رئيس
الشرطة ، وقام صدام مسلح بين الفريقين انتهى بمصرع اياس .
وكان هذا الحدث ايدانا ببداية ثورة أنصار المختار فى كل مكان
بالكوفة ، رغم أن الموعد المحدد للثورة لم يحن بعد ، ولكن أصبح
بعد مصرع رئيس الشرطة لا مفر من المضى فى طريق الثورة ،
ووضع رجال المختار رأس اياس على رمح وطافوا به فى الطرقات

(١) الكناسة : مكان خارج الكوفة يتخذ سوقا للميساريات
الادبية ، وكان يشبه فى ذلك مبرد البصرة .

(٢) كان لكل قبيلة جبانة خاصة بها ، كما كان لكل قبيلة أيضا
حى ومسجد وهذا مظهر من مظاهر العصبية القبلية حينئذ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٩١ .

كاعلان عن بداية الثورة . وبدأ احتشاد جنود المختار وأنصاره
في ميادين الكوفة منذ الليل ، وتوافرت جميع مقومات نجاح
الثورة .

وفي صبيحة يوم الأربعاء ١٣ ربيع الأول سنة ٦٦ هـ ، كان
المختار قد نظم أتباعه ، ونزل في ظهر دير هند ممّا يلي بستان
زائدة في السبخة ، وهناك صلى صلاة الصبح مع أتباعه ، وما كان
هناك امام يحسن الوعظ مثله ، فقد كان على نصيب كبير من
البلاغة والفصاحة ، قادرا على الإقناع . وكان في جيش المختار
كثير من الموالي ، الفرس المسلمين ، وقد أخلصوا له كل الاخلاص .
كان مصرع رئيس الشرطة أول نصر حازه المختار ، فقد كان
يبدى عداً شديداً للحركة المختارية ، ولذا اعتبر المختار مصرعه
« أول الفتح » . وتقدم ابراهيم بن الأستر على رأس جيش المختار
ليستولى على أحياء مدينة الكوفة وجباناتها . وتولى جند ابن مطيع
قائد جديد هو راشد بن اياس الذي قاد أربعة آلاف جندي ،
ولكن ابن الأستر تمكن من هزيمته وقتله ^(١) . مما أدّى الى رفع
الروح المعنوية في نفوس جند المختار فتعالت أصواتهم بالتكبير
والتهليل .

كان قائد ابن الزبير في منطقة السبخة شيث بن ربيع ، الذي
تقدم لقتال المختار ، ولكن سرعان ما أرغمه المختار على التقهقر .
وكان معظم جند شيث من العرب ، بينما انضم الى المختار كثير من

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٩٢ - ٩٣ .

الموالي ، وأراد شبت أن يثير مشاعر جنده من العرب ويحرّضهم على قتال مواليهم فصاح فيهم : يا حماة السوء ، بئس فرسان الحقائق أنتم ، أمن عبيدكم تهربون ؟!. وكان لهذا الكلام أثره ، فقد هزّ فيهم وتر الشرف ، وأثار فيهم الحفيظة على الموالي ، الذين كانوا يحاربون في صفوف المختار . فكان إذا هوجم أحد الموالي سقط صريعا مقتولا ، بينما كان الأسرى العرب يتركون يفرون . وأضحى جيش المختار في مركز حرج ازاء تفوق جند عدوه ابن مطيع . وكان قائد فرسان جيش المختار وقت ذاك يزيد بن أنس الأسدي وقد أوشك على الهزيمة رغم استماتته في الدفاع ، لولا أن أنجده ابراهيم بن الأشتر . وكان هذا في خلال المعركة مشغولا بقتال فرقتين من فرق العدو في المدينة أثر التفرغ لقتالهما ، حتى إذا فرغ من قتالهما وتم له النصر عليهما ، أسرع لنجدة المختار .

ولم يكذب يظهر ابراهيم بن الأشتر حتى فرّت جنود شبت ابن ربيعي من الميدان . ولكنهم ما لبثوا أن عادوا الى الاحتشاد في المدينة مرة أخرى ، وانضم اليهم آخرون . ولكن ابراهيم بن الأشتر فرّق شملهم . وفرّ الأشراف وابن مطيع الى القصر فحوصروا فيه ، وبعد هذا النصر زاد عدد الشيعة وجند المختار زيادة كبيرة ، فقد أدركوا أن كفة المختار هي الراجحة ، وأنه أصبح رجل الساعة .

رجع الناس من السبخة منهزمين الى ابن مطيع ، وجاءه نبأ قتل راشد بن اياس فسقط في يده . ودخل أنصار المختار السوق

والمسجد وحصروا ابن مطيع ومعه الأشراف من الناس ، واشتد
الحصار عليهم ، فقال شيبث لابن مطيع : انظر لنفسك ولمن معك
فوالله ما عندهم غنى عنك ولا عن أنفسهم : فقال : أشيروا على .
فقال شيبث : الرأى أن تأخذ لنفسك ولنا أمانا ، وتخرج ولا تهلك
نفسك ومن معك . فقال ابن مطيع : انى لأكره أن آخذ منه أمانا
والأمور لأمر المؤمنين مستقيمة بالحجاز والبصرة . قال : فتخرج
ولا يشعر بك أحد فتزل بالكوفة عند من تثق اليه حتى تلحق
بصاحبك (١) .

وبعد ثلاثة أيام تسلل ابن مطيع من القصر هاربا فاستتر ،
أما الأشراف فأذعنوا وبايعوا المختار ، فقد أدركوا أنه بطل الموقف ،
وأنه لا جدوى من الاستمرار فى المقاومة بعد فرار والى ابن الزبير
بالكوفة ، عبد الله بن مطيع ، وتفرق جنده .

وفى صباح اليوم التالى ، جاء المختار من القصر بعد أن بات
فيه ، فتلقى البيعة من الأشراف وغيرهم « على كتاب الله وسنة
نبيه ، والطلب بدماء أهل البيت ، وجهاد المحلين والدفع عن
الضعفاء ، وقتال من قاتلنا ، وسلم من سلمنا والدفاع ببيعتنا ،
لا تقيلكم ولا نستقيلكم » . وكانت هذه البيعة فى ذلك الوقت
بمثابة الدستور ، أو الميثاق الذى يحدد الحقوق والواجبات
بين الحاكم والمحكومين ، وكان كل من يعطى بيعة يصبح ملتزما
بها ، ومن ينكث انما ينكث على نفسه .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٩٤ .

وكان في بيت مال الكوفة وقت ذلك تسعة ملايين درهم ،
أخذها المختار فكافأ بها أصحابه وأنصاره الذين كانوا معه في
حصاره لقصر عبد الله بن مطيع . فقد كان المختار يدرك تأثير المال
في النفوس ، وكان بطبعه جواداً كريماً ، ولذا تم له الأمر بالكوفة .
أما عبد الله بن الزبير فقد اشتهر بالحرص والبخل ، وكان ولايته
بالعراق على مثاله ، فانصرف الناس عنهم ..

حكومة المختار في العراق

سيطرة المختار على العراق وأطراف الدولة الإسلامية الشرقية - عوامل نجاح سياسة المختار في العراق :
(طلب المختار نثار الحسين ودعوته لابن الحنفية ، المختار يؤمن الأشراف ويعدل بين الناس ، نجاح المختار في استمالة الزعماء الى حزبه ، قضاء المختار على قتلة الحسين ، خطأ الأمويين باختيار ابن زياد لفتح العراق ، استفادة المختار من العصية القبلية ، المختار يدارى ابن الزبير ، ميل أهل العراق الى الاستقلال ، تأييد الموالي للمختار) - حكومة المختار في العراق .

الفصل الخامس

حكومة المختار في العراق

سيطرة المختار على العراق وأطراف الدولة الإسلامية الشرقية:

رأى المختار حبل الأمن مضطرباً في الأمصار العربية الإسلامية ، ومطامع الزعماء تنخر في عظام الدولة الأموية ، فقد غلب عبد الله ابن الزبير على الحجاز والعراق ، وتغلب نجدة الحروري على العروص ، وقام عبد الله بن حازم في خراسان ، فطمحت نفس المختار الى السلطة والسيادة ، فدعا القوم في العراق الى الثورة فأجابوه ، واستطاع أن يسيطر تماماً على الكوفة بعد القضاء على نفوذ عبد الله بن الزبير خليفة الحجاز .

حقاً قضت الدولة الأموية على حركة التوايين في معركة عين الوردة ، ولكنها لم تقض على الأحقاد التي تأصلت في نفوس الشيعة ، فكانت مراجل الضغينة تغلي في صدورهم ، لما لاقوه من المذلة والاهانة بعد معركة كربلاء وعين الوردة مما جعلهم مهينين لدعوة زعيم يدير دفعة سياستهم ويتسلم أمورهم . وقد كان المختار شاباً

طموحا على الهمة لم تفتر همته عن جمعهم تحت لوائه ، فتكملت مساعيه بالنجاح .

كانت سيطرة المختار على الكوفة نقطة الارتكاز التي ارتكن عليها ليمد نفوذه شرقا وغربا . فقد كانت الكوفة قلب بلاد العراق النابض في ذلك الحين ، ومركز الأحداث السياسية في الجانب الشرقي من الدولة العربية الاسلامية . وكان ولاية العراق عادة يحكمون الأجزاء الشرقية من الدولة . ولذا دانت لطاعة المختار ولايات اسلامية عديدة ، مثل أرمينية ، وأذربيجان ، والموصل ، والمدائن ، وأرض جوحى ، وبهقازدا ، وحلوان ، وأصبهان ، وقم والماهين ، وهمدان وغيرها (١) . وأصبح المختار يسيطر على جميع أرجاء الدولة العربية الاسلامية ما عدا قطرين هما الشام ومصر التي ظل الأمويون محتفظين بنفوذهم فيها . وبعث المختار بولاته يحكمون هذه البلاد ، وكان هؤلاء الولاة من رجالات العرب المعروفين في ذلك العصر ، ويمثلون عدة قبائل قوية مثل همدان وبكر والنخع وباجله وتميم (٢) .

كانت مدينة الموصل هي المدينة الثانية في بلاد العراق التي وجه المختار اهتمامه اليها للسيطرة عليها والقضاء على النفوذ الزبيرى فيها تماما ، فقد كانت الموصل المفتاح الشمالى لبلاد العراق . وكان عبد الله بن الزبير قد ولى على الموصل محمد

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٩٥ .

(٢) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٠٠ .

ابن الأشعث بن قيس ، فلما تمّ الأمر للمختار في بلاد العراق ، بعث عبد الرحمن بن سعيد الى الموصل واليا ، وخرج ابن الأشعث هاربا الى تكريت ، فبعث اليه ابن الزبير يلومه ويوبخه ، فقد كان يدرك أهمية هذه المدينة ، ويخبره أن « لا عذر لك عندي فيما فعلت ، أتخلّي أرض الموصل وخراجها وحصونها من غير جهاد ولا اعداد ، فوالله لو لم تقاتل مناصحة لامامك ولا طلبا لثواب ربك لكنت حريّا بأن تقاتل عن بلد أنت أميره لك خيره وعليك عيبه !! » (١) .

ولكن المختار وإن كان قد نجح في السيطرة على الموصل والتخلص تماما من نفوذ ابن الزبير ، إلا أن الموصل سرعان ما تعرّضت لخطر آخر ، فقد قدم الجيش الأموي بقيادة عبيد الله ابن زياد يحاول الاستيلاء على الموصل ، وكان ابن زياد قد بعثه الخليفة الأموي مروان بن الحكم لينتزع بلاد العراق من أيدي ولاية ابن الزبير ، فالتقى كما رأينا بجيش التوابين في عين الوردة . وانتظر ابن زياد حتى اتى ذلك الصراع المرير الذي دار بين المختار والزبيريين ، وانهى بانتصار المختار ، فبدأ ابن زياد يحاول انتزاع مدن العراق من أيدي ولاية المختار ، وبدأت مرحلة جديدة من الصراع : صراع المختار للأمويين وقائدهم ابن زياد ، وصراعه للزبيريين . وسنفضل الحديث عن صراع المختار لكل من الفريقين في الفصلين القادمين .

(١) البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٢٩ .

دافع المختار عما حازه من انتصار ، وخاصة عن مدينة الموصل .
فقد بعث عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني والى المختار
بالموصل ، الى المختار يستنجد به على عبيد الله بن زياد ويخبره
بأن خيله قد أشرفت على الموصل ، وأنه ليس معه خيل ولا رجال
يقف بها في وجه ابن زياد . فبعث المختار يزيد بن أنس واليا على
الموصل ومعه جيش أعدّه لقتال ابن زياد ، ولكنه مات في الطريق ،
وتفرّق جيشه ، فأمر المختار قائده الكبير ابراهيم بن الأشتر
أن يخرج الى الموصل ليجمع جيش يزيد بن أنس ويصحبه الى
الموصل . ولكن بعض الفتن قد ثارت في الكوفة فعدل المختار
عن انقاذ ابن الأشتر .

عوامل نجاح سياسة المختار في العراق :

نجح المختار في أن يمدّ سلطانه ونفوذه على جميع بلاد العراق ،
وكانت هناك عدة عوامل أدت الى نجاح سياسة المختار في العراق ،
والى ما وصل اليه من فوز وانتصار .

أول هذه العوامل ، اهتمام المختار بطلب ثأر الحسين ،
ودعوته لابن الحنفية . فقد أدرك المختار منذ اللحظة الأولى أنه
إذا أراد أن يسيطر على العراق ، فعليه أن ينال رضا الشيعة وكانوا
يمثلون الغالبية العظمى من أهل العراق . ولذا جعل المختار طلب
الثأر للحسين واعادة الأمر والحكم الى آل بيت الرسول الركن
الأول في سياسته . فقد كانت شيعة على ترى أنه أحق الصحابة

بالخلافة بعد وفاة الرسول مباشرة ، باعتباره وصى الرسول ، فقد أوصى له يوم غدير خم بالخلافة ، كما رأوا أن الخلافة ليست اختياراً من الأمة ، بل يتولاها بعد عليّ أعقاباً ، فيتولى بعده الحسن ثم الحسين . وأثار مصرع الحسين في كربلاء مشاعر الشيعة وباتوا يترقبون الفرصة للأخذ بثأره ، وأدرك المختار هذه المشاعر عند الشيعة ، فكان يعلن دائماً في كل مناسبة أنه عازم على الانتقام لقتلى كربلاء ، مما أدّى الى تأييد أهل العراق عامة والشيعة خاصة للمختار .

كانت الحركات السياسية في ذلك الوقت في حاجة الى صبغة دينية لتوفر لها سبل النجاح والنصر . والمختار رجل سياسى بارز له شأن بين العرب والمسلمين ، ولكن زعامته السياسية كانت في حاجة الى جانب روحى ، ولذا رأى المختار أن يسانده زعيم روحى ، فحاول اكتساب رضا عليّ بن الحسين بن عليّ ، حتى اذا أخفق تحوّل الى محمد بن عليّ بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية ، ويرجع تفضيل المختار لعلى بن الحسين على ابن الحنفية ، أن الأول كان من حفدة الرسول كما كان ابن شهيد كربلاء ، أما ابن الحنفية فكانت أمه من بنى حنيفة وليس من أولاد فاطمة بنت الرسول .

كانت الخلافة يتنازعها في ذلك الوقت بيتان عريان كبيران : البيت الأموى ، والبيت الهاشمى . وقد بدأ تنافس هذين البيتين في العصر الجاهلى حول السيادة في الحجاز واستمر في العصر الإسلامى . وكان الصراع بين عثمان بن عفان وعليّ بن أبى طالب ،

والصراع بين معاوية وعلى ، هو في الحقيقة صراع بين الأمويين
والهاشميين . وكان البيت الهاشمي يضم فرعين كبيرين ، العلويين
والعباسيين ، وقد ركن العباسيون الى الهدوء الى حين ، واستمر
كفاح العلويين للأمويين من أجل الخلافة ، ولكن تنازل الحسن
ابن على لمعاوية بن أبي سفيان ، ثم قيام الدولة الأموية ، ثم مصرع
الحسين بن على في كربلاء ، خيَّب آمال العلويين . وتولت زعامة
البيت العلوي الهاشمي محمد بن الحنفية ، ولكنه لجأ الى المقاومة
السلبية دون الكفاح الايجابي . ورأى المختار أن يقوم هو بالدور
الايجابي فيتولى الزعامة السياسية والقيادة العسكرية ، على أن
يكون ابن الحنفية الزعيم الروحي .

ويؤكد الشهرستاني ^(١) أن أمر المختار لم ينتظم الا باتساعه
الى محمد بن الحنفية أخى الحسين علما ودعوة ، وحين بدأ المختار
يدعو لقتال من أقدموا على قتل آل بيت الرسول .
ونشط المختار في بث دعوته نشاطا عظيما بعد مقتل سليمان
ابن صرد ورجوع فلوله الى أوطانهم ، فكتب للتوايين يثبِّتهم
بمصرع أبطالهم ، ويهتئهم بما نالوه من الأجر والفوز عند ربهم ،
ويدعوهم الى الانضمام اليه ليُجرَّد في عدوهم السيف ويثار لحفيد
الرسول شهيد كربلاء . فانضم اليه فريق كبير من التوايين وأصبحوا
من أشد أنصاره اخلاصا وأعظم جنده استبسالاً في الحروب
التي شنتها .

(١) الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٧ .

كان المختار في دعوته أعظم خطراً وشأناً من سليمان بن صرد ،
فقد اجتمعت فيه صفات الزعامة ، فخافه ولاية ابن الزبير في الكوفة ،
فقبضوا عليه وأودعوه السجن . وكان المختار يهدف دائماً الى
السيادة في بلاد العراق بحيث يصبح الرجل الأول فيها ، بعد
القضاء على نفوذ ابن الزبير فيه . أمّا سليمان بن صرد فكان يسعى
لقتال بني أمية أعداء ابن الزبير .

اتفقت الشيعة على القيام بتأييد المختار ، فصار دعاة بني يعون
له وهو في سجنه الى أن أخلى سبيله . ثم بدأ المختار يدعو لابن
الحنفية ، ولم يعارض ابن الحنفية في الدعوة له ، فقد كان يميل
الى الدعة والهدوء ، وقد وقر المختار عليه جهد الدعوة له ، وقد
استفاد المختار من طباع ابن الحنفية هذه ، كما استفاد من تصريحاته
التي صرح بها ابن الحنفية بعد مقتل الحسين ، وأخذ يقول
للناس ان امامكم ابن الحنفية يدعوكم لطلب الثار لآل بيت نبيكم .
كما استفاد المختار من بعض أقوال ابن الحنفية المجلة العامة ،
ففسرها حسب مقتضى الأحوال .

ومن عوامل نجاح سياسة المختار في العراق تأمينه الأشراف
العرب على أرواحهم وممتلكاتهم ، وعدله بين الناس ، وانشاء
حكومة لها نظمها الثابتة . كان معظم شيعة العراق من الموالي
الفرس ، وأصبح معظم جند المختار من غير العرب . ولكن المختار
رغم ذلك ، لم يتعصب لهؤلاء الفرس ضد الأشراف العرب ، فأعلن
تأمينه لهؤلاء الأشراف على حياتهم ، وأنه يساوى في المعاملة بينهم
وبين مواليهم . كما ولّى حكم الولايات كثيراً من رجالات العرب

المشهورين وقتئذ (١) . واهتم المختار أن يشعر جميع رعاياه بالأمان والطمأنينة والاستقرار ، ففقد للقضاء بنفسه ، وكان يقف على المنبر دائما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وكان استقرار الأمور الداخلية من العوامل التي أتاحت الفرصة للمختار ليتفرغ للمشاكل الخارجية ، وقتال أعدائه من الأمويين والزبيريين .

وثالث عوامل نجاح المختار ، نجاحه في استمالة الزعماء الى حزبه . وكان المختار يعلم حق العلم أن لا سبيل الى اجتذاب قلوب الزعماء أرباب المصالح الا بمنحهم ما تصبو اليه نفوسهم ، من المناصب ، وما تتوق اليه ذواتهم من الكسب المادى . فاستطاع أن يستميل اليه ابراهيم بن الأشتر ذلك القائد المشهور والرجل الذى له شأنه فى قومه وفى بلاد العراق خاصة ، كما استطاع أن يستميل ولادة ابن الزبير الى جانبه ، وفى مقدمتهم عبد الله بن مطيع الذى منحه مائة ألف درهم حتى يتنازل عن الحكم ، فأخذها ابن مطيع وأقام فى البصرة ولم يرجع الى خليفته عبد الله بن الزبير بمكة . فأرسل ابن الزبير واليا جديدا على الكوفة مكان ابن مطيع هو عمر بن عبد الرحمن بن الحرث وأعطاه ابن الزبير ما بين ثلاثين وأربعين ألف درهم ليستعين بها فى عمله ، ولكن المختار منحه سبعين ألف درهم أى ضعف ما أعطاه خليفته ، فسار هذا الى البصرة ، وركن الى الهدوء كما فعل سلفه ابن مطيع (٢) .

(١) انضم الى المختار كثير من القبائل العربية مثل باجلة وتميم وهمدان والنخع وغيرها . وكثير من العشائر مثل : نهد وخارف وثور وشاكر وشبنام ، وكان معظم أنصاره من العرب اليمنية .

(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٤٣ .

كان ابن الزبير شحيحاً بالمال ، بينما اشتهر المختار بالكرم والجود ، ولذا انصرف كثير من أنصار ابن الزبير عنه الى تأييد المختار . ونرى كرم المختار بعد نجاحه في انتزاع الكوفة من ابن مطيع عامل ابن الزبير ، فقد فرّق جميع الأموال التي وجدها في بيت مال الكوفة على رجاله ، فلهبت ألسنتهم بالشناء عليه .

ومن عوامل نجاح المختار في بلاد العراق كذلك اقدام المختار على القضاء على قتلة الحسين بن عليّ فبعد أن سيطر المختار على الكوفة ، واستقرت له الأمور في العراق ، بدأ ينفّذ ما وعده به الشيعة من الأخذ بثأر الحسين بن عليّ وسائر قتلى كربلاء ، فوجّه المختار رئيس شرطته ومعه ألف رجل يحملون المعاول لهدم دور كل من خرج لقتال الحسين يوم كربلاء . وبعث المختار بعض جنده ليأتوه برأس عمر بن سعد بن أبي وقاص الذي قاد الجيش الأموي الذي قاتل الحسين . ثم سمع المختار باقتراب عبيد الله ابن زياد المسئول الأول عن مصرع الحسين من الموصل بعد هزيمة التوابين ، فأرسل المختار قائده يزيد بن أنس لقتال ابن زياد ، وأمدّه بفرقة أخرى بقيادة ابراهيم بن الأشتر ، فدارت الدائرة على ابن زياد وقتل (١) . كما سنبين ذلك في الفصل القادم .

ومما أدى الى ما لاقاه المختار من نجاح وانتصار في بلاد العراق ، ما وقع فيه الأمويون من خطأ حينما اختاروا عبيد الله ابن زياد لقيادة الجيش الأموي الذي بعثوه لفتح العراق . ولعلنا نذكر سياسة الشدة والاضطهاد والتعذيب التي اتبعها

(١) الطبري ج ٧ ص ١٤٤ .

زياد بن أبيه ثم ابنه من بعده عبيد الله بن زياد في حكم العراق ،
 واقدام ابن زياد على قتل الحسين بن علي وأهله في كربلاء . ولهذا
 لم يكن العراقيون أشدّ سخطا في تاريخهم على رجل مثل سخطهم
 على ابن زياد ، ولقد أرادوا الفتك به بعد وفاة الخليفة يزيد بن
 معاوية ، لولا أن خرج هاربا والتجأ الى الأزدي ، وقد أتى به هؤلاء
 الى الشام آمنا . كما أن ابن زياد استعمل الدهاقين من الفرس (١)
 لجباية الأموال على زعم أنهم أبصر بالمسائل المالية من العرب وأوفى
 بالأمانة وأهون بالمطالبة ، وكان العراقيون يكرهون هؤلاء ويعانون
 منهم الكثير . وكان ابن زياد شحيحا بالمال لا يبذل العطاء ، ممّا
 أدّى الى التفاف العراقيين حول المختار ليصمد أمام ابن زياد .
 ونضيف الى العوامل السابق ذكرها ، عاملا سادسا ، هو
 استفادة المختار من العصبية القبلية . وكانت هذه العصبية
 تمزق شمل البيت الأموي وتفرق صفوفه ، وكانت معركة مرج
 راهط التي دارت بعد موت الخليفة يزيد بن معاوية مرآة انعكست
 فيها العصبية القبلية بين اليميين والقيسيين ، وكلهم من العرب
 فقد أنزل اليمينيون بأعدائهم القيسيين صنوفا من المذلة والاهانة .
 فلما قدم عبيد الله بن زياد الى العراق ، من قبل مروان بن الحكم
 لاختضاع العراق ، ومرّ بالجزيرة ، أصلاه أهلها القيسيون نارا
 حامية ، فقد كانوا يكرهون آل مروان ، كما رأوا أن يأخذوا بثأر
 هزيمتهم في مرج راهط .

فهذه الحرب التي أشعلها القيسيون على اليميين من أنصار

(١) الدهاقون الفرس هم كبار الملاك الاقطاعيين .

مروان بن الحكم ، كلفت عبد الله بن زياد ثمنا باهظا ، فقد سفكت فيها دماء غزيرة وأبطأت بقدمه الى العراق عاما كاملا ، فأفاد المختار من هذا الابطاء فائدة كبيرة .

وسابع عوامل نجاح المختار ، أنه كان يدارى عبد الله بن الزبير ويتجنب الاصطدام به على قدر المستطاع وكان المختار قد ثار في العراق وطرده الحامية الزبيرية وأعلن استقلاله عن خلافة عبد الله ابن الزبير ، وهو واثق أنه لا بد له من مناجزة عدوين قوين طامعين في تثبيت سلطانهما في بلاد الرافدين ، وأول هؤلاء بنو أمية في الشام ، وثانيهم ابن الزبير في الحجاز . فأما بنو أمية ، فمن العسير مفاوضتهم لكره الشيعة لهم وما ارتكبه ولاتهم من المظالم في بلاد العراق .

وأما ابن الزبير فقد تسهل مهادته ومداراته ، لأن المختار سيقوم بقتال أعدائه الألداء الأمويين ، فإن انتصروا على المختار وأتباعه كان ابن الزبير قد تخلص منهم ، وإن انتصر المختار على الأمويين كان أهون شوكة منهم عليه . ولذا تهادن المختار وابن الزبير حتى يتجمع لأحدهما الأمر فيثب بصاحبه ، فقد كتب المختار لابن الزبير : « أما بعد ، فقد عرفت مناصحتي إياك وجهدي على أهل عداوتك ، وما كنت أعطيتني إذا أنا فعلت ذلك من نفسك ، فلما وفيت لك وقضيت الذي كان لك على حث بي ولم تقف بما عاهدتني ، ورأيت مني ما قد رأيت ، فإن ترد مراجعتي أرجعك ، وإن ترد مناصحتي أنصح لك » (١) .

(١) الطبري ج ٧ ص ١١٠ .

وكان ميل أهل العراق الى الاستقلال وتحقيق المختار رغبتهم ، من عوامل نجاحه . فقد كان أهل العراق طوال تاريخهم ، قبل الاسلام وفي العصر الاسلامي ، يميلون الى تحقيق نوع من الاستقلال الذاتي ، عن الدولة الاسلامية ، بحيث يظهرن بشخصية مستقلة تميّزهم عن سائر الأمصار الاسلامية . وكانوا يكرهون أن يكونوا تابعين لغيرهم ، وأن تكون حاضرة الدولة في غير مصرهم . كما كره أهل العراق أن يتحمل فائض موارد بلادهم الى الحاضرة ، ولا ينفق على مصالح بلادهم .

ولذا أبدى العراقيون سرورا ورضاء حينما اتخذ عليّ بن أبي طالب الكوفة حاضرة للدولة العربية الاسلامية ، فأصبحت بلاد العراق قلب العالم الاسلامي . حتى اذا قُتِل عليّ بايع أهل العراق ابنه الحسن ليحتفظوا بالعاصمة في بلدهم ، ولينافسوا بالحسن خليفة العراق ، معاوية خليفة الشام . ولكن تنازل الحسن وقيام الدولة الأموية خيّب آمالهم .

وظل العراقيّون يحاولون دائما الثورة والوصول الى الاستقلال ، فكأنوا يؤيدون كل ثائر وخارج على الدولة الأموية . وحفلت بلاد العراق في صدر الدولة الأموية بالثورات والفتن ، حتى اذا ظهر عبد الله بن الزبير في الحجاز وبايع نفسه خليفة أقبلوا يبايعونه ، لا اقتناعا بأحقّيته بالخلافة ولكن ليتحرّروا من الخضوع لسلطان خليفة الشام مروان بن الحكم ، وقد يكون ابن الزبير أكثر رافة بهم واكراما لهم من مروان . ولكن المختار ابن أبي عبيد الثقفي ما كاد يظهر في بلاد العراق ، ويعلن تحرير

العراق من كل نفوذ ، أموى وزبيرى ، وما كاد يعلن اتخاذ الكوفة مركزا لدعوته ، حتى أقبل العراقيون يبايعونه ويعلمون نصرتهم وتأيدهم له .

ومن أبرز عوامل نجاح المختار فى سياسته بالعراق تأييد الموالى له . وكانت حال الموالى طوال العصر الأموى سلسلة من الظلم والاضطهاد . فقد كان الولاة يحرمونهم من الوظائف الكبرى ، والعطاء والأرزاق . ولهذا كانوا ينتهزون الفرص للثورة على الدولة الأموية ، أو العمل على إضعافها ، فينضمون الى كل خارج على هذه الدولة ، وكانت كثرتهم وقتلتهم فى تأييد تلك الأحزاب الخارجة تتبع الى حد كبير شخصية الداعى .

وكان المختار بعيد النظر ، فقد أدرك أن نصف سكان الكوفة من الموالى وأن فى أيديهم موارد الثروة ، فهم أصحاب الحرف والمهن والتجارة ، فعمل على استمالتهم اليه (١) . ولكن المختار لم ينس أن يتقرب الى العرب الأشراف ، فاتخذ من الفريقين أسسا لحركته (٢) .

كذلك رأى الموالى بدورهم أن يتخذوا المختار وسيلة للانتقام من الدولة الأموية التى تعصبت للعرب واضطهدت الموالى ، ووسيلة لتحقيق مآربهم بارجاع السيادة القومية ، وسنفرد فصلا خاصا عن علاقة الموالى بالمختار .

(١) Nicholson : Lit. History of the Arabs P. 218

(٢) الطبرى ج ٧ ص ١٠٩ .

امتزجت هذه العوامل التسعة ، وتبلورت وأدت الى نجاح سياسة المختار في بلاد العراق ، وأصبح المختار الرجل الأول ، وصاحب السيادة والنفوذ ، وأراد المختار أن يدعم هذا النجاح باقامة حكومة عادلة منظمة في العراق .

حكومة المختار في العراق

كان المختار على جانب كبير من سعة الأفق والذكاء . فقد رسم طريقه بدقة واحكام ، وخطى خطواته نحو المجد في تعقل وثبات ، ومضى من نجاح الى فوز ، حتى أصبح له السلطان في العراق ، وأجمع أهل العراق على تأييده ومودته . ولم يكن ما وصل اليه المختار من نجاح نهاية لحركته السياسية ، بل أراد أن يكون نجاحه بداية لحياته السياسية . فرأى أن يقيم في العراق حكومة ثابتة الأركان ، وطيدة الأسس ، لها نظمها المقررة المحددة ، تعدل بين الجميع ، وتساوى بين أهل العراق على اختلاف أجناسهم وأديانهم ومذاهبهم السياسية والدينية ، ونجح المختار في ذلك نجاحا كبيرا ، ولم يكن يعكر عليه صفوه سوى المشاكل الخارجية ، وخاصة صراع ابن الزبير والأمويين ، ممّا كان يشغله عن السياسة الداخلية .

استولى المختار على الكوفة دون اراقة دماء كثيرة ، وسعى لاشاعة العدل والرحمة والطمأنينة في النفوس ، وعمل على التوفيق أو المهادنة بين الأحزاب . وتولّى المختار القضاء بمهارة ، حتى

أرهبه المنصب عيّن قضاة يختصّون بالقضاء ، وأمرهم بالعدل
والمساواة ، وكان لا يفتأ عن مراقبتهم وتوجيه النصح لهم .

اتبع المختار سياسة تسامح ، فكان يعفو دائما عن خصومه
وأعدائه ، وإذا اضطر الى انزال العقاب ببعضهم كان متساهلا
معتدلا . فقد ترك المختار والى ابن الزبير في الكوفة ، عبد الله
ابن مطيع ، يرحل في سلام ، ومنحه مالا وفيرا يستعين به في سفره .
وإذا كانت دعوة المختار تقوم على أسس طلب ثأر الحسين ، فقد
منع المختار أنصاره من القتل وارتكاب المظالم . وعفا المختار عن
خصم له أساء اليه ، وكان جزاؤه عن هذا الصنف أن مدحه خصمه
بقصيدة يشكره فيها . ووفي المختار بعهده للأشراف بالأمان ،
بل رغب اليهم أن يجالسوه وينصحوه كما كانوا يفعلون من قبل
مع من سلفه من الولاة .

اتخذ المختار من مدينة الكوفة مركزا لدعوته وحركته
السياسية ، وعاد الى الكوفة مجدها القديم المسلوب . وفكّر
المختار في جعل الكوفة مركزا للخلافة الاسلامية مرّة أخرى ،
كما كانت في عهد علي بن أبي طالب وابنه الحسن ، وأراد أن
يقيم خلافة علوية يتولاها أحد أبناء علي بن أبي طالب وهو محمد
ابن الحنفية . وظهر المختار دائما بمظهر الحريص على مصالح
الكوفيّين .

اهتم المختار باختيار ولاته وقواده وموظفيه ، وانتقاء الشخص
المناسب لكل منصب . ورغم عطف المختار على الموالي وتحسينه

أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية ، فقد اختار جميع ولاياته وقواده من العرب ، وكانوا كلهم من طبقة النبلاء أو كما يسميهم فلهوزن^(١) « الطبقة العالية من النبالة الحربية العربية » .

وولّى المختار على الولايات التي امتد إليها نفوذه ولاية اشتهروا بالعدل والاخلاص . فقد ولّى زفر بن الحارث على قرقيسيا ، وولّى حاتم بن النعمان الباهلي على حران والرها وسميساط ، وولّى عمير بن الحباب على كفر توثا وطور عبيد^(٢) ، وولّى عبد الرحمن بن سعيد الهمداني على الموصل ، ومحمد ابن عثمان التميمي على أذربيجان ، وعبد الله بن الحرث أخا الأشر على همدان والماهين ، ويزيد بن معاوية البجلي على أصبهان ، وابن مالك البكراوي على حلوان . وكلهم من رجالات العرب ، وينتسبون الى أكبر القبائل في ذلك الحين^(٣) .

ويتحدّث البلاذري^(٤) عن سياسة المختار في حكم الكوفة ، فيقول : « وكان المختار قد وجد في بيت مال الكوفة تسعة آلاف ألف درهم — أي ٩ مليون درهم — فأعطى أصحابه ومن بايعه . وأحسن المختار مجاورة أهل الكوفة والسيرة فيهم وأكرم الأشراف وولّى شرطته عبد الله بن كامل الشاكري وولّى حرسه كيسان

(١) الخوارج والشيعة ص ٢١١ .

(٢) البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٣١ .

(٣) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٣٠٠ .

(٤) أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٢٩ .

مولى عرينة ويكنى أبا عمرة وهو صاحب الكيسانية ، وولّى المختار عمّاه له ، وولّى عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الموصل . وكانت العناية بالمستضعفين مسألة رئيسية فى برنامج المختار السياسى والاجتماعى ، وكان يقصد بالمستضعفين فى ذلك الوقت الموالى ، أى المسلمون من غير العرب ، وكانوا يؤلفون أكثر من نصف سكان الكوفة كما ذكرنا ، وكان معظمهم فارسا ، أصلا ولغة ، وقد حرّمهم العرب من حقوقهم السياسية والاجتماعية . وكوّن المختار جيشا نظاميا ، اشتهر بالنظام والشجاعة والطاعة . وقد انتصر فى معظم المعارك التى خاضها على جيوش تفوقه عددا وعدة . وإذا كان هذا الجيش قد لحقت به الهزيمة فى نهاية حياة المختار السياسية فقد كان ذلك نتيجة عوامل أخرى ، وليس نتيجة عيوب تشوب جيش المختار . واشتهر جند المختار باسم « الخشبية » ، فقد كان معظمهم يقاتلون بالخشب . ويقال أنهم سُمّوا بالخشبية « لأن الذين وجههم المختار الى مكة لنصرة ابن الحنفية أخذوا بأيديهم الخشب الذى كان ابن الزبير جمعه ليحرق به ابن الحنفية وأصحابه فيما زعم ، ويقال : بل كرهوا دخول الحرم بسيف مشهورة فدخلوه ومعهم الخشب ولم يسلّوا سيوفهم من أعمادها » (١) .

كان معظم جند المختار من الموالى الفرس ، وقد اشتهروا بالشجاعة والاستبسال فى القتال من أجل تحقيق أهدافهم ، كما

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٣١ .

اشتهروا بكمال الأجسام وحسن المظهر . وإلى جانب هؤلاء
الموالى كانت قلة من الجند العرب . ولا عجب في ذلك فقد كان
الموالى الفرس يمثلون غالبية السكان فكان طبيعيا أن يكون
تمثيلهم في جيش المختار على صورة أوسع من تمثيل العرب .
ولكن معظم قواد المختار كانوا من العرب .

موقف المختار من الدولة الأموية

- موقف العراق من المختار والحكم الأموي - اول
- صدام حربي بين المختار والجيش الأموي - موقف العرب
- اشراف الكوفة من صراع المختار والأمويين - المختار
- يقضي على الأمويين قتلة الحسين - موقف البصرة من
- المختار - المختار يهزم الجيش الأموي ويقتل ابن زياد •

الفصل السادس

موقف المختار من الدولة الأموية

موقف العراق من المختار والحكم الأموي :

كان للمختار أهداف يسعى الى تحقيقها ، كما كان لبلاد العراق آمال ترمى الى الوصول اليها . فهل كانت أهداف المختار تنطبق على آمال أهل العراق ؟ وكانت الدولة الأموية ترمى الى السيطرة على بلاد العراق ، فهل استكان العراقيون لهذه الرغبة ؟ وقد أعلن عبد الله بن الزبير نفسه خليفة في بلاد الحجاز وأراد بسط سلطانه على بلاد العراق فهل استجاب أهل العراق لبيعته ؟

سعى المختار الى أن ينال حظه من المجد والنفوذ ، مثله في ذلك مثل رجالات العرب في ذلك الحين الذين شعر المختار أنه يدانيهم في مركزهم ، مثل عبد الله بن الزبير وعبد الله بن خازم ونجدة بن عامر الحنفي ومروان بن الحكم ، وغيرهم . واعتنق المختار مبادئ الشيعة ، وآمن أن العلويين أصحاب الحق الشرعي في الخلافة ، ورأى أن يقيم خلافة علوية يتولاها علوي وهو محمد بن الحنفية . ولذا كانت بلاد العراق هي الأرض الصالحة التي يذر فيها المختار بذوره .

أما بلاد العراق ، فكانت تهدف دائما كما ذكرنا الى تحقيق نوع من الاستقلال الذاتى وأن تكون لها شخصية مستقلة مميزة ، وأن تكون لبلاد العراق مركز الصدارة بين الأمصار الاسلامية ، وتصبح قلب العالم الاسلامى . كما أن معظم أهل العراق قد اعتنقوا مبادئ الشيعة وصاروا لا يرضون عن آل على بن أبى طالب بدىلا ، فقد نقل على عاصمة الدولة الى العراق ، وظلت الكوفة الحاضرة طوال خلافة على وابنه الحسن . وتطلعت بلاد العراق الى زعيم جديد يعيد الى العراق مجدها الضائع ، فتقوم خلافة علوية فى العراق ، وتنتقل العاصمة الى الكوفة . ووجدت بلاد العراق فى شخص المختار الزعيم المنشود الذى يحقق آمالها ، فهرعت الى تأييده ، ومنابطة الأمويين والزييريين على السواء .

قبل قدوم المختار الى العراق ، كان على أهل العراق أن يختاروا بيعة مروان بن الحكم خليفة الشام أو بيعة عبد الله ابن الزبير خليفة الحجاز . وقد كرهوا فى الحقيقة البيعة للخليفين ، ففى بيعتهم لابن الزبير اعترف منهم ببقاء العاصمة فى الحجاز ، فقتل الحالة كما كانت فى عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وفى بيعتهم لمروان استمرار للحكم الأموى فى العراق ، ذلك الحكم الذى عانوا منه الكثير على يد زياد بن أبيه وابنه عبيد الله . ورأى العراقيون أن يختاروا أهون الشرين ، ولا شك أن البيعة لابن الزبير أهونهما ، فسيعتبر ابن الزبير بيعتهم له تفضلا يمتنون به عليه ، بينما يعتبر مروان بيعتهم أمرا واجبا طبيعيا لأن خلافته تعد استمرارا للدولة الأموية .

بعث مروان قائده عبيد الله بن زياد على رأس جيش ليقاتل زفر بن الحارث ، الذي كان عاملا لابن الزبير على قنسرين ثم هرب من مروان الى قرقيسيا . وطلب مروان من ابن زياد أن يقتل زفر ومنأه بأنه سيستعمله على كل ما يفتحه ، وأمره بأنه اذا فرغ من زفر توجه الى العراق لينتزع من عمال ابن الزبير . وفي طريق ابن زياد الى قرقيسيا علم بوفاة مروان وتولية ولده عبد الملك ، الذي أرسله اليه يقره على ما ولاه عليه أبوه مروان ، فسار ابن زياد حتى لقي التوايين عند (عين الوردة) وكانوا قد خرجوا لقتال ابن زياد وقتله لأنه هو الذي قتل الحسين ، وانتهت معركة عين الوردة بهزيمة التوايين وقتل معظمهم كما ذكرنا ، أما ابن زياد فقد لقي حتفه على يد المختار كما نبئنا بعد حين .

أرسل مروان في عام ٦٥ هـ جيشين الى العراق ، أحدهما بقيادة ابن زياد ، والثاني بقيادة حبيش بن دلجة لاستعادة المدينة المنورة من جابر بن الأسود نائب ابن الزبير ، وشعر عامل ابن الزبير بالبصرة ، وكان الحارث بن أبي ربيعة ، بحرج الموقف فبعث بجيش استطاع أن يشغل حبيش بن دلجة عن فتح المدينة ، وولّى ابن الزبير عباس بن سهل على المدينة وأمره بقتال ابن دلجة ، واستطاع الزبيريون القضاء على الجيش الأموي (١) .

وقد استفاد المختار من هذه الأحداث جميعا ، فقد كان انقسام كلمة الأمويين وتفرقهم قد أخطر تفكيرهم في السيطرة

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٦٠ .

على العراق ، الأمر الذى مكّن المختار من أن يسط نفوذه على هذه البلاد ، فقد لاقى المختار الجيش الأموى بقيادة ابن زياد ، بعد أن أصبح المختار الرجل الأول فى العراق وصاحب السيادة الحقيقية فيه . كما أن العصبية القبلية بين القيسية واليمينية قد جعلت ابن زياد لا يلقى المختار فى الوقت المناسب بعد قضاء الأمويين على التوايين فى معركة عين الوردة ، فقد شغلت الحروب القبلية ابن زياد عن لقاء المختار مدة عام كامل ممّا أتاح الفرصة للمختار للقاء الأمويين وقد استعد استعدادا كاملا ، وأن يتمكن من القضاء على الجيش الأموى ، ويلقى ابن زياد حتفه فى هذه المعركة .

استفاد المختار من قضاء الأمويين على حركة التوايين ، فقد كان التوابون يعتمدون فى حركتهم على الشيعة ، فى الوقت الذى سعى فيه المختار الى الاستعانة بالشيعة فى حركته . واصطدمت الحركتان لوجود كثير من وجوه التشابه ، وأصبحت بلاد العراق لا تتسع لهما معا ، وكان لابد أن تتخلى أحدهما للأخرى الميدان . ولم يكن المختار يستطيع أن يصطدم بالتوايين صداما مسلحا ، وحاول جهده أن يصرف الشيعة عن التوايين بالوسائل السلمية . ولذا أراحه الأمويون — بغير قصد منهم — من منافس كبير .

أمّا الصراع العنيف الذى دام حينا بين الأمويين والزييريين ، فقد شغل عبد الله بن الزبير عن تركيز جهوده للقضاء على المختار ،

واضطر الى مهادنته ومداراته ، ويروى ابن الأثير (١) أن المختار « كان قد وادع ابن الزبير ليكف عنه ليتفرغ لأهل الشام » . فكان ابن الزبير يدرّك تماما أن المختار أقل خطرا من الأمويين ، فنفوذ المختار نفوذ محدود لا يقاس بنفوذ الأمويين الذي هو مظهر لسيادة دولة قوية قامت منذ سنة ٤٠ هـ وكانت قائمة فعلا ، وتعتبر ابن الزبير خارجا عن طاعتها يجب القضاء عليه .

أول صدام عربي بين المختار وجيش الأموي :

يرى المؤرخ الألماني (فلهوزن) (٢) أن المختار كان قد سعى الى فرصة تهيب له القتال ضد أهل الشام ، سعى اليها في بلاد العرب ، ولكنه وجدها — دون أن يتوقعها — في بلاد العراق . اعتقد الخليفة الأموي مروان بن الحكم أن الأمور قد استقرت له في بلاد الشام ، فبعث بجيشين ، أحدهما الى المدينة المنورة ، وقد مرّ بنا كيف انتهى أمره بالهزيمة . أما الجيش الثاني فقد وجهه مروان الى العراق بقيادة عبيد الله بن زياد ، وأمره باتتاع الكوفة كما أمره أن ينهبها ثلاثة أيام . وكان لقاء ابن زياد بالتوايين في معركة عين الوردة عرضا وبدون قصد ، فقد فتوحىء التوابون بقدوم ابن زياد ، وكانوا يعملون على الأخذ بشأ الحسين من قتلته ، ففوجئوا بقدوم قاتل الحسين الى مصرهم .

(١) الكامل ج ٤ ص ١٠٤ .

(٢) الخوارج والشيعة ص ٢١٧ .

وانشغل ابن زياد عن مهمته الأولى ، وهى استرداد الدولة
الأموية لبلاد العراق ، بقتال التوابين ، ثم انشغل بالعصية
القبلية فى اقليم الجزيرة فاضطر الى قتال قبيلة قيس عيلان ،
وكان زفر بن الحارث قد أعلن ولاءه لابن الزبير ، فقاتله عاما
كاملا ، توفى فى خلاله الخليفة مروان ابن الحكم وخلفه ابنه
عبد الملك الذى أقرّ ابن زياد على ما كان أبوه قد ولاه ، وأمره
بالمضى فى تحقيق مهمته ، واسترداد العراق . وشعر ابن زياد
بعجزه عن اخضاع زفر ومن معه من القيسيين ، فتقدم الى
مدينة الموصل .

كان يتولّى حكم الموصل وقت ذاك عبد الرحمن بن سعيد
عامل المختار ، فبعث هذا الى المختار يخبره باقتراب ابن زياد
من الموصل ، وأنه قد اضطر الى الانسحاب منها الى تكريت .
فدعا المختار يزيد بن أنس الأسدى وأمره بنجدة عبد الرحمن ،
وأمره على جيش قوامه ثلاثة آلاف من الفرسان لانتقاذ الموصل
من هجوم ابن زياد .

والتقى الجمعان فى ٩ ذى الحجة سنة ٦٦ هـ (٧ يوليو
سنة ٦٨٦ م) عند الفجر قرب الموصل ، وكان جيش أهل الشام
ضعف جيش المختار ، ومع ذلك فقد انتصر جيش المختار بعد قتال
دام يومين . وكان يزيد بن أنس قد خرج للقتال وهو مريض ، فقاد
المعركة وهو مشرف على الموت ، وما لبث أن فارق الحياة . فتولّى
أمر الجيش بعده القائد ورقاء بن عازب الأسدى الذى ما لبث
أن جمع أصحابه وقال لهم : ماذا ترون ، انه قد بلغنى أن ابن زياد

قد أقبل اليكم في ثمانين ألفا ، وانما أنا رجل منكم فأشيروا
على فاني لا أرى لنا بأهل الشام طاقة على هذه الحال ، وقد هلك
يزيد وتفرق عنا بعض من معنا ، فلو انصرفنا اليوم من تلقاء
أنفسنا قالوا انما رجعنا عنهم لموت أميرنا ولم يزلوا لنا هائبين ،
وان لقيناهم اليوم كنا مخاطرين ، فان هزمونا اليوم لم تنفعنا
هزيمتنا اياهم بالأمس ، فقالوا : نعم ما رأيت . وتفرق جند
جيش المختار (١) .

وعلم المختار وأهل الكوفة بما حلّ بهذا الجيش ، وانتشرت
في الكوفة اشاعة تقول ان الشيعة هزمهم أهل الشام « فأرجف
الناس بالمختار وقالوا ان يزيد قتل ولم يصدقوا أنه مات » (٢) .
ولكن المختار لم يستسلم الى الأحداث ، فظل ثابت الجنان ، وأصرّ
على انزال الهزيمة بالجيش الأموي ، فأسرع في اعداد جيش جديد
تألف من سبعة آلاف جندي ، وولّى على قيادته قائده العربي
المشهور ابراهيم بن الأشتر ، وأمر بأن يسرع السير الى ميدان
المعركة لاتخاذ الموصل .

موقف العرب أشرف الكوفة من صراع المختار والأمويين :

في هذه الظروف الحرجة ، ازدادت جرأة العرب الأشراف على
المختار ، وكانوا يعتبرون أنفسهم قادة (حزب العصبية العربية) ،

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٩٧ .

(٢) المصدر السابق .

وأخذوا يعتبرون على المختار أنه تأمر عليهم بغير رضى منهم ،
ولا اذن من محمد بن الحنفية ، وأنه أدنى مواليتهم فحلبهم على
الدواب وأعطاهم وأطعمهم من فيئهم ، فسلبهم بذلك حقوقهم ،
لأنهم أعتقوا عبيدهم على أمل أن يتقربوا من الله سبحانه وتعالى
فينالوا ثوابه ، ولكن المختار منحهم حقوقهم وجعلهم شركاء
لأسيادهم القدامى فى الفىء ، ثم جند هؤلاء الموالى فأصبحوا
عدوة جيشه ، وحارب بهم العرب .

هذه هى الاتهامات التى وجهها العرب الأشراف فى الكوفة
الى المختار ، وهى تمثل صورة من صور العصبية بين العرب
والموالى فى ذلك العصر . وقد كان المختار فى نظر الموالى محرراً
لهم من عبوديتهم ، ومنقذا لهم من الظلم والاستبداد . بينما كان
فى نظر الأشراف العرب سالباً لحقوقهم التى أعطاهها للموالى .
والحقيقة أن المختار أعاد الى الموالى حقوقهم المسلوبة ، وعمل
على تحسين أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية ، وكان على حق فى
كل ما فعله . وحفظ التوازن بين العرب والموالى ، وكان بمثابة
(صمام الأمن) الذى أجّل انفجار الموالى الى حين ، وتمثل هذا
الانفجار فيما بعد فى سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية .
انتهز العرب الأشراف فرصة خلو الكوفة من جند المختار ،
 وخروج الجيش الى الموصل ، وبدأوا حركة تمرد وعصيان ،
 وكان الشيخ العجوز شيبث بن ربيع التميمى يتحدث باسم هؤلاء
العرب الأشراف ، فذهب الى المختار يتحدث معه فى موقفه من
كل من العرب والموالى . وكانت الظروف حرجة ، فوعد المختار

بالنظر في مظالمهم ومطالبهم ، وتعهد بالعمل على ارضائهم كلما استطاع الى ذلك سبيلا . وسأله المختار : ان أنا تركت لكم مواليتكم وجعلت فيكم فيكم ، أتقاتلون معي بنى أمية وابن الزبير ، وتقطعون على الوفاء بذلك عهد الله وميثاقه وما أطمئن له من الايمان ؟ . ورفض الأشراف العرب الموافقة على اقتراح المختار ، وأبوا الا المضي في موقفهم العدائي ، فقد دفعتهم كراهيتهم لانصاف مواليتهم الى كراهية منصفهم المختار ، ورأوا أن ينتهزوا فرصة وجود المختار بعيدا عن جنده للقضاء على المختار ، ليعود اليهم زمام مواليتهم ، وظنوا أن رغبة المختار في المهادنة والمهادنة ، نتيجة لموقفه الحرج ، وأنه حتما سيتحرر من وعوده حينما يشعر بالطمأنينة . وفي الحقيقة كان هؤلاء العرب والأشراف على غير حق ، فقد كانوا يشغلون المختار بموقفهم العدائي عن عدوهم وعدوه الجيش الأموي ، وكانوا — كما يرى فلهوزن (١) — يخونون العراق لصالح أهل الشام .

ظهر من بين الأشراف العرب ، رجل ذو عقل مستنير هو عبد الرحمن بن مخنف ، أدرك حقيقة الموقف ، وتفهم الأمور على حقيقتها ، فأعلن معارضته لقرار اخوانه الأشراف ، وأخبرهم أن المختار لم يناصره العبيد والموالي فحسب ، بل يؤيده شجعان العرب وفرسانها ، وكلهم صف واحد وكلمة واحدة « فهو مقاتلكم بشجاعة العرب وعداوة العجم — أي الموالى الفرس —

(١) الخوارج والشيعة ص ٢١٩ .

وان انتظرتموه قليلا كفيتموه بقدم أهل الشام أو بمجيء أهل
البصرة ، فتكونوا كفيتموه بغيركم ولم تجعلوا بأسكم بينكم » .
ولكن ابن مخنف ^(١) لم ينجح في اقناع غيره من العرب الأشراف
بهذا الرأي ، فاضطر الى أن ينزل عند رأى الأغلبية .

ولما مضى ابراهيم بن الأشتر للقاء جيش الشام ، احتل هؤلاء
الأشراف المراكز الرئيسية في الكوفة ، وحصروا المختار في القصر
والمسجد وقطعوا الاتصال بينه وبين الخارج . ولكن المختار أفسد
عليهم تدبيرهم ، فاقترح عليهم أن يعثوا من قبلهم وفدا الى
محمد بن الحنفية ، ويرسل هو من قبله وفدا اليه ، ويشترك
الوفدان في سؤال ابن الحنفية عن موقفه من المختار ومدى تأييده
للمختار . وكان هدف المختار من هذا المختار كسب الوقت ،
فكان كما روى ابن الأثير ^(٢) « يريد أن يرثهم بهذه المقالة حتى
يقدم عليه ابراهيم بن الأشتر » .

وبعث المختار من فوره برسول أمره أن يهرع الى ابراهيم
ابن الأشتر ويخبره بكل ما حدث ويطلب منه العودة في الحال .
ولم يحتج الرسول الا ليوم واحد ليصل الى ساباط على نهر
دجلة وابلاغ ابراهيم بالأمر . وفي مساء اليوم التالي كان ابراهيم
وجنوده في الكوفة يعسكرون بها الى قريب من مسجدها .

وفي صباح الأربعاء ٢٤ من ذى الحجة سنة ٦٦ هـ ، استؤنف
القتال الذي وقع من قبل في شهر ربيع . وتداخلت الأضداد بين

(١) وهو من أقرباء أبي مخنف الراوى المعروف .

(٢) الكامل ج ٤ ص ٩٧ .

الأحزاب ، وكل منها يحاول ضمّ العرب الى صفوفه ، وانضم بعض الشيعة العرب الذين كانوا حتى ذلك الوقت في صف المختار ، الى صفوف الأشراف . نخص منهم بالذكر القارىء الشهير رفاعة ابن شداد القتياني ، وهو صديق قديم لسليمان بن صرد ، بيد أنه انزعج انزعاجا شديدا حينما سمع صيحة الأشراف : « يا لثارات عثمان ! » تدوى في جانب ، بينما كانت صيحة الشيعة تدوى في الجانب الآخر : « يا لثارات الحسين ! » . فاندفع يائسا الى هوة الموت . بينما وقف أحد زعماء العرب الأشراف موقفا وسطا ، وإن كان يدل على الحيرة والتردد ، وهو عبد الله بن قراد الخثمي ، فقد آذاه أن يسفك دم أخوانه من العرب الأشراف ، ولكنه ظل مخلصا للمختار ، ورأى أن يقف على الحياد دون الاشتراك في هذا الصراع . ونرى عربيا ثالثا يتخذ موقفا مخالفا فقد انضم ابن زعيم الأشراف شبت بن ربيع الى المختار ، وقاتل جند آبيه بشجاعة وعناد .

وقد اتخذ الأشراف وقبائلهم مراكزهم في ثلاثة مواضع من الكوفة ، فاتخذت مضر موضعها في الكناسة ، وأهل اليمن في جبانة السبيع (المتصلة بالسبخة) ، ووقفت ربيعة في الخارج عند السبخة . وحمل وطيس القتال في جبانة السبيع حيث وقف المختار بنفسه يقاتل أهل اليمن ، وكان هؤلاء من قبيلة همدان ، لأن مذبح — واليهم ينتسب ابراهيم بن الأشتر — اعتزلت القتال . وكانت الضربة الحاسمة حينما قام بنو شبام فأتوا القوم من ورائهم وكانوا من بنى جلدتهم ، أعنى من قبيلة همدان ، واستطاع ابراهيم

(الذي لم يشأ أن يقاتل أهل اليمن) أن يمزق شمل مضر بغير صعوبة ، وتشنت شمل ربيعة قبل أن يشهروا سيفاً . وكان أهل اليمن فريقين : فريق العصبية العربية ، وفريق الشيعة — أشد القوم قتالا ، على أنهم أقوى القبائل في الكوفة عدداً وبأساً (١) . كان الأمويون ، وخاصة قتلة الحسين منهم ، سبب هذه الفتنة ، فقد حرّضوا أهل الكوفة على الثورة على المختار ، فيروى الدينوري (٢) : « وان شمر بن ذى الجوشن وعمر بن سعد ومحمد ابن الأشعث وأخاه قيس بن الأشعث قدموا الكوفة ، عندما بلغهم خروج الناس على المختار وخلعهم طاعته ، وكانوا قد هربوا من المختار طول سلطانه ، لأنهم كانوا الرؤساء في قتال الحسين ، فصاروا مع أهل الكوفة ، وتولّوا أمر الناس ، وتأهّب الفريقان للحرب ، واجتمع أهل الكوفة جميعاً في جبانة الحشاشين ، وزحف المختار نحوهم ، فاقتتلوا ، فقتل بينهم خلق كثير فنادى المختار : يا معشر ربيعة ألم تبايعوني ، فلم خرجتني على ؟ ! قالت ربيعة : قد صدق المختار لقد بايعناه وأعطيناه صفقة إيماننا فاعتزلوا وقالوا لا نكون على واحد من الفريقين وثبت سائر القبائل فقاتلوا ، وان أهل الكوفة انهزموا ، وقد قتل منهم نحو الخمسمائة رجل ، وأسر منهم مائتا رجل ، فهرب أشراف الكوفة ، فلحقوا بالبصرة ، وبها مصعب بن الزبير ، فانضمّوا إليه . » وهكذا أسدل الستار عن مرحلة من مراحل صراع المختار

(١) فلهوزن : الخوارج والشيعة ص ٢٢٢ .

(٢) الأخبار الطوال ص ٣٠٦ .

والعرب أشراف الكوفة ، و انتهت بانتصار المختار . وقد قطع المختار ذيل الحية لكنه لم يحطم رأسها . فقد هرب كثير من الأشراف الى البصرة وانضموا الى مصعب بن الزبير ، وأخذوا يحرضون مصعبا على الدوام على قتال المختار ، ولعب الأشراف كما سنرى في الفصل القادم دورا كبيرا في إثارة مشاعر العداء بين الحركة المختارية والحركة الزبيرية ، فتناست الحركتان عداءها للدولة الأموية واشتبكتا في صراع عنيف انتهى بانتصار الحركة الزبيرية . ولكن خرج الزبيريون من المعركة بجراح كثيرة أليمة فالتقوا بجيوش الدولة الأموية . وقد أنهكهم صراع المختار ، فدارت الدائرة على الحركة الزبيرية ، وعاد الأشراف في الكوفة الى الخضوع مرة أخرى للحكم الأموي الذي كانوا يناهضونه بالأمس ، فكانوا من الخاسرين .

المختار يقضى على الأمويين ثلثة أحسين :

رأى المختار أن يعجل بالقضاء على أعدائه بالكوفة حتى لا يكونوا بمثابة (طابور خامس) فيقع بين نارين ، في الداخل والخارج . فقد نجح عبيد الله بن زياد في الاستيلاء على الموصل ، وأخذ يستعد للتقدم نحو الكوفة لينزعها من المختار . وتحالف المزيون واليمينيون لأول مرة ، واتفقوا على أن يجد كل فريق منهم صاحبه اذا هاجمه المختار . وعلم المختار بهذا التحالف فرأى أن يعجل بقتالهم ، وسأل

قائده ابراهيم بن الأشتر أى الفريقين — المضرين أم اليميين —
يختار لقتاله ، ولكن ابن الأشتر فوّض المختار فى أمر الاختيار
بين مضر واليمن « فنظر المختار وكان ذا رأى فكره أن يسير
— أى ابن الأشتر — الى قومه فلا يبالغ فى قتالهم ، فقال :
سر الى مضر بالكناسة وعليهم شيث بن ربيع ومحمد بن عمير
ابن عطار ، وأنا أسير الى أهل اليمن » (١) .

وفادى منادى المختار ، أن من أغلق بابه فهو آمن الا من
اشترك فى دم آل محمد ، فاستثنى من الأمان من اشتركوا فى قتل
الحسين ، وأطلق العنان للشيعة لينتقموا من قتلة الحسين بعد أن
كان قد منع هذا الانتقام .

والتقى جيش المختار بأنصار الأمويين بمكان يعرف بجبانة
السبيع يوم الأربعاء ٢٤ من ذى الحجة سنة ٦٦ هـ . وأمر المختار
رجاله بتبّع قتلة الحسين ، فقال : اطلبوا لى قتلة الحسين فانه
لا يسوغ لى الطعام والشراب حتى أظهّر الأرض منهم وأنهى
المضر منهم (٢) .

صاح جند المختار (يا لثارات الحسين) ، وصاح الجند
الأمويون (يا لثارات عثمان) ، وكان هذا النداء الأخير سببا
لتفرق بعض أنصار الأمويين ، وفى مقدمتهم رفاعه بن شداد
الذى قال « ما لنا ولعثمان ، لا أقاتل مع قوم ييغون دم

(١) الطبرى ج ٤ ص ٥٢١ .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٥٢٩ .

عثمان» (١) . فقد كان معظم أهل العراق يكرهون عثمان وسيرته فيهم ، نتيجة ما لاقوه من عنت ولاة عثمان من بنى أمية . وقد استطاع أنصار المختار أن يأسروا خمسمائة رجل في اليوم الأول من المعركة ، واستعرضهم المختار فأخرج منهم من شهد قتل الحسين فأعمل فيهم القتل وكانوا مائتين وثمانية وأربعين رجلاً ، وأطلق سراح باقى الأسرى بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق ألا يساعدوا أعداءه .

بحث رجال المختار عن قتلة الحسين في كل مكان ، وكان كل منهم قد بحث عن مخبأ اختفى فيه عن عيون المختار ، فأخرجهم رجاله من مكانهم ، وكان الموالى كالكلاب البوليسية في تتبع قتلة الحسين وكان جميعهم من العرب ، وكانت النسوة يخبرن عن أزواجهن .

من هؤلاء النسوة ، زوجة خولى بن يزيد الأصبحى ، وهو الذى اجتز رأس الحسين يوم كربلاء ، وكان قد أسرع يختبئ في داره . وقدم أنصار المختار يطلبونه في داره « فخرجت امرأته اليهم ، فقالوا لها أين زوجك ؟ فقالت : لا أدري أين هو . وأشارت بيدها الى المخرج ، فدخلوا فوجدوه . فأقبل المختار نحوهم فاستقبل به فردّوه حتى قتله الى جانب أهله ، ثم دعا بنار فحرقه ، ثم لم يبرح حتى عاد رمادا ثم انصرف عنه ، وكانت امرأته من حضرموت ، وكانت نصبت العداوة حين جاء برأس الحسين » (٢) .

(١) الطبرى ج ٤ ص ٥٢٣

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٥٢٩

نَجَحَ الْمُخْتَارُ فِي قَتْلِ عُمَرَ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ قَائِدِ جَيْشِ الْأُمَوِيِّينَ فِي كَرْبَلَاءَ ، وَأَحْضَرَ الْمُخْتَارُ ابْنَهُ حَفْصَ بْنَ عُمَرَ ، وَأَطْلَعَهُ الْمُخْتَارُ عَلَى رَأْسِ أَبِيهِ وَسَأَلَهُ عَمَّا إِذَا كَانَ يَعْرِفُ مِنْهُ هُوَ صَاحِبُ الرَّأْسِ ، قَالَ : نَعَمْ وَلَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ بَعْدَهُ . فَقَالَ لَهُ : صَدَقْتَ فَإِنَّكَ لَا تَعِيشُ بَعْدَهُ . وَأَمَرَ الْمُخْتَارُ بِقَتْلِ حَفْصَ ، وَوَضَعَ رَأْسَهُ إِلَى جَانِبِ رَأْسِ أَبِيهِ عُمَرَ بْنِ سَعْدَ ، وَأَشَارَ الْمُخْتَارُ إِلَى الرَّأْسَيْنِ وَقَالَ : هَذَا بِحُسَيْنٍ وَهَذَا بِعَلِيِّ بْنِ حُسَيْنَ ، وَاللَّهِ لَوْ قَتَلْتُ بِهِ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ قَرِيشٍ مَا وَفَوْا أُنْمَلَةَ مِنْ أَنْأَمَلَهُ !! (١) .

وَبَعَثَ الْمُخْتَارُ بِرَأْسِ عُمَرَ بْنِ سَعْدَ وَابْنِهِ حَفْصَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ مَعَ رِسَالَةٍ جَاءَ فِيهَا : « لِلْمُهْدِيِّ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ مِنَ الْمُخْتَارِ ابْنِ أَبِي عُبَيْدٍ . أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي نَقْمَةً عَلَى أَعْدَائِكُمْ فَهُمْ بَيْنَ قَتِيلٍ وَأَسِيرٍ وَطَرِيدٍ وَشَرِيدٍ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَتَلَ قَاتِلِيكُمْ وَنَصَرَ مُؤَاوَرِيكُمْ ، وَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكَ بِرَأْسِ عُمَرَ بْنِ سَعْدَ وَابْنِهِ ، وَقَدْ قَتَلْنَا مِنْ شَرِكٍ فِي دَمِ الْحُسَيْنِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ كُلٌّ مِنْ قَدَرْنَا عَلَيْهِ ، وَلَنْ يَعْجِزَ اللَّهُ مِنْ بَقِيٍّ ، وَلَسْتُ بِمَنْجَمٍ عَنْهُمْ حَتَّى لَا يَبْلُغَنِي أَنْ عَلَى أَدِيمِ الْأَرْضِ مِنْهُمْ آدَمِيًّا ، فَارْتَبِطْ إِلَيْهَا أَيُّهَا الْمُهْدِيُّ بِرَأْيِكَ أَتَبِعُهُ وَأَكُونُ عَلَيْهِ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْمُهْدِيُّ وَرَحِمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ » (٢) . وَكَانَ الْمُخْتَارُ يُخْبِرُ النَّاسَ أَنَّهُ إِنَّمَا يَتَّبَعُ قَتْلَةَ الْحُسَيْنِ وَيَنْزِلُ بِهِمُ الْقَتْلَ لِأَمْرِ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ . وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ يَعْتَبِرُ عَلَى الْمُخْتَارِ لِمَجَالَسَتِهِ عُمَرَ بْنَ

(١) الطبري ج ٤ ص ٥٣٣ .

(٢) المصدر السابق .

سعد وتأخيره قتله ، فيينا هو كذلك ، اذ برسولين للمختار يدخلان عليه ، وهما يحملان رأس عمر وابنه حفص ، فلما رآهما ابن الحنفية خرّ ساجدا شكرا لله ، ثم رفع رأسه وبسط كفه ، وقال : اللهم لا تنسى هذا اليوم للمختار وأجزه عن بيت نبيك خير الجزاء ، فوالله ما على المختار بعد هذا عتب .

ويصف الدينوري ^(١) ما أنزله المختار بدور قتلة الحسين من هدم بقوله : « وولّى — المختار — الشرطة كيسان أبا عمرة وأمره أن يجمع ألف رجل من الفعلة بالمعاول وتتبع دور من خرج الى قتال الحسين بن علي فيهدمها ، وكان أبو عمرة بذلك عارفا ، فجعل يدور بالكوفة على دورهم ، فيهدم الدار في لحظة ، فخن خرج اليه منهم قتله حتى هدم دورا كثيرة ، وقتل أناسا كثيرين وجعل يطلب ويستقصي فمن ظفر به قتله » .

قتل المختار كل من اتهم بالاشتراك في مأساة كربلاء ، فقتل نفرا كثيرا من القرشيين ، ونجا بعض الأشراف فهربوا الى البصرة حيث التجأوا الى مصعب بن الزبير ، كما هدم المختار بيت كل من هرب ناجيا من نفسه . هذا ما رواه المؤرخون الأقدمون ، ولكن المؤرخ (فلهوزن) ^(٢) يدافع عن المختار في هذا فيذكر أنه ضمن حماية من خلف هؤلاء الفارون ورائهم من النساء والأطفال والحرم . كما أن المختار نفسه لم يكن أشدّ القوم تنكيلا بهم ، بل قد قتل كثيرون دون علم منه وعلى عكس ما أمر به .

(١) الأخبار الطوال ص ٣٠٠ .

(٢) الخوارج والشيعة ص ٣٢٣ .

موقف البصرة من المختار :

تولّى الدعوة للمختار في البصرة المثنى بن مخزبة العبدي ، وكان من أبطال التوايين في عين الوردة ، وعاد مع فلول التوايين بعد هزيمتهم ، وكان المختار في سجن ولاية ابن الزبير ، فلما خرج المختار من السجن بايعه المثنى سرّا ، وقال له المختار : الحق ببلدك بالبصرة فادع الناس وأسِرْ أمرك . ورحل المثنى الى البصرة وبدأ يدعو للمختار . فلما طرد المختار والى ابن الزبير ابن مطيع من الكوفة ومنع عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام الذي بعثه ابن الزبير ليتولى الكوفة ، خرج المثنى بن مخزبة فاتخذ مسجدا واجتمع اليه قومه ، ودعا فيه الى المختار .

ثم تقدّم مع أنصاره الى مدينة الرزق فعسكر عندها . وبدأوا يحاولون اقتحامها ، ونصبوا السلالم حول الأسوار وتمكنوا من دخول المدينة ، وأقبل أهلها يخلعون طاعة ابن الزبير ، ويبايعون للمختار . وتعجب الأحنف بن قيس زعيم البصرة من موقف الأهالي ، فقال الأحنف لبكر والأزد وللعمامة : ألستم على بيعة ابن الزبير ؟ قالوا : بلى ولكننا لا نسلم أخواننا .

ولكن الناس بعد هذا أقبلوا على بيعة المختار ولم يهتموا بحديث الأحنف رغم منزلته الكبرى عندهم وزعامته لهم منذ زمن ، فقال الأحنف : ما غبت رأيي الا يومى هذا ، انى أتيت هؤلاء القوم ، وخلفت بكرى والأزد ورائى .

وعلم المختار بالموقف الذى وقع منه الأحنف بن قيس من

دعوته ، فبعث اليه برسالة يثنيه عن معارضة له ويهدده ويتوعدده فكان مما قال : « فويل ربعة من مضر ، فان الأحنف مئورد قومه سقر » (١) . وهذه الرسالة توضح ما كان من عصبية جامعة بين ربعة ومضر ، تلك العصبية التي حاول المختار الاستفادة منها كل الفائدة .

ظلت البصرة على ولائها للمختار ، وخاف عبد الله الزبير خليفة الحجاز أن يضيع نفوذه تماما من البصرة كما ضاع بالأمس من الكوفة ، ورأى أن يختار واليا قويا يمثله ويثبته نفوذه الضائع ، فاختار أخاه مصعب بن الزبير ، فبدأ مصعب يعمل على القضاء على نفوذ المختار في البصرة واعتمد على العنصر العربي . وما لبث أن قدم عليه الأشراف العرب من الكوفة وقد هربوا من وجه المختار ، وقد امتلأت نفوسهم حقدا وضعفينة ، فانضموا الى مصعب ، وتكاتفوا على القضاء على سيطرة المختار على البصرة .

المختار يهزم الجيش الأموي ويقتل ابن زياد :

كان الجيش الأموي بقيادة عبيد الله بن زياد قد تهدد الموصل ، وأراد المختار كما رأينا أن ينقذ الموصل فبعث قائده ابراهيم بن الأشتر لصد الأمويين ، ولكن المختار اضطر لاستدعاء قائده ليخمد الثورة التي أعلنها الأشراف العرب في الكوفة ، ونجح

(١) الطبري ج ٤ ص ٥٣٨ .

المختار في القضاء على هذه الفتنة ، وشعر بالاستقرار والهدوء في الداخل مما مكّنه من التفرغ لعدوه ابن زياد .

وبعد موقعة السبيع ، التي أشرنا إليها ، بيومين بعث المختار قائده الباسل ابن الأشتر ، في أواخر ذي الحجة سنة ٦٦ هـ ، لقتال جيش الشام ، وأمره أن يهاجمهم متى لقيهم ، وأن يجد في السير قبل أن يدخل أرض العراق ، وكان ابن زياد قد استطاع بجيشه الكثيف أن يحتل الموصل ، وصحب المختار جيشه الى نهر الفرات ووعدهم بالنصر ، مما رفع روحهم المعنوية وبث الحماسة فيهم .

التقى جيش المختار بجيش الشام عند قرية بارشيا وهي قرية تقع على ضفاف نهر الخازر قرب مدينة الموصل . وكان ابن الأشتر حسن الخط ، فقد تقدّم اليه سرّا أحد قواد ابن زياد وهو عمير ابن الحباب السلمي وعرض عليه الانضمام اليه وخيانة ابن زياد ، ويرجع ذلك الى أن عميرا هذا كان قيسيا ، وكان الأمويون في ذلك الحين يقرّبون الكليبيين اليمنيين ، ويبعدون القيسيين ، وكانت نار الغصية كثيرا ما تشتعل بينهم . وقد صور ابن الأثير (١) الموقف فقال : « وأرسل عمير بن الحباب السلمي وهو من أصحاب ابن زياد الى ابن زياد أن القنى . وكانت قيس كلها مضطغة على ابن مروان — أى عبد الملك — من وقعة مرج راهط ، وجند عبد الملك يومئذ كلبا ، فاجتمع عمير وابن الأشتر فأخبره عمر أنه على ميسرة ابن زياد وواعده أن ينهزم بالناس » .

(١) الكامل ج ٤ ص ١١٠ .

ونفذ عمر بن الحباب خطته وبرّ بوعدده ، فيروى
المسعودي (١) « .. وكان في نفسه ما فعل يقومه من مضر وغيرهم
من نزار يوم هرج راهط ، فصاح : يا لثارات قيس ، يا لمضر ،
يا لنزار . فتزاحمت نزار من مضر وربيعة على من كان معهم في
جيشهم من أهل الشام من قحطان » .

وبدأت المعركة بين الجيش الأموي بقيادة ابن زياد وجيش
ابن زياد في مطلع سنة ٦٧ هـ في أوائل شهر المحرم (أغسطس
سنة ٦٨٦ م) ، واستحث ابن الأشتر جنوده للقتال « وسار على
الرايات يحثهم ويذكر لهم فعل ابن زياد بالحسين وأصحابه وأهل
بيته من السبي والقتل ومنع الماء وحرصهم على قتل ابن زياد » (٢) .
وحمل وطيس القتال وسقطت كثرة من القتلى من الجانبين ،
واستطاع جيش المختار أن يخوز النصر رغم أن عدد جيش الشام كان
يلعب عشرة أضعاف عدد الجيش المختاري ، بفضل مهارة قائدهم ،
وبفضل حماسة الجند لا سيما الشيعة منهم ، وسقط رؤساء
جند الشام قتلى ، فقتل عبيد الله بن زياد قاتل الحسين بن علي ،
وقتل الحصين بن ثمر السكوني الذي حاصر ابن الزبير والكعبة
في أواخر عهد يزيد بن معاوية ، وكان المختار إلى جانب ابن الزبير
أثناء الحصار ، كما قُتل أيضا من كبار قواد الشام شرحبيل بن
ذئب الكلاع ، واحتز ابن الأشتر رأس ابن زياد ثم حرق جثته .

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٤٢ .

(٢) الكامل ج ٤ ص ١١٠ .

وبعد هزيمة جند الشام تتبعهم جند المختار ، فسقط عدد كبير في نهر خازر غرقى .

واستولى المختاريون على كثير من الغنائم . وبعث ابن الأشتر الى المختار يبشره بالنصر العظيم ، وكان المختار مقيما حينئذ في المدائن ، وأرسل اليه أيضا برءوس ابن زياد وقواده . ودخل ابن الأشتر الموصل ، وبعث أخاه — لأمه — عبد الرحمن بن عبد الله ليتولى أمور مدينة نصيبين ، واستطاع منها أن يسيطر على سنجار كما ولت زفر بن الحارث مدينة قرقيسيا ، وحاتم بن النعمان على حران والرها ، وأقام ابن الأشتر في الموصل يحكمها باسم المختار (١) .

وقد علق (فلهوزن) (٢) على انتصار المختار في موقعة خازر على الجيش بقوله : فيينا كانت الحملة الأولى التي أرسلها المختار ، تحت قيادة يزيد بن أنس ، من الفرسان ، لم يكن في الحملة الثانية الا قليل جدا من الفرسان ، أى أنها كانت تتألف من الموالى . وكانوا يضربون بالعمد على الخوذ والدروع التي تحملها جند الشام . وكان المختار في الذروة ، وكان أيضا أمام الهاوية ، فالشيعة العرب من الجيل القديم كانوا لا يثقون به ، حتى اعتزلوه جانبا ، فلم يجد أمامه الا جماعة الموالى ، فانهاز الى جانبهم ضد حزب العصية العربية . لقد كان هؤلاء

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١١١ .

(٢) الخوارج والشيعة ص ٢٢٤ .

الموالى شديدي الاعجاب بقوة شعوره بذاته والصورة الرائعة
التي ظهر عليها هذا الشعور .

وضع المختار رأس ابن زياد في سلة وبعث بها الى محمد
ابن الحنفية وعلى بن الحسين وسائر بنى هاشم في الحجاز .
فلما رأى على بن الحسين رأس عبيد الله بن زياد ترحم على
الحسين وقال : أتى عبيد الله بن زياد برأس الحسين وهو
يتغذى ، وأوتيت برأس عبد الله ونحن نتغذى . ولم يبق أحد
من بنى هاشم الا قام خطيبا ، وأطرب في الثناء على المختار والدعاء
له وجميل القول فيه . وكان ابن عباس يقول : أصاب بئارنا ،
وأدرك وترنا ، وآثرنا ووصلنا ، فكان يظهر الجميل فيه للعامة .
ويروى اليعقوبي ^(١) أن على بن الحسين لم ير ضاحكا يوما قط
منذ قتل أبوه الا في ذلك اليوم .

ثم بعث المختار الى ابن الحنفية برسالة جاء فيها : انى بعثت
أنصاركم وشيعتكم الى عدوكم ، فخرجوا محتسبين أسفين
فقتلوهم ، فالحمد لله الذي أدرك لكم الثأر ، وأهلكهم من كل
فج عميق ، وغرقهم في كل بحر ، وشفى الله صدور قوم مؤمنين .
وأرفق المختار رسالته الى ابن الحنفية بثلاثين ألف دينار ،
فخر ابن الحنفية ساجدا ودعا للمختار وقال : جزاه الله خير
الجزاء ، فقد أدرك لنا ثأرنا ، ووجب حقه على كل من ولده
عبد المطلب بن هاشم ، اللهم واحفظ ابراهيم بن الأشتر سعيه

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ٦ .

وانصره على الأعداء ، ووقفه لما تحب وترضى ، واغفر له في الآخرة والأولى .

ويروى المرزباني بإسناده عن جعفر الصادق أنه قال : ما اكتحلت هاشمية ولا اختضبت ولا رتؤى في دار هاشمي خمس حجج حتى قتل عبيد الله بن زياد . وعن فاطمة بنت علي : ما تحفت امرأة منّا ، ولا أجالت في عينها مرودا ، ولا امتشطت حتى بعث المختار رأس عبيد الله بن زياد (١) .

سطع نجم المختار بعد معركة الخازر وقضائه على الجيش الأموي ، ومقتل قائده عبيد الله بن زياد ، واستفاد المختار من هذا النصر فائدة عظيمة ، فعلا صيته في أرجاء العالم الاسلامي ، وتنفست الشيعة الصعداء ، فقد أخذ بثأرها ، وشفى غليلها ، ونحن نعرف حرص العرب دائما على الأخذ بالثأر . وقد آلم مقتل الحسين بن علي جميع المسلمين ، شيعة أو سنية ، واعتبروه شهيدا . وبرّ المختار بوعده الذي قطعه للشيعة ، فقد تعهد بالقضاء على قتلة الحسين جميعا ، كما نال تأييد محمد بن الحنفية وسائر بني هاشم . وكان العراقيون يكرهون عبيد الله بن زياد كراهية شديدة نتيجة سياسة القتل والتعذيب التي اتبعها خلال حكمه لبلاد العراق ، فشعروا بكثير من الارتياح لمقتله وحيدوا ذلك للمختار ، ولو لم يكونوا من أنصاره . وكانت موقعة خازر خير سلاح للدعاية لحركة المختار ، فقد سلطت جميع الأضواء على المختار .

(١). علي بن الحسين الهاشمي النجفي : محمد بن الحنفية ص ١٣٥ .

ولم يبق أمام المختار لتأمين نجاحه واستقلاله الا طرد الزيريين من البصرة ، وكانوا أصحاب الحول والقوة في الجنوب . كما أن عبد الله بن الزبير شعر بعد قضاء المختار على الجيش الأموي ، أن المعركة الفاصلة بينه وبين المختار قد حان موعدها ، وبدأ كل من الفريقين ، المختاريين والزيريين ، يستعدّ للوثوب بالفريق الآخر ، ويضربه الضربة القاضية التي لا يرجو الحياة من بعدها . فبعث عبد الله بن الزبير أخاه مصعبا واليا على البصرة ليراقب أعمال المختار عن كثب مراقبة شديدة ، وقد كان الأشراف الكوفيون يستنجدون بمصعب ويستحثونه على قتال المختار ، ويهيمون له أسباب الفتح ، ويقولون ان المختار يودّ القضاء على النفوذ العربي واستبداله بالنفوذ الفارسي .

وقد تتساءل لماذا لم يبعث خليفة الشام الأموي عبد الملك ابن مروان جيشا أمويا آخر لقتال المختار بعد سحق جيش عبيد الله بن زياد ؟ ويجب المؤرخ فلهوزن ^(١) على هذا السؤال ، فيذكر أنه كان لابد أن يمضى زمان طويل قبل أن يستطيع عبد الملك أن يستأنف المهمة التي فشل فيها عبيد الله بن زياد ، أعنى باخضاع العراق الذي كان يحكم جزء منه مصعب مستقلا بعض الاستقلال عن أخيه . وكان على عبد الملك أن يشتغل بمشكلات في الداخل ، لأن ناقل بن قيس بدأ يتوثب من جديد . ولكن الذي عاق عبد الملك هو بنوع خاص أن الروم خرقوا السلام ، وأخذوا يجرسون الجراجمة في جبال اللكام على العرب .

(١) تاريخ الدولة العربية ص ١٨٢ .

موقف المختار من حزب الشيعة وبني هاشم

حزب الشيعة قبيل قتل المختار الى العراق - الشيعة
بالعراق تحالف المختار - تشيع الموالي أنصار المختار -
بين المختار ومحمد بن الحنفية وبني هاشم *

الفصل السابع

موقف المختار من حزب الشيعة وبني هاشم

الشيعة بالعراق تحالف المختار :

ركنت الشيعة الى الهدوء منذ مقتل الحسين بن علي ، وطوال خلافة يزيد بن معاوية ، نتيجة السياسة العنيفة التي اتبعها عبيد الله ابن زياد والى العراق من اسراف في القتل والتعذيب ، حتى اذا انتهت خلافة يزيد بموته ، أسرعت الشيعة تطرد ابن زياد من العراق ، فخرج خائبا نادما الى الشام . وبدأت هي تجمع شملها وتوحد صفوفها للعودة الى الثورة ونضال الدولة الأموية . واستطاع عبد الله بن الزبير أن يمد نفوذه الى العراق ، ولكن الشيعة وقفت من ولايتها موقفا سلبيا فلم تعلن تأييدها لها ، وباتت تترقب الفرصة للوثوب .

ثم ظهر حزب (التوايين) وهم فريق من الشيعة شعروا بما ارتكبوه في حق الحسين بن علي ، وتخليهم عن نصرته مما أدى الى مصرعه ، فندموا على ما فعلوا وأعلنوا توبتهم ، ورأوا أن الله لا يقبل توبتهم الا اذا أخذوا بثأر الحسين بن علي والتفت سائر

الشيعة وغيرهم من العراقيين الذين يعظمون على العلويين والشيعة ،
حول التوايين . وشاءت الظروف أن يقدم عبيد الله بن زياد على
رأس جيش أموى بعثه الخليفة الأموى مروان بن الحكم لينتزع
بلاد العراق من أيدي ولاة عبد الله بن الزبير . ودارت معركة
عين الوردية بين التوايين والأمويين انتهت بهزيمة التوايين ومقتل
زعيمهم سليمان بن صرد .

قبل المعركة ، دارت مفاوضات بين مندوبي التوايين والأمويين ،
لحقن دماء المسلمين ، فلم يصلوا الى نتيجة حاسمة ، لأن التوايين
أصرّوا أولا على خلع عبد الملك بن مروان — وكان قد خلف
أباه مروان بعد موته — وطالبوا ثانيا بتسليم عبيد الله بن زياد ،
ولم يتساهلوا الا في طرد آل الزبير ودعاتهم من العراق ، على أن
يكون حق الخلافة لآل بيت النبي (١) .

وكان المختار يعدّ نفسه دائما ليكون زعيم الشيعة ، فيجمعهم
ويقودهم الى النصر ، فيأخذ بثأرهم ، ويناهض عدوهم . فقد
روى أن المختار لقي معبدا الجدلي فقال له : يا معبد ان أهل
الكتب ذكروا أنهم يجدون رجلا من ثقيف يقتل الجبارين وينصر
المظلومين ويأخذ المستضعفين ووصفوا صنعة فلم يذكروا صفة
الا وهي في (٢) .

خرج المختار من الحجاز مفارقا عبد الله بن الزبير نابذا طاعته ،

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٣١١ .

(٢) الحديدي : رسالة أخذ الثار وشرح النوح ج ١ ص ١١٠ .

قاصدا العراق ليصبح بطل الشيعة وزعيمها . وكان قبل رحيله الى العراق ، قد تحرّى أخباره من القادمين منه الى الحجاز ، وكلّما قابل رجلا وهو في طريقه الى بلاد العراق سأل عن أخبارها ، فأخبره أحدهم أن بلاد العراق كسفينة بدون ملاح ، فعزم المختار على أن يكون هو الملاح الذي يقبض على دفة السفينة بيد قوية ويوجّهها الى شاطئ الأمان .

ولكن ما كاد المختار يصل الى العراق حتى وجد ملاحا آخر سبقه الى السفينة ، فقد بادر سليمان بن صرد الى الشيعة فجمعهم حوله وتزعمهم ، وشعر المختار بالمرارة وبدأ يشبط همّ الناس عن الالتفاف حول ابن صرد مدّعيًا جهله بالأمور العسكرية وضعفه في قيادة الجند . ورأى المختار أن يدعم موقفه ، ويرجّح كفته على كفة ابن صرد ، فأعلن أنه يدعو لابن الحنفية وأنه وزيره وأمينه ، فانقسم التوابون على أنفسهم ، فئة تدعو لسليمان وفئة تدعو للمختار . فكان هذا الانقسام ممّا سهّل على الدولة الأموية ضرب سليمان وأتباعه ضربة قاضية ، فخلا الجو للمختار (١) .

كان قتل الحسين بن عليّ سلاحا ذا حدّين وضعته الدولة الأموية في أيدي أعدائها (٢) . وكان لهذا السلاح أثره العاجل في تمزّق مثلث يزيد بن معاوية وانهلال الدولة الأموية في عهد الخليفين معاوية الثاني ومروان بن الحكم . وأصبح الأخذ بشأ

(١) البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٠٧ .

(٢) Muir : The Caliphate, P. 324 .

الحسين شغل أهل العراق الشاغل ، فقد اعتبروا أنفسهم مسئولين أمام الله والمسلمين ، عن دماء الحسين وآله المسفوكة في كربلاء بالعراق . وحاول عبد الله بن الزبير أن يستخدم سلاح الأخذ بثأر الحسين في بداية الأمر ، ولكنه أخفق تماما ، قلم تؤمن شيعة العراق بصدق مقالته ، وأدركت أن ابن الزبير إنما يناضل الدولة الأموية من أجل تحقيق أغراضه السياسية وحماية خلافته التي أقامها في الحجاز . كما أيقنت أن ابن الزبير لن يهتم بثأر الحسين حينما ترك ولاته — بعد امتداد النفوذ الزبيري الى العراق — قتلة الحسين يمرحون في الكوفة والبصرة في حرية تامة .

أما المختار بن أبي عبيد ، فقد أدرك منذ اللحظة الأولى أهمية ذلك السلاح ، أي الأخذ بثأر الحسين . وكان قد سبقه التوابون الى الثورة من أجل الغرض نفسه ، وأعلن للشيعه أن ابن سرد غير جدير باستخدام هذا السلاح ثقلة خبرته ودرايته بالحرب والسياسة .

كان المختار على دراية تامة بنفسية الشيعة بالعراق ، فرأى أن يثير كامن عواطفهم ، واستأجر نوائح يأمرهن بالخروج الى طرقات الكوفة ، ينوحن ويولولن فيثرن آلام الشيعة ، ويعدوهن تقسيًا لمرحلة الأخذ بالتأثر (١) . ثم بدأ المختار حملته العنيفة التي انتهت بمقتل جميع من اشتركوا في قتل الحسين ، فقد تتبعهم في الكوفة بالقتل ، وهدم دورهم ، فشنى بذلك غليل الشيعة وأثلج صدورهم .

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢٣ .

وما لبث أن توج أعماله بأن هزم الجيش الأموي عند نهر الخازر هزيمة منكرة ، وقتل ابن زياد قاتل الحسين ، وتلقى المختار الشكر من الجميع من الشيعة ، ومحمد بن الحنفية ، وعلى بن الحسين ، وبني هاشم جميعا .

وكان المختار يدرك كل الادراك منزلة أهل بيت محمد عامة ، وأولاد علي بن أبي طالب خاصة ، في قلوب شيعة العراق وسائر المسلمين في الدولة الاسلامية . ولذا اتبع المختار سياسة التودد لبني هاشم وأولاد علي بن أبي طالب ، فكان يرسل من حين لآخر بهداياه الثمينة الى محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس وغيرهما فيقبلونها شاكرين ممتنين . ويؤكد الشهرستاني (١) أن أمر المختار « لم ينتظم الا باتسابه الى محمد بن الحنفية أخى الحسين علما ودعوة ، ولاشتغاله بقتال الذين أجمعوا على الفتك بآل البيت » .

تشجيع الموالي أنصار المختار :

كان رجالات حزب الشيعة البارزين — كما ذكرت دائرة المعارف الاسلامية — (٢) في أول الأمر عربا خالصا ، ثم أصبح بينهم على مر الأيام عدد كبير من الموالي . ويؤكد فلهوزن (٣)

(١) الملل والنحل ج ١ ص ١٩٧ .

(٢) Shortor Encycl. of Islam, P. 536

(٣) تاريخ الدولة العربية ص ٦٤ (ترجمة الدكتور أبو ريده) .

هذه الحقيقة ، فيذكر أنه كان للشيعة ممثلين في قبائل العرب في الكوفة ، ثم انتشر التشيع بين موالى الفرس الكثيرين الذين كانوا قد اعتنقوا الاسلام ، وأصبح لهم شأن سياسى على يد المختار ، أحد أشراف ثقيف ، وهو الذى اتخذهم جيشا له ، ثم استمال قدماء الشيعة من العرب أيضا ، وأراد أن يسقط الأرستقراطية العربية في الكوفة من على عرشها ويقيم هناك تحت رئاسته حكومة يتقضى فيها بفضل التشيع على التمايز بين العرب والفرس وبين السادة والرعية .

ولقد انضم الموالى الى حركات الشيعة في العراق ، لأن معظمهم كان يعتقد أن عليا وأولاده من بعده أحق بالخلافة من بنى أمية ، وزاد هذا الاعتقاد قوة بعد زواج الحسين بن على من إحدى بنات يزجرد آخر الأكاسرة الساسانيين ، فرأى الموالى الفرس في أولاد الحسين منها وارثين لملوكهم الأقدمين ، كما رأوا فيهم وريثة لتقاليدهم القومية . وزاد حب الشيعة لعلى بن أبى طالب وابنه الحسن اتخاذهما الكوفة حاضرة لخلافتها ، واختيار الحسين الكوفة مركزا لثورته على الدولة الأموية .

وكان لتشيع الموالى أثره الدينى والسياسى فى تاريخ حزب الشيعة . فمن الآثار الدينية ما دخل على التشيع من الأفكار الفارسية كعصبة الأئمة وتجسد الألوهية فى الامام . أما الآثار السياسية لتشيع الموالى ، فمنها ظهور فكرة الوراثة القديمة الخاصة بالملكية الالهية ، كما كان الموالى دائما وراء كل حركة سياسية ، فمخطوا على بنى أمية لتمسكهم بروح العصبة العربية

واحتكارهم المناصب الكبرى للعرب واحتقارهم للموالي ، لذلك وجدوا في الشيعة سلاحا يشهرونه في وجه أعدائهم الأمويين ، فبذلوا النفس والنفيس في تأييدهم ونشر دعوتهم سرا وعلنا .

كان العلويون وأنصارهم يرون الخلافة حقاً مشروعاً لآل عليّ ، وأن الأمويين أخذوها منهم قسراً ، وقد تمسكوا بهذا الحق وعملوا سرا وعلنا لاسترجاعه . وكثر المؤيدون لهم بعد استشهاد بعض أبطالهم ، وظلم بعض الولاة الأمويين لهم . وصاروا رمز المقاومة الشرعية للدولة الأموية ، وكان هذا ممّا أفسح المجال لمختلف العناصر المتدمرة عربية وغير عربية لتنظم رأيتهن .

رأى أهل العراق في انتصار الأمويين انتصاراً للشام عليهم ، ونقلوا لمركز الحكم من الكوفة الى دمشق . وهذا الانتصار سلبهم قيادة الأمة العربية وجردتهم من الامتيازات ، اجتماعية وسياسية ، وصاروا يشعرون بعد أن تقص الأمويون عطاءهم أن وارد السواد الغنى يأكله أهل الشام غرماً لهم وسلباً لحقهم . وأخذوا يمجّدون أيام عليّ بن أبي طالب ويمجّدون ذكراه ، وكانوا دائماً يسعون لاسترداد السلطة ، ولا ينسون أنه أول امام جعل حاضرتهم بينهم (١) .

احتقر الأمويون بتأثير العصبية ، جميع الأقوام غير العربية ، وأنزلوهم في منزلة اجتماعية أدنى من منزلة العرب ، ثم أبعدوهم لذلك من السياسة والقيادة ، وفرضوا عليهم من الضرائب أكثر

مما فرضوه على العرب . فالعصية تبدأ للبيت الأموي ، ثم للقبيلة ، وتتوسع أخيرا فتكون للأمة العربية ولا تتعدى ذلك .

وقد كانت هذه النظرة طبيعية ومألوفة بالنسبة للشعوب الحاكمة في العراق وفارس في ذلك الحين ، إلا أن الاسلام دعا للمساواة بين المسلمين ، فكانت دعوته مثار كفاح ومقاومة لهذه النظرة ، فالاسلام هو الذي هيا الأساس المشروع لتذمر الموالي ، ووقفت بعض الفرق بجانبهم ، وحاول بعض فقهاء الشيعة تأييد النظرة الاسلامية والدفاع عنهم .

ثم ظهر المختار فجمع الشيعة حوله ، عربا وموالي ، وساوى بين الجميع في المعاملة ، وبدأ عهدا جديدا مجيدا من المساواة والعدل ، رغم أن المختار من أشراف العرب . والحقيقة أن العرب من هذه الجهة هم الذين نظموا الموالي ووجهوا مقاومتهم للأمويين وتدمرهم منهم .

بين المختار ومحمد بن الحنفية وبنى هاشم :

أدرك المختار فائدة الاعتماد على بنى هاشم منذ مطلع تاريخه السياسي . ويروي البلاذري ^(١) أن المغيرة بن شعبة والى الكوفة قد رسم الطريق أمام المختار ، وكان المختار يعتبره مثلا أعلى لرجال ثقيف وأستاذ في السياسة ، فقد أخبره المغيرة أن الموالي

(١) أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٢٣ (طبعة ليدن) .

لا يستجيبون لداع من الدعاة الا اذا دعاهم الى اعادة الحق الى آل محمد من بنى هاشم . ولم تزل هذه النصيحة تتردد في نفس المختار حتى وضعها موضع التنفيذ بعد مصرع الحسين بن علي . ولقد اعتمد المختار على محمد بن الحنفية رأس بنى هاشم وزعيم الشيعة في ذلك الوقت ، واعتبر نفسه أمينه ووزيره ، فكان يقول لشيعة العراق : جئكم من قبل المهدي محمد بن الحنفية مؤتمنا مأمونا منتخبا ووزيرا (١) .

اختلف الحزب العلوي بعد مصرع الحسين في قضية الامامة ، وهل تنتقل بعده الى محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية ، وهو ليس بابن فاطمة . وعرف ابن الحنفية بأنه كان قوى الخلق عظيم الصفات ، وكان له حزب قوى يظهره في اعلانه الامامة ، وهم الكيسانية . وقد أخذوا عن الشيعة السبئية قولهم بتناسخ روح الاله في الأنبياء ، وأنها انتقلت بعد وفاة محمد الى علي بن أبي طالب ثم الى الأئمة من أبنائه .

أما الفرقة الثانية من العلويين فترى أن محمد بن الحنفية ليس من أبناء محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الحسين أوصى بالامامة الى ابنه علي ، وأن شروط الامامة وان نصت نظريا على وجوب تعيين الامام لمن يخلفه الا أننا نلاحظ أنها تنتقل في الحقيقة بالارث كلما كان الى ذلك سبيل (٢) .

(١) الطبري ج ٤ ص ٤٣٤ .

(٢) رونلدسن : عقيدة الشيعة ص ١١١ .

وأما المختار فقد أعلن ولاءه وجهه للعلويين ، فنراه يفتح داره أمام مسلم بن عقيل بن أبي طالب الذي بعثه ابن عمه الحسين ابن عليّ ليأخذ البيعة له ويمهد الطريق أمامه للقدوم الى الكوفة ، واجتهد المختار في جمع الشيعة وأخذ البيعة منهم للحسين ، حتى اذا قتل الحسين بن عليّ بدأ المختار يسعى لجمع شيعة العراق حوله ، ورأى أن يدعو الى تأييد أحد العلويين ، فأخذ يتودّد الى شيخ العلويين في ذلك الحين محمد بن الحنفية ، وكان الطريق ممهدا أمامه للوصول الى قلب ابن الحنفية . وبني هاشم ، فقد لاقوا الكثير من الاضطهاد وسوء المعاملة من ابن الزبير ، وظهر المختار أمام المسلمين والشيعة بمظهر النصير لابن الحنفية والشيعة ، واستفاد المختار من صراع ابن الزبير وابن الحنفية .

وتحدث جولد تسيهر ^(١) عن ابن الحنفية فقال : وهو الذي عظّمه جم غفير من المتدينين الأتقياء ، على اعتبار أنه المهدي الذي احتباه الله لتحرير الاسلام ، وأنه الممثل لفكرة « الشيوقراطية » في عهده الخلفاء الأمويين الأوائل الذين تدد بهم المسلمون كفجرة غاصبين .

بعد مقتل الحسين ، ضعف أمر بني هاشم ، فقد كان زعمائهم من أمثال عبد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر ومحمد بن الحنفية لا يطمعون في الخلافة . لكن شاء سوء طالع ابن الزبير أن يقف أحد الهاشميين العلويين ، وهو ابن الحنفية ، موقف المعارضة من

(١) العقيدة والشرعية في الاسلام ص ٢٩ .

الحركة الزيرية والمهادنة من الدولة الأموية . وكان ابن الزبير يرى من صالحه أن يستمر عداء بنى هاشم للبيت الأموي ، لأن في ذلك اضعافا للفرقتين وتحقيقا لأطماعه الشخصية في الوصول الى الخلافة .

شعر الخليفة يزيد بن معاوية بعد مصرع الحسين بعظم ما أتاه في حق الحسين زعيم البيت الهاشمي ، وعلم أن ذلك سيجر عليه سخط العالم الاسلامي جميعه ، ويُتيح الفرصة لعبد الله ابن الزبير في جمع هؤلاء الساخطين حوله . فرأى يزيد أن يبحث عن رجل هاشمي يستطيع أن يستميله الى جانبه ، ووجد ضالته المنشودة في شخص ابن الحنفية ، فبعث اليه كتابا يكيل فيه المديح والثناء ، ويدعوه الى زيارته في دمشق . واستجاب ابن الحنفية لدعوة يزيد ، رغم معارضة ولديه ، وهناك استقبله يزيد بالحفاوة والتكريم ، وتبرأ أمامه من قتل الحسين ونسبه الى ابن زياد ، وعاد ابن الحنفية الى الحجاز ليمدح يزيد على مسمع من أهل الحجاز ممّا ضايق ابن الزبير .

ثم ألم ابن الزبير أن رأى شخصا آخر من زعماء بنى هاشم يقف من حركته موقف المعارضة ، وهو عبد الله بن عباس ، الذي أبى أن يناصر الحركة الزيرية ، ولذا عمل ابن الزبير على أن ينتقص من شأن ابن عباس أمام الناس وقد حمد يزيد لابن عباس امتناعه عن تأييد ابن الزبير ، فأرسل اليه كتابا يشكره فيه على موقفه من ابن الزبير وطلب منه أن يبحث قومه على أن ينفضوا من حول ابن الزبير ، ويدعوهم الى التمسك ببيعة يزيد ، ويمنيه بالعطايا

والصلوات ، ولكن ابن عباس ردّ عليه بأنه في غنى عن حمده له
وثناؤه عليه ، وأن ما يمينه به من مال وصلات فهو حق له ، وهو
قليل من كثير كانوا يستحقونه ، ثم يذكره بأنه لن ينس قتله
الحسين بن عليّ (١) .

كان ابن عباس يؤثر البعد عن السياسة وما تثيره من مشاكل ،
فلم يشأ أن يزوج بنفسه في الصراع الدائر بين الأحزاب السياسية
والدينية ، فركن الى الاستكانة والهدوء . وكان هذا من عوامل
انصراف المختار فيما بعد عن الاستعانة بالفرع العباسي من البيت
الهاشمي ، والاعتماد على الفرع العلوي فحسب .

وهنا رأى يزيد بن معاوية أن يقصر اعتماده على ابن الحنفية
في استمالة قلوب بني هاشم لخلافته . ولم يخيب ابن الحنفية
ظنّ يزيد فيه ، فعندما رجع وفد المدينة من دمشق ووقف يحث
أهل المدينة على خلع يزيد ، وقف ابن الحنفية يدافع عن يزيد ،
وينفي عنه اتهامه بشرب الخمر وترك الصلاة ووصفه بأنه رآه
« مواظبا على الصلاة متحريرا للخير يسأل عن الفقه ملازما
للسنة » (٢) . وظن أهل المدينة أن كراهيته لبينة ابن الزبير
دفعته الى الدفاع عن يزيد ، فعرضوا عليه أن يولّوه عليهم ،
فأبى . ورفض ابن الحنفية أن يشارك أهل المدينة في قتال الجيش
الأموي فلما هدّده بارغامه على القتال ، غادر المدينة الى مكة .

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٢٢٠ .

(٢) ابن طولون : قيد الشريد من اخبار يزيد (مخطوط) ورقة ٥ .

ولما جاء الخبر بنعى يزيد سنة ٦٤ هـ ، بايع الناس لابن الزبير بالخلافة وأبى ابن عباس وابن الحنفية أن يبايعاه .

كان انصراف ابن الحنفية عن تأييد ابن الزبير ، و وفاة الخليفة يزيد بن معاوية ، سببا لاندفاع ابن الحنفية الى تأييد المختار بن أبى عبيد . وفى الحقيقة ، نجد لابن الحنفية العذر فى موقفه من ابن الزبير ، فقد ذكر المؤرخون الكثير عن معاملة ابن الزبير السيئة لبني هاشم ، تلك المعاملة التى استفاد منها المختار كثيرا . غضب ابن الحنفية لاقدام ابن الزبير على سب أبيه على ابن أبى طالب ، فوقف على المنبر يعلن احتجاجه ، ويلوم ابن الزبير ، ويمتدح عليا ، ويعلن أنه حينما يصبح للعلويين دولة سيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . وأراد ابن الزبير أن يفض الناس من حول ابن الحنفية لأنه ليس من أولاد فاطمة بنت محمد فقال : عذرت بعض الفواطم ، فما بال بنى حنيفة ؟ ! (١) .

بدأ ابن الزبير سياسة ايجابية نحو حزب بنى هاشم ، وقد أتاحت هذه السياسة فرصة ذهبية للمختار للتدخل والظهور بمظهر نصير بنى هاشم . فقد أخرج ابن الزبير ابن الحنفية من مكة الى ناحية رضوى ، وأخرج ابن عباس الى الطائف « اخراجا قبيحا » (٢) . ووصف أحد كتّاب الشيعة سياسة ابن الزبير نحو الهاشمين فقال : « أطلع ابن الزبير رأسه وأظهر أمره بمكة ، فأخذ يشدد على الأمة ، وكثر منه السفك ، حتى ملأ السجون من الناس ،

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٧ .

(٢) اليعقوبى ج ٣ ص ٩ .

حتى صار الناس يبايعونه خوفا من القتل لا لكونه أهلا للخلافة
والامرة على المسلمين . وكثر أذاه للناس عامة ، وجوره على
الهاشميين خاصة ، فضيقت عليهم غاية التضييق لما امتنعوا من
البيعة له « (١) » .

ولم يكتف ابن الزبير بما يجاهر به من سب ابن الحنفية
وشتم أبيه علي بن أبي طالب وسائر بني هاشم ، بل أراد أن يخرج
هذه الكراهية والبغضاء الى الدور الايجابية العملية ، فألقى بالحسن
ابن محمد بن الحنفية في السجن المعروف بسجن غارم ، بل حاول
قتله ، لولا أنه فر من سجنه ولحق بأبيه . وفي ذلك يقول
كثير (٢) :

تخبر من لا قيت أنك عائد

بل العائد المظلوم في سجن غارم

ومن ير هذا الشيخ بالخيف من منى

من الناس يعلم أنه غير ظالم

سمى نبي الله وابن وصيه

وفكأك أغلال وقاضى مغارم

ثم بدأ ابن الزبير يعمل على التخلص نهائيا من ابن الحنفية ،
فأعلن أنه يعطى ابن الحنفية مهلة الى غروب الشمس ، فان
لم يبايع له بالخلافة يقتله حرقا بالنار ، ولكن ابن الحنفية وقومه

(١) علي بن الحسين الهاشمي : محمد بن الحنفية ص ١٣٦ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٤ .

أعلنوا رفضهم تهديد ابن الزبير وقالوا : لا نبايع حتى تجتمع الأمة .

كانت سيطرة المختار على الكوفة سببا في تغيير سياسة ابن الزبير نحو ابن الحنفية وبنى هاشم ، فيقول ابن الأثير (١) : « فلمّا استولى المختار على الكوفة ، وصارت الشيعة تدعو لابن الحنفية ، خاف ابن الزبير أن يتداعى الناس الى الرضا به فآلح عليه وعلى أصحابه في البيعة فحبسهم بزمزم وتوعدّهم بالقتل والاحراق ، وأعطى الله عهدا أن لم يبايعوا أن ينقذ فيهم ما توعدّهم به وضرب لهم في ذلك أجلا . فأشار بعض من كان مع ابن الحنفية أن يبعث الى المختار يعلمه حالهم . فكتب الى المختار بذلك ، وطلب منه النجدة » .

وقد استفاد المختار من رسالة ابن الحنفية اليه يستنجد فيها به من تعذيب ابن الزبير ، فوقف في الكوفة يخطب في أهلها قائلا : ان هذا مهديكم وصريح أهل بيته نبيكم قد تركوه ومن معه محصورا عليهم ، كما يحصر على الغنم ، ينظرون القتل والتحريق في الليل والنهار ، لست أبا اسحق ان لم أنصرهم نصرا مؤزرا ، وان لم أسرب الخيل في أثر الخيل كالسيل يتلوه السيل حتى يحل بابن الكاهلية — أي ابن الزبير — الويل (٢) .

وهنا بكى أهل الكوفة بكاء مرّا ، وقالوا للمختار : سرّحنا

(١) الكامل ج ٤ ص ١٠٤ .

(٢) ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ١٠٤ .

اليه وعجل . فوجه المختار اليهم أبا عبد الله الجدلي في أربعمائة فارس . وكان عبد الله بن عباس قد قال لابن الحنفية : يا ابن العم ، اتى لا آمنه عليك فبايعه . فقال : سيمنعه عنى حجاب قوى . وكان ابن الحنفية يقصد المختار ولكنه لم يشأ أن يصرّح بذلك لابن عباس الذى ظن أن ظاهرة طبيعية وجوية هى التى ستتقدمهم ، فأخذ ينظر الى السماء ويفكر فى كلام ابن الحنفية . وبعد ساعات قليلة ، وقبل غروب الشمس ، قدم أبو عبد الله الجدلي وفرسانه من أنصار المختار . وطلب الجدلي من ابن الحنفية أن يسمح له بقتال ابن الزبير ، ولكنه أبى ، واكتفى ابن الحنفية بنجاته وأسرع بالخروج من مكة .

بعث المختار مع الجدلي رسالة ، يعرض فيها على ابن الحنفية المزيد من المساعدة ، ويعرض عليه أن يشن حربا شعواء على ابن الزبير ، ولم ينس المختار أن يشيد بفضله على بنى هاشم ، ويعقد مقارنة بينه وبين ابن الزبير ، فجاء فى رسالته : « انى أرسلت اليك جيشا ليدلتوا لك الأعداء ويحرزوا البلاد . فان رأيت أن أبعث الى المدينة جيشا كثيفا ، وتبعث اليهم من قبلك رجلا حتى يعلموا أنى فى طاعتك فافعل فانك ستجدهم بخفكم أعرف وبكم أهل البيت أرف منهم بأل الزبير والسلام » .

طلب المختار من ابن الحنفية أن يبعث رسولا من قبله يخبر أهل العراق أن المختار فى طاعة ابن الحنفية ، ولكن ابن الحنفية اكتفى بأن بعث الى المختار برسالة جاء فيها : « أما بعد ، فقد قرأت كتابك وعرفت تعظيمك لحقى وما تنوّه به من سرورى ،

وإنَّ أحبَّ الأمور كلها إلىَّ ما أطيع الله فيه ، فأطع الله ما استطعت ،
وإني لو أردت القتال لوجدت الناس إلىَّ سراعا والأعوان لى
كثيرا ، ولكن أعتزلكم وأصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » .

وكان ابن الحنفية قد آثر الهدوء والسلام والموادعة ، ورغم
اقتناعه بحقه ، فقد كان غير متحمس للجهاد أو القتال من أجل
الوصول إلى هذا الحق المسلوب ، وشتان بينه وبين أخيه الحسين
ابن علي الذي خرج يقاتل من أجل حقه حتى قتل . كما أن
ابن الحنفية لم يكافئ المختار على ما بذله في سبيله ، فقد كان
الوحيد الذي تقدّم له بيد المساعدة في محنته فبعث له بأربعمائة من
فرسانه في فترة وجيزة ، فأخرجوه من سجنه . فلم يحقق
ابن الحنفية ما طلبه المختار من تأييد ، واطهاره أمام أهل الكوفة
بمظهر نصير بنى هاشم .

غضب ابن الزبير لقدوم فرسان المختار ، وحاول أن يمضي
في طريقه ، طريق إيذاء ابن الحنفية وبنى هاشم حتى يبايعوا له ،
فقال لجند المختار : أتحبسون أنى أخلّى سبيلهم دون أن يبايع
ويبايعوا ؟ فقال الجدلي قائد جيش المختار : أى ورب الركن والمقام
لتخلين سبيله أو لنجادنك بأسيا فنادى لا يرتاب منه المبطلون .
ولكن ابن الحنفية نهى جند المختار عن القتال وسفك الدماء .
ودخل جند المختار المسجد الحرام وقد تعالت صيحاتهم : يا لثارات
الحسين « فخافهم ابن الزبير وخرج محمد بن الحنفية ومن معه
إلى شعب على » ، وهم يسبّون ابن الزبير ويستأذنون محمدا فيه ،

فأبى عليهم ، فاجتمع مع محمد في الشعب أربعة آلاف رجل
فقسم بينهم المال ، وعزّوا وامتنعوا » (١) .

وكان قدوم جيش المختار كافيا لالقاء الرهبة في قلب عبد الله
ابن الزبير ، فلم يقدم على ما كان قد توقعه به ابن الحنفية
والهاشميين من قتل واحراق ، واكتفى باخراج ابن الحنفية الى
رضوى ، واخراج عبد الله بن عباس الى الطائف . وبعد فترة
رحل ابن الحنفية الى الطائف حيث لحق بابن عباس ، فلم يزل
بها حتى توفي ابن عباس بها في سنة ٦٨ وعمره ٧١ سنة ، وصلى
عليه ابن الحنفية (٢) .

أمسك ابن الزبير عن أذى ابن الحنفية والهاشميين طوال حياة
المختار ، ولكن بعد مقتل المختار على يد مصعب بن الزبير بالعراق ،
بعث عبد الله بن الزبير أخاه عروة ليقول له على لسان أخيه : ادخل
في بيعتي والا نابذتك . فقال ابن الحنفية لعروة : يؤسا لأخيك
ما ألجه فيما أسخطه الله وأغفله عن ذات الله . وقال ابن الحنفية
لأصحابه : ان ابن الزبير يريد أن يثور بنا ، وقد أذنت لمن أحب
الانصراف عنا فانه لا ذمام عليه منا ولا لوم ، فاني مقيم حتى
يفتح الله بيني وبين ابن الزبير وهو خير الفاتحين . وهكذا شعر
ابن الحنفية بخسارته الفادحة بموت المختار ، فقد حُرم من
معاودة هذا النصير المتحمس ، ولكن ابن الحنفية كان دائما يفضل
اتباع سياسة سلبية ، فرضخ مرة أخرى لتهديد ابن الزبير .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٠٥ .

(٢) الملل والنحل ج ١ ص ٢٤١ .

ولكن الجدلى قائد المختار أعلن تمسكه بتأييد ابن الحنفية ،
رغم أن المختار كان قد لاقى حتفه . وعلم الخليفة الأموى ،
عبد الملك بن مروان بعودة ابن الزبير — خليفة الحجاز — الى
تهديد ابن الحنفية ، فبعث يدعوهُ للقدوم الى بلاد الشام ، وأجاب
ابن الحنفية دعوة عبد الملك ، ولكنه فى طريقه الى الشام علم بغدر
عبد الملك بعمر بن سعيد فندم على رحيله الى الشام ، وشعر
بالندم ، فنزل مدينة أيلة . والتف حوله أهلها ، وخشى عبد الملك
أن يستفحل أمر ابن الحنفية « فندم على اذنه له فى قدومه بلده ،
فكتب اليه أنه لا يكون فى سلطانى من لم يبايعنى » .

كان من المستحيل أن يتفق ابن الحنفية وعبد الملك بن مروان ،
فالاول هاشمى والآخر أموى والعدا بين الفريقين معروف . ورحل
ابن الحنفية الى مكة ، ولكن ابن الزبير أمره بالرحيل عنها ،
فاستأذنه أصحابه فى قتال ابن الزبير فلم يأذن لهم وقال : اللهم
البس ابن الزبير الذل والخوف وسلط عليه وعلى أشياعه من
يسومهم الذى سام الناس . ورحل ابن الحنفية الى الطائف
فأقام بها الى أن قدم الحجاج بن يوسف الثقفى لقتال ابن الزبير .
وبعد مقتل ابن الزبير طالب الحجاج ابن الحنفية بالبيعة لعبد الملك
فأبى ، فقد ظل ابن الحنفية مصرّاً على أن الخلافة من حق البيت
العلوى دون البيت الأموى ، ولكنه لم يجاهد من أجل الخلافة
واكتفى بالتأييد الأدبى للمختار ، الذى كان على استعداد للاستشهاد
فى سبيل قيام خلافة علوية . وعلى الرغم من معارضة ابن الحنفية ،
فقد أرسل عبد الملك الى الحجاج يأمره بحسن معاملته ، ثم

ما لبث أن رحل ابن الحنفية الى دمشق حيث بايع ابن مروان (١) ،
فقد دانت الدولة جميعها له ، ولم يعد هناك مجال لمعارضة
ابن الحنفية .

كان المختار يرجو أن يبادل ابن الحنفية اخلاصا باخلاص ،
ولقد تحدث الشهرستاني (٢) عن الدافع للمختار على اعتماده
على ابن الحنفية فقال : « اما حمله على الانتساب الى محمد
ابن الحنفية حسن اعتقاد الناس فيه ، وامتلاء القلوب بحبه ،
والسيد — أي ابن الحنفية — كان كثير العلم غزير المعرفة
وقاد الفكر مصيب خاطر في العواقب » .

وكان موقف ابن الحنفية من المختار ومن حركة عبد الله
ابن الزبير سببا في ظهور حزب شيعي جديد هو حزب الكيسانية ،
وهم « الذين وردوا الى ابن الحنفية ، وهم القائلون بامامة محمد
ابن الحنفية » (٣) . وسنفصل الحديث عن الكيسانية عند حديثنا
عن أثر المختار في الحياة السياسية والدينية والاجتماعية
والاقتصادية في الدولة الأموية ، في الفصل الأخير من هذا
الكتاب (٤) .

(١) ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ١٠٦ .

(٢) الملل والنحل ج ١ ص ٢٤١ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٤ .

(٤) نادي الشباع كثير ، أن ابن الحنفية لم يمض بل سيطر حيا
حتى يملا الدنيا عدلا بعد أن ملئت جورا ، وهو مستور في كهف جبل
رضوى قرب المدينة حيث الغرلان والأسود تحيا معا في سلام ، ويتغذى
هناك بعسل وماء (الأصفهاني : الأغاني ج ٨ ص ٣٢) .

موقف المختار من الحركة الزبيرية

الصراع بين المختار والزبيرين على النفوذ في العراق - عوامل تفوق الحركة المختارية على الحركة الزبيرية في العراق : بخل ابن الزبير وكرم المختار ، إهمال ابن الزبير عنصر الدعاية واهتمام المختار به ، سوء اختيار ابن الزبير لولائه وخداع المختار لهم ، تمجيد ابن الزبير لعثمان وتمجيد المختار لعلل وأولاده ، ابن الزبير لا يطلب ثار الحسين والمختار يقضى على قتلة الحسين ، اضطهاد ابن الزبير لابن الحنفية وبنى هاشم وإكرام المختار لهم ، مكر المختار بابن الزبير ، ابن الزبير يعتمد على العرب والمختار يعتمد على الموالي والعرب .

الفصل الثامن

موقف المختار من الحركة الزبيرية :

رفض الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزبير البيعة ليزيد ابن معاوية عندما تولّى الخلافة ، وخرجا فارقين الى مكة . أما ابن الزبير فقد وجد في مكة الطمأنينة التي ينشدها ، واستطاع أن يكتسب عطف المسلمين وتأيدهم بخاصة حينما قال لهم : « أنا عائذ بالبيت » . وأما الحسين فقد خرج ملبيّا دعوة الكوفة له ، ولكن الكوفيين تخلّوا عنه وتركوه يلقي مصيره المؤلم في كربلاء . ويكاد المؤرخون يجمعون على أن ابن الزبير حرّض الحسين على الخروج من مكة الى الكوفة ، وقارن المؤرخون بين موقف ابن الزبير الذي نصحه بالخروج ، وموقف سائر الصحابة الذين نصحوه بالبقاء في مكة ، وذكروه بما حدث لأبيه وأخيه معهم .

وبعد مصرع الحسين ، خلا الجو لابن الزبير فأصبح رجل الساعة الذي التف حوله الساخطون على بني أمية . ولعبت عوامل عدة دورها في نشر الدعوة لابن الزبير ، منها زهد الصحابة في الخلافة وتعمّد ولاية الحجاز الأمويين وتنازعهم وتخبّطهم في سياستهم ، وضعف الحامية الأموية بالحجاز ، وسياسة الأمويين

الاقتصادية بالحجاز التي أدت الى سحق الحجازيين ، الى جانب
السخط العام على الحكم الأموي الذي ازداد اشتعالا بعد مصرع
الحسين .

الصراع بين المختار والزبيرين على نفوذ في العراق :

لم يكن ابن الزبير بالذي يجرؤ على أن يدعو لنفسه والحسين
على قيد الحياة . حتى اذا لقي الحسين ربه ، أظهر ابن الزبير دعوته
على الملأ ، وبيّن للناس حقّه في الخلافة ، ووقف يخطب الناس ،
فهاجم يزيد في أخلاقه وسجاياه ، وبكى حسينا واستبكى الناس
عليه ، وسبّ أهل الكوفة لغدرهم بالحسين ^(١) . وكان لكلماته
رنة السحر في نفوس العلويين وأهل الحجاز خاصة ، والساخطين
على الحكم الأموي عامة ، فالتفوا حوله وناصروه ورأوا فيه
الزعيم الذي يأخذ بثأر قتلهم الحسين ويقضى على الحكم الأموي ،
ولما طلبوا منه أن يبايع لنفسه لم يجبههم الى طلبهم حتى كأنما
يريد أن يظهر للناس زهده في الخلافة ^(٢) .

ثم قدم المختار الى ابن الزبير ، وكان لا يزال ممتنعا عن البيعة ،
ثم كان مفارقتها له ورحيله الى الطائف ليمضي عاما كاملا ، يعود
بعده ليري ابن الزبير قد بدأ يبايع لنفسه . ويكون بعد ذلك سفر
وفد المدينة الى دمشق بدعوة من يزيد بن معاوية وعودتهم وخلعهم
طاعة يزيد واسرافهم في سبّه وشتمه ، فبعث يزيد اليهم بجيش

(١) أنظر الخطبة في تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٦٤ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٣٦٤ .

ليغزو المدينة ، فكانت موقعة الحرة ، وما نزل بالمدينة من قتل أهلها ونهب متاعها ، ثم يمضى الجيش الأموى فى طريقه لحصار ابن الزبير فى مكة ، ذلك الحصار الذى وقف فيه المختار الى جانب ابن الزبير ليدود عن الكعبة . ثم كانت نهاية يزيد بن معاوية وعودة الجيش الأموى الى دمشق ، وانتشار البيعة لابن الزبير فى الحجاز والشام ومصر والعراق . ولم يتر ابن الزبير بوعوده التى قطعها للمختار مما اضطره الى الرحيل الى العراق ، وهناك بدأ الصدام بينه وبين الحركة الزبيرية .

وكانت حركة التوايين هى الميدان الأول الذى شهد أول صدام بين المختارين والزبيريين . قدم المختار الى الكوفة ، فى نفس الوقت الذى قدم فيه عبد الله بن يزيد عامل ابن الزبير على الكوفة . وبدأ كل من الرجلين جهوده لتحقيق أهدافه الخاصة به ، فكان ابن يزيد يهدف الى أخذ البيعة من أهل الكوفة لابن الزبير ، أما المختار فكان يرمى الى جمع الناس حوله وتكوين حزب قوى يساعده فى الوصول الى ما يطمح فيه من سلطة ونفوذ .

وكانت الدعوة لابن الزبير قد أخذت فى الانتشار بسرعة ، فخاف المختار من انهيار آماله وضياع جهوده . ولكنه كان فى حاجة الى أنصار يؤازرونه ، وكان يعلم أنه فى العراق حيث شيعة على ، فرأى أن يستعين بهؤلاء الشيعة ويعتمد عليهم . ولكنه رأى أنهم اندمجوا فى حركة التوايين ، فكان عليه أن يمزق شمل هذه الحركة ليجمع الشيعيين من حوله . فأخذ يثنى الناس عن عزمهم على الخروج مع سليمان بن صرد لقتال ابن زياد ، يدل على ذلك

ما رواه ابن الأثير (١) عن غضب سليمان لقلعة عدد جنده ، وأنه لما تساءل عن سبب قتلهم « قيل له ان المختار يثبط الناس عنك » . كان جديرا بابن الزبير وهو في حاجة الى تأييد أهل العراق أن يجاريهم في شعورهم ويجرى على هواهم ، وأن يأمر واليه ابن يزيد بطاعة أهل العراق فيما يريدونه من المطالبة بشار الحسين . على أنه يجب أن تتصف ابن يزيد ، فقد حاول — الى حد ما — أن يدير الأمور لصالح ابن الزبير . فشجع أهل العراق على الخروج لقتال ابن زياد ، ولكنه لم يذكر لهم أنه على رأيهم ، كما أنه لم يساعدهم ماديا وأديا .

وبينما كان المختار يخبر شيعة العراق أنه على رأيهم وأنه معهم على عدوهم ، كان ابن يزيد يتبدى لهم أنه لا يوافقهم على آرائهم . وبينما كان المختار يثبط همم التوابين والشيعة حتى لا يلتفوا حول سليمان بن صرد ، منافسه الخطير ، كان ابن يزيد يحث التوابين على الاتحاد والخروج لقتال ابن زياد (٢) . ولكن جهود ابن يزيد المحدودة ضاعت أمام سياسة ابن الزبير التي اتبعها نحو بني هاشم . فأهل العراق الذين سمعوا باقدام ابن الزبير على سبّ علي بن أبي طالب على المنابر ، لن يصدقوا اليوم نائبه ابن يزيد في حشهم على الخروج للطلب بشار الحسين . ولم يتبع ابن يزيد نحو التوابين سياسة ثابتة محدّدة ، فقد حضّهم في بداية الأمر بالخروج لقتال ابن زياد دون أن يساعدهم ، حتى اذا بدأوا

(١) الكامل ج ٤ ص ٧٣ .

(٢) المرجع السابق ج ٤ ص ٦٩ .

رحلتهم أدرك خطاه فبعث اليهم يطلب منهم العودة ، فقد كان عدد التوابين قليلا مما يجعل اندحارهم مؤكدا .

كان التوابون أعداء لبني أمية وللحركة الزيرية ، فقد التقى جيش التوابين بجيش ابن زياد عند عين الوردة ، فطلب ابن زياد من التوابين أن يبايعوا للخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، فردّ عليه ابن صرد طالبا تسليم الجند الأمويين ، ودعا هؤلاء الجند الى خلع عبد الملك والى مساعدة التوابين في اخراج عمّال ابن الزبير من العراق وتسليم الأمر الى أهل بيت الرسول (١) .

غير أن كلاً من الفريقين أبى إلا أن يقاتل في سبيل الأغراض التي خرجوا من أجلها . وانتهت معركة عين الوردة — كما مرّ بنا — بمقتل ابن صرد ومعظم أصحابه . وقد أيد أهل العراق حركة التوابين ، فقد أبوا أن ينتظروا كهاج الحركة الزيرية للحكم الأموي ، ورأوا أن يحرّروا بلادهم بأنفسهم ، فالاستقلال هو هدفهم الأول والأخير ، وكانت حركة التوابين حركة عراقية ، ووضع التوابون هدف الاستقلال موضع التنفيذ حين طلبوا من جند الشام أن يعاونوهم في طرد ولاية ابن الزبير ولم يحقق الأمويون طلب التوابين فقد كان مقرونا بمطلب آخر من المستحيل تحقيقه وهو إقامة خلافة علوية .

وعلى الرغم من أن أهل العراق كانوا قد بايعوا ابن الزبير في بداية الأمر ، فإن قدوم المختار جعلهم ينفضون عن الدعوة الزيرية

(١) البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢١ .

ويلتفون حوله ، نتيجة سياسة ابن الزبير نحو الشيعة . فقد اختار ابن الزبير ابراهيم بن محمد بن طلحة ليتولى خراج الكوفة ويأخذ البيعة له من أهل العراق ، وكانت الشيعة تبغضه فقد حارب جده طلحة بن عبيد الله مع الزبير على بن أبي طالب في موقعة الجمل ، واستمات محمد بن طلحة في القتال حتى لقي حتفه في هذه الموقعة .

وصل ابراهيم بن محمد بن طلحة الى العراق ، في وقت ظهرت فيه حركة التوابين ، وهي حركة شيعية تتحمس للبيت العلوي ، كما كان هناك المختار ينادى بأنه وزير ابن الحنفية . ولذا لم يكن هناك مفرًا من صدام ابراهيم بأهل العراق ، وقد نسي ابراهيم أنه مثل لابن الزبير ، ولم ينس أحقاده القديمة !

وقع خلاف شديد بين ابراهيم وزميله عبد الله بن يزيد حول سياسة الحكم في العراق ، فقد أبدى ابراهيم عداً وبغضاً للشيعة بالعراق ، وكان ابن يزيد يرى اتباع سياسة معتدلة . وكان هذا الانقسام بين ممثلي ابن الزبير ، وما أبداه ابراهيم من كراهيته لأهل العراق ، دافعا لهم لائصرافهم عن الحركة الزبيرية والالتفاف حول المختار .

وقد شعر عاملاً ابن الزبير ، ابن يزيد و ابراهيم ، بازدياد نفوذ المختار ، فألقيا القبض عليه وسجناه ، وشفع فيه زوج أخته عبد الله بن عمر بن الخطاب فأطلقا سراحه . وغادر المختار السجن ليجد آلاف الشيعة في انتظاره ، فقد قُتل سليمان بن صرد في معركة عين الوردة على يد الجيش الأموي ، وعادت فلول التوابين تبحث

عن وعيم جديد ، وقد وجدت هذا الزعيم في شخص المختار .
ولم يزل أصحابه يكثرُونَ وأمره يقوى حتى عزل ابن الزبير
عالمينه ، ابن يزيد و ابراهيم ، واستعمل عبد الله بن مطيع بدلها
على الكوفة .

ولكن هذا الوالى الجديد لم يكن خيرا من سلفيه ، فقد سار
في أهل الكوفة على سياسة أغضبتهُم فحقّدوا عليه وكرهوا حكمه ،
ووقفوا في صف المختار الذى استطاع بمعوتهم أن يثبت أقدامهم
بالكوفة ويعزل عبد الله بن مطيع . وقد أحب أهل الكوفة المختار
لأنه سار فيهم سيرة وافقت هواهم فطلب ودّهم وأقام العدل
بينهم ، وزاد حبّهم له حين أظهر لهم أنه رسول ابن الحنفية ووزيره
الأمين وساعده الأمين ، فأقبلوا عليه يؤازرونه ويؤيدونه .

استطاع الأمويون أن يوحّدوا صفوفهم المتفرقة ، وبايعوا
لمروان بن الحكم بالخلافة . فبدأ الصراع بين المختار والحركة
الزبيرية يدخل في دور جديد ، فقد كان الأمويون بعيدين عن
هذا الصراع ، فقد انشغلوا بانقساماتهم وما أثارته العصبية
القبلية من فتنة وحرب . ثم صفى الأمويون خلافاتهم ، وأصبحوا
طرفا ثالثا في صراع المختار وابن الزبير .

ولما تولى مروان الخلافة في دمشق ، وضع سياسة تقضى على
نفوذ ابن الزبير في الدولة العربية . وكان ابن الزبير قد نجح في
السيطرة على جميع أقطار الدولة عدا إقليم الأردن . وقد استطاع
مروان أن يسترد الشام ، ثم مصر ، ثم أرسل جيشين أحدهما
الى المدينة لقتال ابن الزبير ، والآخر بقيادة عبيد الله بن زياد الى

العراق لتأديب زفر بن الحارث عامل ابن الزبير على قنسرين الذي هرب الى قرقيسيا . فلقى ابن زياد في طريقه الثوابين بزعامه ابن صرد الذي لقي حتفه . واستمر بن زياد في زحفه حتى أقبل على الموصل . واستنجد عامل الموصل بالمختار ، فبعث بقائده يزيد بن أنس لقتال ابن زياد ، ولكنه توفي وتفرق أصحابه ، فأرسل المختار قائده العظيم ابراهيم بن الأشتر بجيش آخر لحق بالجيش الأول عند الموصل ، وحال دون دخول ابن زياد أرض العراق . وتلاقى الجيشان ، وانتهت المعركة بهزيمة جيش الشام ومصرع قائده ابن زياد ، وبعث المختار رأسه الى الحجاز .

عوامل تفوق الحركة المخارية على الحركة الزبيرية في العراق :

بعد موت يزيد بن معاوية وابنه معاوية الثاني ، اضطربت الأمور في العراق ، فأصبحت البصرة مسرحا للعصية القبلية بين مضر وربيعة والأزد . وانتهز الخوارج هذه الفرصة فبدأوا يعيشون في البصرة فسادا . ورأى ابن زياد أن يطلب البيعة من أهل العراق حتى يجمع بنو أمية كلمتهم على اختيار خليفة من بينهم . وبدأ ابن زياد يطلب البيعة من أهل البصرة ، فهم أقل تشييعا لآل على من أهل الكوفة ، فدعاهم الى الاجتماع بالمسجد ، وتحدث عن جهوده لرفعة شأن البصرة ، ثم طلب منهم البيعة له حتى تستقر الأمور في الشام ، فتظاهروا بالمواقفة على بيعته ، ثم خرجوا من المسجد ليعلنوا نقضهم هذه البيعة (١) .

(١) الطبرى ج ٧ ص ١٩ - ٢٠ .

بدأ نفوذ ابن زياد في الضعف ، ورأت عامة أهل البصرة أن في بقاء حكم ابن زياد الضعيف مما يهددهم بخطر الخوارج . وتحالفت الشيعة والموالي والقراء على طرد ابن زياد ، الذي أثر النجاة بحياته فخرج هاربا الى الشام . ولكن القوضى انتشرت في البصرة بعد فراره ، واشتدت روح العصية بين مضر واليمن ، واختلفوا حول تعيين أمير يخلف ابن زياد . ثم رأوا أن يتخلصوا من هذه القوضى بالبيعة لابن الزبير ، يدفعهم الى ذلك خطر الخوارج والعصية القبلية ، ولهذا تصالح الأزد ومضر وتراضوا على بيعة ابن الزبير (١) .

أما الكوفة ، فقد بعث ابن زياد رسولا حاول أخذ البيعة له من أهلها ، فقبضوا عليه وألقوا به في السجن . وبعث الكوفيون الى ابن الزبير يعرضون بيعتهم له ، فولّى عليهم عامر بن مسعود الذي رشحوه للحكم ، ثم ولّى بعده عبد الله بن يزيد بعد فترة وجيزة .

وعلى الرغم من هذا النجاح الكبير الذي حازته الحركة الزبيرية ، فما أسرع ما تضاءلت هذه الحركة وانكشبت ، بينما سطع نجم المختار وبدأت الحركة المختارية تحتل مكانة الحركة الزبيرية . فقد سار والي ابن الزبير على الكوفة عبد الله بن مطيع في أهلها سيرة أغضبتهم فحقّدوا عليه وكرهوا ابن الزبير ، والتفؤا حول المختار الذي استطاع بمعوتتهم أن يثبت أقدامه في الكوفة

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢٢ .

ويعزل ابن مطيع . وما لبث أن اتسع نفوذ المختار ، وكثر أنصاره ، وكان في مقدمتهم قائده الباسل ابراهيم بن الأشتر ، ودانت له بالطاعة بلاد العراق وسائر الأمصار عدا الحجاز والشام . ودخل المختار قصر الامارة في الكوفة ، وبسط يده يطلب البيعة من الناس وقال : « تبايعوني على كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المحلين والدفع عن الضعفاء ، وقتال من قاتلنا وسلم من سلمنا ، والوفاء ببيعتنا » (١) .

وأقبل الناس يبايعون المختار ، وشجعهم على بيعتهم نه ما أعدقه عليهم من أموال كثيرة ، ثم كتب المختار الى ابن الزبير يخبره انما أخرج ابن مطيع عن الكوفة لعجزه عن تولى أمورها ، وطلب من ابن الزبير ألا يحاسبه على ما أنفقه من بيت المال ، فأبى ابن الزبير ذلك عليه ، فخلع المختار طاعته ، وبدأت مرحلة من الصراع العنيف بين ابن الزبير والمختار ، وسرعان ما رجحت كفة المختار على كفة خصمه .

وهذا يدعونا الى التساؤل : لماذا تخلى أهل العراق سريعا عن الحركة الزبيرية وتقضوا بيعتهم لعبد الله بن الزبير بعد اقبال منهم ؟ ولماذا أقبل أهل العراق على تأييد المختار والبيعة له ؟ ولنجيب على هذين السؤالين ، نقول ان هذا الانصراف وذلك التأييد راجع الى عدة عوامل :

(١) الطبري ج ٧ ص ١٠٨ .

أولاً - بخل ابن الزبير وكرم المختار :

كان أهل الكوفة يسعون وقتئذ وراء الدرهم والدينار ، فكان على عبد الله بن الزبير أن يغمرهم بالمال حتى يصرفهم عن عدوه المختار ، الذي فطن الى طباع أهل الكوفة فغمرهم بعطاياه وصلاته . قال المسعودي ^(١) : « وسار المختار الى قصر الامارة فأخرج مطيعا منه ، وغلب على الكوفة وابتنى لنفسه دارا وبستانا أنفق عليه أموالا عظيمة أخرجها من بيت المال ، وفرق الأموال على الناس بها تفرقة واسعة ، وكتب الى ابن الزبير يعلمه أنه انما أخرج ابن مطيع من الكوفة لعجزه عن القيام بها ويسوم ابن الزبير أن يحتسب له بما أنفقته من بيت المال . فأبى ابن الزبير ذلك عليه فخلع المختار طاعته وجحد بيعته » .

كذلك روى ابن الأثير ^(٢) الكثير عن كرم المختار وتشديد ابن الزبير على ولاته بالعراق ، فقال : « ووجد المختار في بيت المال تسعة آلاف ألف فأعطى أصحابه الذين قاتل بهم حين حصر ابن مطيع في القصر وهم ثلاثة وخمسمائة ، لكل رجل خمسمائة درهم » . بل نجح المختار في رشوة عمال ابن الزبير فأقاموا في العراق ولم يعودوا الى ابن الزبير بالحجاز ، وركنوا الى السلام والهدوء . وقد أجمع المؤرخون — القدامى والمحدثون — على أن بخل ابن الزبير كان عاملا هاما في اخفاق حركته السياسية ، بينما كان كرم المختار وبذله الأموال للعمامة والخاصة من أبرز عوامل

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢١ .

(٢) الكامل ج ٣ ص ٩٥ .

نجاح حركته في العراق ، وتفوقها على الحركة الزيرية . ونظم
الشعراء قصائدهم يصفون بخل ابن الزبير ، فقال أحدهم :
رأيت أبا بكر وربك غالب على أمره يبغي الخلافة بالتمر
بل هجاء مولى من مواليه وهو أبو حرة ، فوصف شحته في
بيتين فقال :

ما زال في سورة الأعراف يقرؤها
حتى فؤادي مثل الخزف في اللين
لو كان بطنك شبرا قد شبت وقد

أفست فضلا كبيرا للمساكين
فقد كان ابن الزبير كما يروي المسعودي ^(١) يظهر « الزهد في
الدنيا ، والعبادة ، مع الحرص على الخلافة ، وقال : إنما يطني
شبر ، فما عسى أن تسع ذلك من الدنيا ، وأنا العائد بالبيت ،
والمستجير بالرب . وكثرت أذيته ليني هاشم ، مع شحته بالدنيا
على سائر الناس » .

ويقول ابن طباطبا ^(٢) عنه أيضا أنه « كان عظيم الشح فلذلك
لم يتم أمره » . وذكر البلاذري ^(٣) اليتيم اللذين هجا الشاعر
الضحاك بن فيروز الديلمي بهما ابن الزبير ، وهما :
تقول لنا أن سوف يكفيك قبضة

وبطنك شبر أو أقل من الشبر

(١) مروج الذهب ، ج ٣ ص ٢٢٢ .

(٢) الفخرى ص ١٠٥ .

(٣) أنساب الأشراف ج ٤ ص ٢٧ .

وَأنت إذا ما نلت شيئاً قضيته

كما قضيت نار الغضى حطب السدر

توقع الخليفة عبد الملك بن مروان نجاح المختار ، واخفاق ابن الزبير ، وإن كان قد ترك الرجلين يتصارعان ، والحركتين تصطدمان . وكان عبد الملك يذم ابن الزبير ، فيقول : « إن ابن الزبير لا يصلح أن يكون سائساً ، وكان يعطى مال الله كأنه يعطى ميواث أبيه » ووصف المؤرخ (أوكلی) ^(١) ابن الزبير بأنه كان على نصيب غير عاды من الشجاعة ، إلا أنه كان شحيحاً لأقصى حد ، وقد أدى هذا الى شيوع مثل بين العرب بأنه ليس هناك رجل يفوق ابن الزبير في الشجاعة والبخل .

ثانياً - اهمال ابن الزبير عنصر الدعاية واهتمام المختار به :

لابد لنجاح أية حركة سياسية من عاملين هامين ، أولهما بث الدعوة في شتى الأرجاء ، وثانيهما الدعاية لها بكل الوسائل . ولكن ابن الزبير أهمل هذين العاملين الهامين ، اذ قبع في مكة واعتمد في نشر الدعوة له على رجال غير جديرين بثقته العمياء التي وضعها فيهم . فهذا هو الضحاك بن قيس الذي عهد اليه بنشر الدعوة للحركة الزبيرية في الشام ، قد أصبح طامعاً في الخلافة ، فترك الدعوة لابن الزبير ، وطلب من الناس أن يبايعوا له بالخلافة ، فانقض أهل الشام عن الضحاك وعن ابن الزبير ، وبايعوا مروان بن الحكم .

كما اعتمد ابن الزبير في الدعوة له بالعراق على شخصيات ضعيفة أمثال عبد الله بن يزيد و ابراهيم بن محمد بن طلحة ، فأساءوا الى دعوة ابن الزبير ولم يفيدها شيئاً على الإطلاق ، بل أغضبوا أهل العراق ودفعوا بهم الى تعزيد المختار . كما أن ابن الزبير لم يهتم بنشر دعوته في مصر ، فاقصر أمر الدعوة على المجهود المحدود الذي بذله ابن جحدم ، الذي فرض نفسه واليا يمثل ابن الزبير . حتى اذا قدم مروان بن الحكم على رأس جيش أموى ، نقض المصريون بيعه ابن الزبير وبايعوا لمروان بالخلافة .

لجأ ابن الزبير الى الارهاب والاجبار في نشر الدعوة ، ولم يهتم بوسيلة الاقتناع المثلى وهى الدعاية على نطاق واسع وخير وسائل الدعاية فى ذلك العصر الشعر والشعراء . بينما اهتم الأمويون بتقريب الشعراء ، وغمروهم بالأموال والصلوات ، فلهجت ألسنتهم بالثناء على الدولة الأموية ، وهجاء ابن الزبير ، وقد مر بنا أبيات من الشعر تصف بخل ابن الزبير . واستفاد المختار من هجاء الشعراء لابن الزبير ، فقد كان الشعر سلاحاً ماضياً ، وموعولاً يهدم به الحركة الزبيرية .

وفى نفس الوقت ، اهتم المختار بنشر دعوته ، والدعاية له فى كل مكان ، وبكل وسيلة . فقد بدأ يدعو لنفسه منذ اللحظة الأولى لظهوره على المسرح السياسى ، وفتح داره — على ما مر بنا — أمام مسلم مبعوث الحسين الى العراق ، وأصبحت داره أشهر دور الكوفة ، وسمع بالمختار من لم يسمع به من قبل . وفى

طريق المختار الى الحجاز ، بعد فنيه ، حرص على انه يشرح لكل من التقى بهم في الطريق أهدافه السياسية ومراميه ، فكان ممن التقى بهم رجل يدعى ابن العرق ، فقال المختار له : « يا ابن العرق ، ان الفتنة قد أرعدت وأبرقت وكان قد انبعثت فوطئت في خطامها ، فاذا رأيت ذلك وسعت به بمكان قد ظهرت فيه فقل ان المختار في عصائبه من المسلمين يطلب بدم المظلوم الشهيد المقتول سيد المسلمين وابن سيدها الحسين بن علي » (١) . ولما أبى ابن الزبير تحقيق آمال ابن الزبير غادره الى الطائف ، وأعلن لكل من التقى به أنه سيقضى على الظلم والجبروت ويشور على الجبارين الطغاة ، فكان يقول : « أنا مبيد الجبارين » ، كما قال أيضا : « أنا صاحب الغضب ومسير الجبارين » (٢) .

وعندما خرج المختار من الحجاز الى العراق ، لقي بعضهم في الطريق ، فاستفسر منهم عن أهل العراق ، ثم قال لهم : « أنا أبو اسحق ، أنا والله لهم ، ان أجمعهم على الحق ، وألقى بهم ركبان الباطل ، وأهلك بهم كل جبار عنيد » (٣) . وما كاد المختار يدخل العراق ، حتى أخذ يمر على أحياء الكوفة حيا بعد حي ، وهو يسلم على أهله ويقول لهم : أبشروا بالنصر ، « فسلم عليه الناس وأقبلوا عليه وعظموه ، وجعل يدعو الى امامة المهدي محمد ابن الخفية ، ويظهر الانتصار لأهل البيت ، وأنه ما جاء الا بصدد

(١) الطبري ج ٤ ص ٤٤٣ .

(٢) البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢١٦ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٧٢ .

أن يقيم شعارهم ، ويظهر منارهم ، ويستوفي ثأرهم » (١) . وتحدث
المسعودي (٢) عن جهود المختار في الدعاية ، فقال انه « جعل يظهر
البكاء على الطالبين وشيعتهم ، ويظهر الحنين والجزع لهم ، ويحث
على أخذ الثأر لهم ، والمطالبة بدمائهم ، فمالت الشيعة اليه ،
وانضافوا الى جملة » .

ولما بدأ المختار يستعد للقضاء على قتلة الحسين ، رأيناه
يستأجر النواحي ويأمرهن بالطواف بطرقات الكوفة ينوحن
ويولولن ويرثين الحسين بصارات تهب مشاعر الكوفيين وتحثهم
على الالتفاف حوله في طلب قتلة الحسين . وقد رأينا المختار
يستغل اضطهاد ابن الزبير لابن الحنفية وبنى هاشم استغلالا
واسع النطاق في الدعاية للمختار باعتباره نصيرا لابن الحنفية
والهاشميين وشيعتهم ، وفي صرف الناس عن الحركة الزبيرية في
العراق (٣) .

ثالثا - سوء اختيار ابن الزبير لولائه بالعراق :

كان ابن الزبير في حاجة ماسة الى تأييد العراق ، وكان يعلم
تماما أن العراق صار مسرحا لحركات سياسية شتى ، فهناك
التوابون وحزب المختار وفرق الخوارج وأنصار بني أمية ، الى
جانب انقسام أهل العراق الى طبقتين اجتماعيتين متميزتين

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٩ .

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٢١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٠٥ .

متنازعتين ، وهما العرب والموالي الفرس . فكان من الضروري لنجاح دعوة ابن الزبير أن يتعهدا رجل قوى يستطيع أن يضرب هذه الأحزاب والفرق بعضها ببعض ، ويدير دفة الأمور في مهارة ودهاء ، حتى يحقق نجاح هذه الدعوة .

ولكن ابن الزبير أخفق في اختيار نذ للمختار ، وأساء دائما الاختيار . فقد اختار عبد الله بن يزيد ، وكان رجلا ساذجا متواكلا لا يعرف الحزم والدهاء ، وقد رأينا موقفه المضطرب من حركة التوابين . ثم اختار ابراهيم بن محمد بن طلحة وهو رجل يكره الشيعة ويكرهونه ، فهو لم ينس بعد أحقاد القديمة ، فكرهت الشيعة ابن الزبير في شخص عامله ، واندفعوا نحو لواء المختار . ويقص ابن الأثير^(١) قصة تبين سذاجة عبد الله بن يزيد و ابراهيم ، فقد تقدم اليهما أشراف العرب في الكوفة مثل عمر ابن سعد بن أبي وقاص وشبث بن ربعي ، فقالوا لهما : ان المختار أشد عليكم من سليمان بن صرد ، انما خرج سليمان يقتل عدوكم ، وان المختار يريد أن يشب عليكم في مصركم ، فأوثقوه واسجنوه حتى يستقيم أمر الناس ، فأتوه وأخذوه بغتة ورفض ابن يزيد هذا الاقتراح وقال : ما كنت لأفعل هذا برجل لم يظهر علينا غدره ، انما أخذناه على الظن ! .

وأخطأ ابن يزيد و ابراهيم في استجابة شفاعة ابن عمر في المختار ، فأطلقا سراحه ، فخرج يسخر منهما ومن سذاجتهما .

(١) الكامل ج ٤ ص ٨٩ .

وشعر ابن الزبير أخيراً بعدم صلاحية عامليه فعزلهما ، ولكنه لم يختار بدلها ذلك الرجل القوي الحكيم الذي كانت دعوته في حاجة إليها ، بل اختار عبد الله بن مطيع وهو رجل بدوي غير خبير بالسياسة وأساليب الحكم ، كما كان صديقاً حميماً للمختار ، فسار في أهل الكوفة سيرة أثارت كراهيتهم له ولخليفته ابن الزبير ، على حين « أقبل المختار يمني الناس ويستجدي مودة الأشراف ويحسن السيرة » (١) . ونجح المختار في عزل ابن مطيع ورشاه بالمال فاستكان بالبصرة ، واختار ابن الزبير خلفاً لابن مطيع أضعف من سلفه ، وهو عمر بن عبد الرحمن بن الحرث الذي استطاع ابن الزبير أن يرشوه أيضاً . وأدرك ابن الزبير أخيراً — ضعف هؤلاء الولاة ، فبعث أخاه مصعب بن الزبير والياً ، وإن كان ابن الزبير قد أحسن الاختيار ، إلا أن ذلك جاء متأخراً .

رابعاً : تمجيد ابن الزبير لعثمان ، وتمجيد المختار لعل وأولاده :

اتبع عثمان بن عفان سياسة أغضبت الأمصار الإسلامية جميعها عامة ، وبلاد العراق حيث شيعة علي خاصة . ولكن ابن الزبير استمر إلى آخر لحظة في حياته يمجّد ذكره ويعظم من شأنه ، غير عابئ بشعور أهل الأمصار ولا سيما أهل العراق الذين يبغضون عثمان . ولا شك في أن ابن الزبير قد أخطأ في تمسكه بتمجيد عثمان برغم مرور سنوات كثيرة على وفاته ، فقد كان عثمان قبل أن يكون خليفة زعيماً لبنى أمية الذين ينازعهم ابن الزبير في تلك

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٩٥ .

الآونة ، والذين اتخذوا من طلب ثار عثمان وسيلة لتأسيس الدولة
الأموية .

وكانت بلاد العراق أكثر الأمصار الإسلامية مقتلا لعثمان ، فقد
كان معظم العراقيين من شيعة علي بن أبي طالب ، الذين لم ينسوا
أن عثمان انتزع الخلافة بغير حق من علي ، وأن آل بيته من بنى
أمية قتلوا الحسين . ولما كان ابن الزبير في حاجة الى تأييد
العراق ، لم يكن هناك ما يدعو الى أن يطلب من عامله عبد الله
ابن مطيع أن يجمع الفئء على سيرة عثمان بن عفان دون سيرة
علي ابن أبي طالب الذي كانوا يتشيعون له .

وستان بين موقف ابن الزبير وولائه بالعراق ، وموقف المختار
الذي أعلن ولاءه لعلي بن أبي طالب وأولاده . فقد جعل داره
تحت تصرف مسلم بن عقيل وأنصاره من الشيعة ، يتلقى فيها
بيعتهم . وأعلن المختار أنه أمين ابن الحنفية ووزيره ، وكان لا يقطع
صلاته وهداياهم عنه وعن بنى هاشم ، وتتبع قتلة الحسين بن علي
في الكوفة ، فقتلهم وهدم دورهم وأشفى غليل بنى هاشم والشيعة ،
وقضى على ابن زياد قاتل الحسين ، وساند ابن الحنفية والهاشميين
حينما اضطهدهم ابن الزبير وأراد قتلهم فبعث جيشا من العراق
لنجدتهم ، فكف ابن الزبير عن ايذائهم .

خامسا - ابن الزبير لا يطلب ثار الحسين ، والمختار يقضى على قتلة
الحسين :

كان ابن الزبير في حاجة الى تأييد العراق ، وكانت بلاد العراق
كما وصفها علي بن أبي طالب موطن المال والرجال ، وكان معظم

أهالي العراق من شيعة على كما تعلم ، وقد آلمهم اقدام والى
الأمويين ابن زياد على قتل الحسين ، وباتوا يترقبون للأخذ
بثأره ، وانضم العراقيون الى كل ثائر أو خارج على طاعة الأمويين .
كان ابن الزبير — ولا شك — عالما بهذه الظروف ، فكان
عليه أن يبدى لأهل العراق رغبته في تحقيق رغبتهم في الأخذ
بثأر الحسين من قتلة الحسين الذين كانوا لا يزالون يقيمون في
الكوفة والبصرة في حرية تامة . ونسى ابن الزبير أن من صالحه
اثارة مشاعر أهل العراق ضد الأمويين ليهبوا لقتال ابن زياد الذي
قدم الى العراق على رأس جيش أموي لاتزاع العراق من ولادة
ابن الزبير ، وكان ابن زياد يمثل عدوا مشتركا لكل من ابن الزبير
وأهل العراق ، من صالحهم جميعا الاتحاد لمواجهة . كما أن
انشغال ابن زياد بقتال العراقيين يشغله عن الانضمام الى الجيش
الأموي الآخر الذي بعثه مروان بن الحكم الى المدينة لقتال
ابن الزبير .

ولكن ابن الزبير لم يحرك ساكنا ، ولم يؤيد المطالبين بثأر
الحسين ، بل وقف منهم موقفا سلبيا ، فقد امتنع عن مساعدة
التوايين ماديا ، فلم يمدّهم بما كان ينقصهم من مال وسلاح ومؤن ،
فحرم الحركة الزبيرية من الاستفادة من هؤلاء التوايين المتحمسين
لقتال الأمويين أخذا بثأر الحسين .

رأت شيعة العراق أن وقوف ابن الزبير في وجه المختار الذي
يطالب بثأر الحسين ، يعتبر موقفا عدائيا بالنسبة لهم ، وخاصة
أن أهل الكوفة لم ينسوا يوم خطب ابن الزبير في أهل الحجاز على

أثر مقتل الحسين بن علي وأخذ يسوق السباب وأقذع الشتائم لهم
واتهمهم بخذلانهم الحسين (١) .

وأين هذا الموقف الذي وقفه ابن الزبير من ثار الحسين مما
وقفه المختار ؟ لقد أعلن المختار منذ أول وهلة أنه ينوى القضاء
على قتلة الحسين . وكان يأمر بعض أنصاره بتمثيل مأساة كربلاء
ليعبر عن مشاعر الشيعة . ثم بدأت المرحلة الحاسمة فتتبع المختار
قتلة الحسين في الكوفة بالقتل ، ثم قضى على ابن زياد المسئول
الأول عن قتل الحسين . وكان شعار المختار دائما أبدا : « يا ثارات
الحسين » ، يصيح به جنده في كل زمان ومكان . ولم يشعر ابن
الحنفية وسائر بني هاشم بالفرح والسرور الا يوم قتل المختار
ابن زياد ، فقد خر ابن الحنفية ساجدا شاكرًا لله عز وجل ،
ولسانه يلهج بالدعاء والثناء على المختار الذي شفى غليلهم .

سادسا - اضطهاد ابن الزبير لابن الحنفية وبني هاشم واکرام
المختار لهم :

شهد التاريخ تنافس بني هاشم وبني أمية على الخلافة ، فقد
كانت النبوة في بني هاشم فزادت من قدرهم ، فحقد عليهم بنو أمية
وجاهدوا في انتزاع الخلافة من أيديهم . وتجلّى هذا واضحا في
نجاحهم في دفع عثمان بن عفان الى عرش الخلافة ، ثم توجوا هذا
النجاح حينما وضع معاوية بن أبي سفيان أسس الدولة الأموية ،
فوقف بنو هاشم من الحكم الأموي موقف المعارضة . فكان على

(١) الطبري ج ٤ ص ٣٦٤ .

ابن الزبير أن يحالف بنى هاشم أو يهادنهم على الأقل ، فقد كان المسلمون يحترمونه إلى درجة التقديس ، فهم آل بيت الرسول عليه السلام ، فكان لهم في كل مصر من الأمصار آلافا من الأنصار . ولكن ابن الزبير وقف منهم موقفا عدائيا ، واضطهدهم ونكل بهم ، فجلب بذلك عليه سخط المسلمين جميعا . فلم ير ابن الزبير حرجا في حبس الحسن بن محمد بن الحنفية بل وحاول قتله ، لولا أن ساعدته الأقدار على الهرب . وحصر ابن الحنفية وبعض الهاشميين وأراد قتلهم حرقا ، مما أغضب المسلمين على اختلاف مذاهبهم ، وكان في حاجة إلى تأييدهم . وفي ذلك يقول أبو حرة وكان مولى من موالى الزبير (١) :

فيا راكبا أما عَرَضْتَ فَبَلَّغْنِي كبيرَ بَنِي العِوَامِ إِنْ قِيلَ مِنْ تَعْنِي
تَخَبَّرُ مِنْ لَاقَيْتَ أَنَّكَ عَائِدٌ وتكثر قتلا بين رَمَزِمِ والركن
أما المختار ، فقد أدرك أنه في العراق حيث شيعة على ،
واتخذ من بنى هاشم وابن الحنفية عمدا لحركته السياسية ووسيلة
لتحقيق أطماعه ، لا سيما أنه كان يعرف موقف ابن الزبير العدائي
من بنى هاشم ، فقد أنزل بهم الاضطهاد . وسعى المختار لنيل
تأييد على بن الحسين ، فكتب إليه يعرض عليه أخذ البيعة له ،
ولكن عليا آثر السلام والهدوء ، فتحول المختار إلى عمه ابن
الحنفية ، فبدأ يدعو أهل العراق باسمه ، باعتباره وزيره في

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٢ .

العراق . واستشار ابن الحنفية عبد الله بن عباس فيما ذهب اليه المختار من أنه وزيره وأمينه ، فنصحه ابن عباس بأن يوافق المختار في كل ما ذهب اليه المختار فكاية في ابن الزبير « فأطاع ابن عباس وسكت عن عيب المختار ، واشتد أمر المختار بالكوفة ، ومال الناس اليه » (١) .

وقد استفاد المختار من حبس ابن الزبير لابن الحنفية ومحاولة قتله حرقا ، فقد استطاع أن يثير سخط المسلمين عامة وشيعة العراق خاصة ، وتضاعف عدد أنصار المختار ، فقد بدا للمسلمين أن ابن الزبير قد شرع في مأساة أخرى مثل كربلاء . وكتب ابن الحنفية الى المختار يسأله النجدة ، واستغل المختار كتاب ابن الحنفية في ايفار الصدور على ابن الزبير ، والظهور أمام الناس بمظهر النصير لآل علي .

سابعا - مكر المختار بابن الزبير :

كان المختار أكثر دهاء وذكاء من ابن الزبير ، فانه على الرغم من موقف المختار العدائي من ابن الزبير وعزله عامله عبد الله بن مطيع ، أراد أن يمكر به متظاهرا بالتوبة وطلب مودته . وفي ذلك روي ابن الأثير (٢) : « فلما استجمع المختار أهل الكوفة أخذ يخادع ابن الزبير فكتب اليه : قد عرفت مناصحتي اياك وجهدي على أهل عدوتك ، وما كنت أعطيتني اذا أنا فعلت ذلك ، فلما

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٢١ .

(٢) الكامل ج ٤ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

وفيت لك لم تف بما عاهدتني عليه ، فان ترد مراجعتي ومناصحتي فعلت والسلام . ثم ان عبد الملك بن مروان بعث عبد الملك بن الحرث الى وادي القرى ، وكان المختار قد وادع ابن الزبير ليكشف عنه ليتفرغ لأهل الشام ، فكتب المختار الى ابن الزبير : فقد بلغني أن ابن مروان قد بعث اليك جيشا ، فان أحببت أمددتك بمدد . فندعا المختار شرحبيل بن ورس الهذاني فسيره في ثلاثة آلاف أكثرهم من الموالي ، وليس منهم من العرب الا سبعمائة رجل ، وهو يريد اذا دخلوا المدينة أن يبعث عليهم أميرا ، ثم يأمر ابن ورس بمحاصرة ابن الزبير بمكة . ولكن شاءت الأقدار أن يدرك ابن الزبير مكيدة المختار فأحبطها .

ثامنا - اعتماد ابن الزبير على العرب واعتماد المختار على العرب والموالي :

كان في العراق طبقتان اجتماعيتان متميزتان : الأولى طبقة العرب الأشراف أصحاب الاقطاعات الواسعة ، والثانية طبقة الموالي ، وهم المسلمون من غير العرب ، وكان الموالي دائما في منزلة سياسية واجتماعية أدنى من العرب ولاقوا كثيرا من العنت والاحتقار من العرب على ما بينا .

وقد وقف ابن الزبير من الموالي دائما موقفا عدائيا ، وراح ينصر العرب الأشراف ، واعتمد في حركته على العنصر العربي دون الموالي الذين كان يحقرهم ويستصغر شأنهم ، مما أدى الى فقدته تأييد الموالي الذين يمثلون غالبية سكان العراق . وفي الوقت نفسه كان العنصر العربي يفقد الكثير من المقومات التي تجعله

عنصرًا فعالاً في ميادين السياسة في ذلك الحين ، اذ عادت روح
العصبيّة القبليّة الى الظهور ، ونرى هذه العصبيّة على صورتها
الكاملة في نزاع بني هاشم وبني أمية الذي انتهى بانتصار معاوية
ابن أبي سفيان وقيام الدولة الأموية ، فبدأت صفحة جديدة من
كفاح الهاشميين للأمويين . بل ان الدولة الأموية نفسها قد نال
منها روح العصبيّة القبليّة ، وخير مظهر لها موقعة مرج راهط
التي دارت رحاها بين قيس وكنب . ولم يكن في انتصار مروان
ابن الحكم اسدال الستار على روح التعصب بين هذين الفريقين
الكبيرين المتعادين ، فقد رأيناها في موقعة خازر سنة ٦٧ هـ في
عهد عبد الملك بن مروان .

لم يستفد ابن الزبير طوال تاريخه شيئاً من اعتماده على العنصر
العربي في العراق ، فقد وقفت معاوتتهم الى حد الخطب الحماسية ،
حتى اذا جاء دور القتال والنضال أسرعوا الى التخاذل والتحرر
من وعودهم . وقد مر بنا مقدار تمسكهم بوعودهم للحسين بن
علي . وكان العرب الأشراف يتقلبون بين تيارات السياسة في كل
يوم ، فهم تارة على أو مع الأمويين أو الزبيريين أو المختار ، وانما
يسعون وراء الدرهم والدينار .

أما المختار فقد أدرك أن الموالي يمثلون غالبية سكان العراق ،
فجعلهم عدته ، ولكنه لم ينس أن يتقرب الى العرب الأشراف (١) .
ورأى الموالي أن يستعينوا بالمختار ليحققوا آمالهم بارجاع

(١) الطبري ج ٧ ص ١٠٩ .

السيادة القومية ، والقضاء على الدولة الأموية التي تعصبت للعرب والعروبة . فانضم عشرون ألفا منهم الى جيش المختار ، وكانوا يسمون الجند الحمر وكلهم من أبناء الفرس . وعرف المختار لهم جميلهم فأشركهم مع العرب في العطاء . ووعدهم بأن يعطيهم « أموال ساداتهم » (١) .

كان المختار على حق في عدم اعتماده كلية على العرب الأشراف ، فقد انتهزوا فرصة خروج جيش ابراهيم بن الأشتر الى الموصل لقتال جيش الشام الذي قدم بقيادة عبيد الله بن زياد ليطعنوا المختار من الخلف وهو أعزل من سلاح أنصاره وجنده ، فأعلنوا العصيان والثورة ، ولولا أن خدعهم المختار ، وأسرع ابن الأشتر بالعودة الى الكوفة ، لقضى هؤلاء الأشراف على المختار تماما (٢) .

ويرى المؤرخ (فلهوزن) (٣) للمختار العذر في عدم اعتماده على العرب الأشراف في الكوفة فيقول : كان التشيع في الكوفة آنذاك قد لبس ثوبا جديدا ، وقد عرفنا من قبل المعنى الذي كان يدل عليه في الأصل . لقد كان تعبيراً عن الاتجاه السياسي العام لمعارضة العراق لسلطان الشام . وفي بادئ الأمر كان الأشراف صفا واحداً مع سائر الناس ويتولون قيادتهم . ولكن حينما أحرق

(١) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٣٢ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٩٧ .

(٣) الخوارج والشيعة ص ٢٣٨ .

الخطر تراجعوا واستلنوا لاغراء الحكومة الأموية في الشام ، ثم استخدموا للقضاء على الثورات الشيعية .

وبهذا انفصل الأشراف العرب عن الشيعة ، فتحدد نطاق التشيع واتخذ شيئا فشيئا صورة فرقة دينية في تعارض مع الأرستقراطية ، ونظام العشائر ، وأصبح بفضل استشهاد زعمائه وأوليائه ذا طابع مثالي خيالي . وكان أنصار سليمان بن صرد يرمون الى الثورة على أرستقراطية العشائر في الكوفة . ولكن المختار كان أول من نفذ هذا الغرض وحققه عمليا .

موقف المختار من الخوارج

نبذة عن الخوارج - موقف موالى العراق من الخوارج -
المختار مع الخوارج في أثناء حصار مكة - هل كان المختار
موافقا للخوارج على آرائهم خلال حصار مكة؟ - العراق بين
المختار والخوارج - استفادة المختار من حركة الخوارج
بالعراق •

الفصل التاسع

موقف المختار من الخوارج

نبذة عن الخوارج :

كان التحكيم في موقعة صفين التي دارت رحاها بين جيش على بن أبي طالب ، وجيش معاوية بن أبي سفيان ، هي نقطة انطلاق حزب الخوارج . فقد قبل على التحكيم ، ولكن ظهر من بين جند على جماعة تنكر أن يحكم أحد في كتاب الله ، ورأوا أن قبول على التحكيم يعتبر منه كفرا وضلالا ، لأن التحكيم يتضمن شك كل من الفريقين المتحاربين في أيهما الحق ، ولا محل لهذا الشك ، فقد حاربوا وهم مقتنعون بأن الحق في جانبهم ، ولذا رأوا أن يتابعوا القتال حتى ينزل الله حكمه ، فيحقق النصر لأحد الفريقين على الآخر .

وكان الغرض الظاهر من اجتماع الحكمين تحكيم القرآن بدلا من تحكيم السيف ، ولكن أهل العراق كانوا يرون أن الاجتماع ليس الا مسألة شكلية ، فهم يعتقدون أن فوز على بن أبي طالب محقق ، حيث انه لا يوجد من يفضل في تولية الخلافة .

أما أهل الشام فكانوا يعتقدون أنهم يجاربون طلبا لثأر عثمان ،
لا في سبيل جعل معاوية خليفة ، فقد أخبرهم معاوية أن قتلة عثمان
في جيش على ، وأن عليا يأبى عقابهم (١) .

خرج الخوارج من الكوفة الى بلدة قريبة يقال لها حروراء ،
حتى يكونوا بعيدين عن رقابة على . وهناك تزعمهم عبد الله بن
وهب الراسبي وبايعوه بالخلافة (٢) ، وشبهوا هجرتهم من الكوفة
الى حروراء بهجرة الرسول من مكة الى المدينة . واتفقوا على
قتال على في مدينة النهروان .

وعلى الرغم من انتصار على في النهروان ، فإن هذه الموقعة
لم تكن خاتمة النضال مع الخوارج ، كما لم تستأصل شأفة الفرقة ،
فقد أصيبت الحية ولكنها لم تقتل ، بل أدت النهروان الى اثارة
روح التعصب الديني في البصرة والكوفة ، ولكن في صورة
سرية (٣) . كما أن هزيمة الخوارج أدت الى تركيز المذهب
الخارجي واقامته على قواعد ثابتة . ونظر الخوارج الى قتلى
النهروان نظرة الشهداء ، وباتوا يتحينون الفرصة للأخذ بثأرهم ،
وفتحت هزيمة النهروان بابا جديدا لعداء الشيعة والخوارج ،
وكانت النهروان بالنسبة للخوارج مثل كربلاء بالنسبة للشيعة (٤) .
ثم كانت نهاية حياة على بن أبي طالب على يد أحد الخوارج .

(١) الدينوري : الأخبار الطوال ص ١٦٦ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٧٧ .

(٣) Muir : The Caliphate, P. 286

(٤) Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, P. 208

بين مبادئ المختار ومبادئ الخوارج :

كانت مبادئ المختار هي مبادئ الشيعة ، وكانت غاية الشيعة في أول ظهورهم لا تعدو المطالبة بحق علي في الخلافة بعد الرسول . ولما تولى علي الخلافة اعتبروه الوصي والامام ، وقالوا : « ليست الامامة قضية مصلحة تناط باختيار العامة ، ويتنصب الامام بنصبهم ، بل هي قضية أصولية ، هي ركن الدين لا يجوز للرسول عليه السلام اغفاله واهماله ولا تفويضه الى العامة وارساله ، ويجمع القوم بوجوب التعيين والتخصيص ، ويشوب عصمة الأئمة وجوبا عن الكبائر والصغائر » (١) . ولذا رأوا أن عليا رضي الله عنه هو الذي عينه رسول الله بعده .

وتطور حزب الشيعة بعد حرب صفين ومقتل علي بن أبي طالب تطورا واضحا ، فاقترصر نفوذ الحزب على بلاد العراق ، فكان بالحجاز أولاد الصحابة ، وفي مقدمتهم عبد الله بن الزبير ، وكانوا لا يقرون الشيعة على مبادئهم . وصبغت مبادئ الشيعة السياسية بصبغة دينية ، لأن الرسول كان حاكما دينيا ودنيويا . وبعد مقتل علي تكون حزب ديموقراطي يتألف بصفة خاصة من العناصر العربية وانضم اليه عدد كبير من الموالي . وهو الحزب الذي استطاع المختار أن يقطع جانبا كبيرا منه ويجعل منه حزبا خاصا به ، يحتفظ بمبادئ الشيعة ، ولكن يدين له بالولاء .

(١) مقدمة ابن خلدون .

رأى المختار وأنصاره من الشيعة أن تولية معاوية بن
أبي سفيان وابنه يزيد غير صحيحة ، وزأوا أن الحسن بن علي
ثم أخاه الحسين هما الخليفتان الشرعيان لعليّ ، باعتبار أنهما
ورثا مرتبة عليّ في رئاسة الدولة وولاية الحكم فيها ، وفي العلوم
والصفات الروحية التي اختص بها ، وكل امام منهما وصي لسلفه
الذي عينه باقراره الصحيح . ويعد المختار والشيعة كل دستور
غير هذا للخلافة اغتصابا وقهرا ، وعلى هذا تكون خلافة معاوية
وابنه باطلة ، بل أمرا مخالفا للدين ، مما يوجب مناهضة الخلافة
الأموية حتى يعود الحق لأصحابه الأصليين .

وضع المختار هذه المبادئ موضع التنفيذ ، فأعلن تأييده
للحسين بن علي ، ووضع داره كما بينا تحت تصرف رسوله وابن
عنه مسلم بن عقيل ، وجمع الشيعة حوله ، ثم أعلن بعد مصرع
الحسين أنه وزير محمد بن الحنفية ونائبه بالعراق .

أما الخوارج ، فقد نادوا بمبادئ سياسية دينية تخالف تماما
ما نادى به المختار وأنصاره من الشيعة . وأبرز هذه المبادئ
وأيهم في التحكيم ، فقالوا : أخطأ عليّ في التحكيم ، إذ حكم
الرجال ولا حكم الا لله . وتخطوا عن التخطئة الى التكفير (١) .
وكان هؤلاء الخوارج « يخرجون بسيوفهم في الأسواق فيجتمع
الناس على غفلة فينادون لا حكم الا لله ، يضعون سيوفهم فيمن
يلحقون بالناس ، فلا يزالون يقتلون حتى يقتلوا ، وكان الواحد

(١) الشهر ستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٧٥ .

منهم اذا خرج لا يرجع أو يقتل ، فكان الناس منهم على وجل وقتنة » (١) . وهم لا يكفرون عليا فحسب ، بل كذلك يكفرون عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعائشة زوجة الرسول ، والحكمين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري ، بينما يعظمون أبا بكر وعمر بن الخطاب .

ومن أهم مبادئهم التي تتعارض تماما مع آراء المختار والشيعة ، رأيهم في الخلافة . فيرى الخوارج صحة خلافة أبي بكر وعمر بن الخطاب بصحة انتخابهما ، وقالوا بصحة خلافة عثمان في سنته الأولى ، كما أقرّوا بصحة خلافة علي بن أبي طالب ، ولكنهم قالوا انه أخطأ في التحكيم وحكموا عليه بالكفر . بينما يرى المختار والشيعة أن عليا صاحب الحق الشرعي في الخلافة بعد وفاة الرسول مباشرة ، ولذا فهم لا يعترفون بأحقية أبي بكر وعمر وعثمان في تولي الخلافة بعد الرسول ، وهم يعظمون عليا ويحيطونه بهالة من التقديس ، ويعتبرون الخوارج من جنده خارجين على طاعة علي ويحق له قتالهم .

ووضع الخوارج أسسا لاختيار الخليفة ، تخالف دائما نظرية المختار والشيعة في الخلافة . فيرى الخوارج أنه من الجائز اختيار الخليفة من غير قريش ، واذا حاد الخليفة عن الحق جاز عزله أو قتله ، ومن حق كل مسلم تتوافر فيه الكفاية والعدل أن يتولى الخلافة ، عربيا أو غير عربي ، حرا أو مولى أو عبدا (٢) . أملا

(١) الملطي : التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ، ص ٤٧ .

(٢) الرازي : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٤٦ .

المختار والشيعة فيجعلون الخلافة مقصورة على بيت علي بن أبي طالب دون غيرهم من المسلمين ، تنتقل من علوي الى آخر بالوراثة ، باعتبارهم جميعا نسل علي وصي النبي ، ويطلقون على الخلافة اسم « الامامة » ، فيسبغون عليها صفة دينية روحية . ولذا ترى الشيعة أنه لا يجوز عزل الخليفة أو الثورة عليه .

وتتجلى النزعة القبلية في مبادئ الخوارج السياسية ، فقد ملوا الخضوع للسلطان والحكم المركزي ، ونرى فيها معالم السخط على قريش ، والتذمر من استئثارها بالخلافة ، فتربصوا الفرص لعلّى ، ووجدوها بعد قبوله التحكيم ومحوه لقب امرة المؤمنين من صحيفة التحكيم ، فأعلنوا انتزاع الخلافة من قريش ، ورأوا أن تعقد الخلافة لأفضل أبناء الأمة الاسلامية عن طريق الاختيار المطلق من كل قيد ، بل ذهبوا الى أن « عبدا حبشيا » لا يقل أهلية للخلافة واستعدادا عن سليل أعظم القبائل حسبا ونسبا . فهم لم يعودوا ينظرون الى قريش نظرة تقديس ، فرغبوا في رئيس من دمائهم حتى يستطيعوا طاعته . واعتبروا حديث الرسول « الامامة في قريش » حديثا موضوعا لا يعتد به .

وهكذا خالف الخوارج المذهب الشيعي الذي يجعل الخلافة في بيت الرسول ، والمذهب السني الذي يدعو الى أن تكون الخلافة في قريش . ويرى الخوارج أن الخليفة مرغم على قبول الخلافة ولا يحق له النزول عنها ، وإذا غير سيرته وحاد عن الحق ، وجب عزله أو قتله . بل يغالون فيرون أنه اذا لم تمكنهم الظروف من تحقيق الأسس التي وضعوها لاختيار الخليفة فلا مانع من

الاستغناء عن الحكومة وعن الخلافة (١) ، لأن الناس يتوازعون ويتكافون باحتياج بعضهم الى بعض واشتباك علاقاتهم ، ففي ذلك ما يكفي لردهم عن الظلم وصددهم عن الجور وعدم الانصاف. أما المختار والشيعة فيعتبرون الخلافة « قضية أصولية » و « ركن الدين » ، وأنه لابد من « التعيين والتخصيص » في نظام الخلافة. واعتقد بعض الشيعة من أنصار المختار بالرجعة ، فيعتقدون أن علي بن أبي طالب قد صعد الى السماء وأنه سينزل الى الدنيا وينتقم من أعدائه (٢) ، ودفعهم هذا الاعتقاد الى التحمس لعلی وأبنائه ، فكانوا يقبلون على الموت معتقدين اعتقادا راسخا بأنهم سيعودون الى الحياة بعد قليل (٣) .

وكان الخوارج يعتبرون أنفسهم أنهم الفئة المسلمة المؤمنة حقا ، وأن من سواهم من المسلمين يجب عليهم جهادهم وردهم الى حظيرة الدين . ووضعوا برنامجهم على أساس العودة الى مبادئ الاسلام الأولى ، التي تحض على المساواة والاخاء ، والتي انعدم وجودها وقت ظهور الخوارج ، ولا غرو فقد انضم اليهم المسلمون الأتقياء رغبة في الإصلاح ، وراعوا نصوص القرآن ودعوا الى التمسك بالوحدة الاجتماعية والاخاء الاسلامي اللذين تميزت بهما الجماعة الاسلامية الأولى . ولذا يخضع

(١) نشوان الحميري : الحور العين ص ١٥٠ .

(٢) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١٤٣ .

(٣) كريم : الحضارة الاسلامية ص ٧٥ .

الخوارج المجتمع الاسلامى لقوانين أخلاقية صارمة يشرف على تنفيذها هيئة من الفقهاء ، فاعتبروا من يقترب الكبيرة مرندا وبالتالي كافرا ، ولذا يسيحون دمه وممتلكاته وينبذونه خارج الجماعة الاسلامية . وهذه المبادئ خطيرة فى الواقع ، فقد طبقوها على جميع المخالفين لهم ، سواء من الشيعة أنصار المختار ، أو الأمويين ، أو غيرهم ، فقد اعتبروهم جميعا كفارا دمهم حلال لهم . ولكن كان للخوارج الأولين مبادئ أخرى يبدو فيها الطابع الانسانى ، فقد حضوا على حسن معاملة أهل الذمة ، كما نادوا بالمساواة بين العرب والموالى ، فى الحقوق والامتيازات ، وخاصة فى الخلافة .

وقد اتفق الخوارج مع الشيعة أنصار المختار فى أن خلفاء بنى أمية مغتصبون ظالمون ، ولذا اشتركوا جميعا فى مناهضتهم ، لكن الخوارج غلب عليهم الطابع البدوى فى الصراحة ؛ فصاروا لا يعترفون بما فادت به الشيعة من تقية وكتمان ، أو ما أبدته من تردد ، أو ميل الى الكفاح السلبي دون الجهاد الايجابى ، ومن ثم ناضل الخوارج الأمويين جهارا .

وعلى الرغم من ذلك فقد كانت الشيعة أكثر خطرا على الدولة الأموية ، لأن حركة المقاومة التى تقودها سرية ، كما أنهم يدعون الى هدم الخلافة الأموية ليقيموا مكانها خلافة علوية فى العراق ، كما يعتمد زعماء الشيعة على انحدارهم من سلالة الرسول وعلى ابن أبى طالب . وكان صراع الشيعة للدولة الأموية هو استمرار للصراع القديم بين فرعى قریش الكبيرين ، البيت الهاشمى والبيت

الأموي ، ذلك الصراع القديم الذي بدأ في الجاهلية واستمر في العصر الاسلامي ، وأصبح الخوارج طرفاً ثالثاً في الصراع .

وأدى الخلاف بين الخوارج والشيعة الى ظهور حزب (المرجئة) اذ اشتد الجدل والنزاع بين الشيعة والخوارج ، والخوارج يكفرون علياً وعثمان والحكمين ، والشيعة تكفر أبا بكر وعمر وعثمان ، وكلاهما يكفر الأمويين ، والأمويون يرونهم جميعاً خارجين عن الطاعة . وكانت المرجئة ترى أن الخوارج والشيعة والأمويين مؤمنون ، وبعضهم مخطيء والبعض على الحق ولكن من الصعب تبين ذلك ، ولذا يرجنون أمورهم الى يوم القيامة^(١) . وتتفق المرجئة مع الشيعة في رأيهم في الامام فيحتمون أن يكون من قریش . على أن هناك أموراً تختلف فيها هاتان الفرقتان ، فأراء المرجئة التي تدل على التسامح والتساهل تتعارض مع رغبة الشيعة في قيام دولة ذات حكم الهی مؤسس على الشريعة الالهية ومحكومة بآل الرسول . كما أن المرجئة كانوا يعترفون بشرعية حكومة الأمويين بينما يعمل الشيعة على مناهضة هذه الحكومة .

موقف موالي العراق من الخوارج :

اختلف المؤرخون حول انضمام الموالي في العراق — وقد أصبح معظمهم من أنصار المختار — الى صفوف الخوارج . فيرى بعضهم أن الخوارج الأوائل كانوا جميعاً من العرب الخلفاء ،

(١) ابن العبري : مختصر تاريخ الدول ص ١٦٦ .

بينما يرى البعض الآخر أن الموالى انضموا الى صفوفهم .
ويؤيد أحد المؤرخين العرب^(١) الرأي الأول ، فيذكر أن الخوارج
كانوا عربا من قبائل تميم وحنيفة وربيعة الذين كان لهم في
الجاهلية شأن كبير بين العرب ، وأنهم اعتنقوا الاسلام لاجابهم
بمبادئه الديموقراطية ، فأبلوا في الفتوح بلاء عظيما ، وطمعوا
في مجد جديد يضيفونه الى مجدهم التليد ، ولكنهم غلبوا على
أمرهم ، واستأثرت أرستقراطية مكة والمدينة ، فأعادوا حركة الردة
ولكن في صورة اسلامية ، وبدا هذا في موقفهم من التحكيم ،
ويؤيد أحد الكتاب^(٢) الرأي القائل بعروبة الخوارج فيذكر أن
معظمهم من بنى تميم ، الذين اشتركوا في الحروب الفارسية
واستقروا في البصرة والكوفة ، وقد جمعوا بين الفضائل
والمساوىء التي يتصف بها البدو ، ولا سيما فيما يتعلق منها
بالعصبية القبلية ، والنظر الى نظم الحكومة الحديثة نظرة جفاء
وعدم مبالاة ، مفضلين عليها أنظمتهم البدوية القاسية .

ومن ناحية أخرى يجمع المستشرقون على مثل هذا الرأي ،
أي أن الخوارج بدو من تميم لم تستطع الحياة المدنية أن تؤثر
في أخلاقهم وطباعهم الخشنة . بل ليس بينهم أحد من قراء القرآن .
وهم مدفوعون بأمل الحصول على الثراء والغنائم أكثر من
اندفاعهم وراء العقيدة والايمان^(٣) .

(١) العبادى : صور من التاريخ الاسلامى ص ١٧٦ .

(٢) عمر أبو النصر : الخوارج فى الاسلام ص ٢٤ .

(٣) راجع كتب : Khuda Buksh, P. 159. Lammens, P. 156.

هذا ويؤخذ مما كتبه بعض المؤرخين القدامى عن الخوارج ، أن الموالي انضموا الى صفوفهم ، فيرى ابن الصباغ ^(١) أن علياً بعد هزيمته للخوارج في موقعة النهروان ، طلب ممن انضم اليه منهم قبل المعركة أن يستعدوا لقتال معاوية ، « وكتب عليّ الى رئيس كل قبيلة من القبائل يستنفره بما في عشيرته من المقاتلة وأبنائهم الذين أدركوا ، وعبدانهم ومواليهم » . أما ابن الأثير ^(٢) فيتحدث عن وجود كثير من الموالي في جيش الخوارج . وما دام جيش عليّ ، قبل انقسام الخوارج ، كان يضم جانباً كبيراً من الموالي ، وخاصة موالي الكوفة ، فمن الطبيعي أن ينضم عدد منهم الى العرب الذين خرجوا عن طاعة عليّ ، وكون هؤلاء وهؤلاء حزب الخوارج الجديد . وخاصة أن هناك من الموالي من كان يحقد على العرب لأنهم أضاعوا استقلالهم ومجدهم القديم ، كما رام بعض من دخل الاسلام التخلص من الجزية .

وثمة فريق من المؤرخين الافرنج يؤيد هذا ، فديموبين ^(٣) مثلاً يرى أنه انضم الى الخوارج عدد كبير من الموالي ، وخاصة حينما نادى الخوارج بأنه لا توجد ضرورة تحتم أن يكون الخليفة من قريش . ويذكر (سايكس) ^(٤) أن الخوارج كانوا

(١) الفصول المهمة ص ٨٩ .

(٢) الكامل ج ٣ ص ١٥٩ .

(٣) النظم الاسلامية ص ٤٨ .

(٤) Hist. of Persia, V. I, P. 534

عناصر مختلفة من عدة أجناس ، وهم الذين اشتركوا في هذه الحروب الأهلية .

وفي رأينا أن أقلية من موالى العراق ، وخاصة من موالى الكوفة ، قد انضموا الى الخوارج ولكن الغالبية العظمى من الموالى قد اعتنقت مذهب الشيعة ، وهم الذين أسرعوا الى تأييد المختار الذى أحيا مبادئ الشيعة وبدأ دورا جديدا من الجهاد الشيعى . ونرى أن الموالى الذين انضموا الى الخوارج كانوا من موالى الأطراف الشرقية للدولة الاسلامية ، الى جانب بعض القبائل العربية البدوية التى لم تنس طباعها القديمة التى تقوم على حب الغزو والحرب .

المختار مع الخوارج فى أثناء حصار مكة :

ظهر المختار على مسرح السياسة فى الوقت الذى كان الحسين ابن على يفكر فيه فى القدوم الى الكوفة ليجمع شيعته حوله حتى يقضى على الخلافة الأموية بالشام ، ويقيم خلافة علوية فى العراق . وأخذ المختار يتلقى بيعة الشيعة للحسين ، حتى اذا قتل مسلم بن عقيل وبدأ بطش عبيد الله بن زياد ، ألقى المختار فى سجن ابن زياد ، ولم يطلق سراحه الا بشفاعة ابن عمر ، ونفاه خارج العراق . واضطر المختار الى الخروج من العراق ، ولم يكن ليختار الشام قلب الدولة الأموية ، بل قصد بلاد الحجاز ، حيث ثار عبد الله بن الزبير ، والتف حوله الحجازيون وطلبوا منه أن يبايع نفسه .

ورأى المختار أن ابن الزبير رجل الساعة وبطل العرب ، فرحل إليه . ولكن ابن الزبير — كما رأينا — لم يحقق أطماع المختار ، فعادته عاما كاملا الى بلدته الطائف ، ثم عاد الى مكة فوجد ابن الزبير قد بدأ يأخذ البيعة . ثم بعث الخليفة يزيد بن معاوية جيشا الى الحجاز ، لتأديب أهل الحجاز وابن الزبير ، فبدأ الجيش بأهل المدينة ، فكانت موقعة الحرة وما ارتكبه الجنود الأمويون فيها من مذابح وفظائع ، ثم تقدم الجيش الأموي ليحاصر ابن الزبير في الكعبة ، وكان المختار الى جانب ابن الزبير ، كما قدمت لنجدته فرقة من الأزارقة ، وهم خوارج ينتسبون الى زعيمهم نافع بن الأزرق ، استقروا في الأهواز وعانوا كثيرا من شدة عيب الله ابن زياد .

وقد أبلى المختار بلاء حسنا خلال حصار الأمويين للكعبة ، وقاتل أشد قتال ، وكان كما وصفه المؤرخون « أشد الناس على أهل الشام » . وفي الوقت نفسه كان ابن الزبير في محنة شديدة ، فكان يتلمس الفرص في أية مساعدة يجدها ، ليتخلص من الجيش الأموي القادم لحصار الكعبة . ووجد هذه المساعدة في الأزارقة الذين رأوا أن يساعدوه ويلوذوا به ، ويتكاتفوا معه على عدوهم المشترك الخليفة الأموي ، وكان مما قاله نافع : « .. وهذا من قد ثار بمكة فاخرجوا بنا فأت البيت ونلق هذا الرجل ، فان يكن على رأينا جاهدنا معه العدو ، وان يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت ما استطعنا ونظرنا بعد ذلك في أميرنا » (١) .

(١) الطبري ج ٤ ص ٤٣٦ .

وفي الحق ، قاتل الخوارج الى جانب ابن الزبير بحماسة واستماتة ، وكان لهم فضل كبير في زيادة بأسه . فيتحدث المؤرخ نيكلسون ^(١) عنهم فيقول انهم كانوا المثل الأعلى في التضحية في سبيل العقيدة والاستماتة في القتال حتى يحققوا مبادئهم ، كما لم يجاهدوا لتحقيق مطامع شخصية كما كان سائر الأحزاب الأخرى سواء أكانت شيعية أم أموية أم زبيرية .

وقد انتهى حصار مكة بانتها حياة يزيد ، وعاد الحصين بن نمير بجيشه الى الشام ، وسكت السيف ليتكلم اللسان ، فرأى الخوارج أن يعرفوا آراء ابن الزبير ، وهل هي توافق آراءهم ، اذ كانوا في عجلة من أمرهم وقد داهمهم العدو الأموي ، فلم يكن ثمة مجال للنقاش والجدال ، حتى اذا بلغوا ما كانوا ينشدونه من نصر على الأمويين قال بعضهم لبعض : « ان الذي صنعتهم أمس لغير رأى ، تقاثلون مع رجل لا تدرون لعله ليس على مثل رأيكم ، وقد كان أمس يقاتلكم هو وأبوه وينادي : يا ثارات عثمان ، فائتوه واسألوه عن عثمان ، فان برىء منكم كان وليكم ، وان أبى كان عدوكم » .

وقدم الخوارج على ابن الزبير يستطلعون آراءه ، ويستكشفون أغراضه ، ودار بينهم حوار وجدال طويل . وتحدث أحد الخوارج فامتدح سياسة أبي بكر وعمر بن الخطاب فهاجم عثمان بن عفان هجوما عنيفا وعدد أخطائه « فسارت اليه طائفة

فقتلوه ، فنحن لهم أولياء ، ومن ابن عفان وأوليائه براء . فما تقول أنت يا ابن الزبير ؟ » .

وأجاب ابن الزبير على سؤال الخوارج ، فوافقهم على ماذكروه من مدح أبي بكر وعمر ، ونفى جميع الاتهامات التي وجهوها الى عثمان ، وختم حديثه بقوله : « هو لكل خير أهل ، وأنا أشهدكم ومن حضرني أنى ولى لابن عفان ، وعدو أعدائه فبرىء الله منكم » .

كان الخوارج يجوبون الأرض ، ويبدلون الأرواح في سبيل مبادئهم ، دون السعى وراء عارض دينوى ، فلما أدركوا اختلافهم مع ابن الزبير في مبادئه رأوا الرحيل عنه الى العراق .

كان المختار يخالف الخوارج في آرائهم ، فقد كان قبل قدومه الى العراق داعيا الى الحسين بن على ، ولكن الخوارج لم يهتموا بسؤال المختار عن آرائه ، فقد كان حتى ذلك الحين فردا واحدا ، لم يؤلف حزبا ، ولم يكن له أنصار ، كما كان قد رضى أن يكون وزيرا لابن الزبير ، حتى تتاح له فرصة القيام بالدور الأول في الأحداث السياسية ، ولذا اكتفى الخوارج بتوجيه أسئلتهم الى ابن الزبير .

ولكن أكان المختار موافقا للخوارج على آرائهم خلال حصار مكة ؟

لم يكن وقوف المختار الى جانب الخوارج في الدفاع عن مكة والكعبة ، نتيجة موافقة المختار للخوارج على آرائهم . فالمؤرخ

دوزى (١) يرى أن المختار كان خارجيا ثم زيريا ثم شيعيا ، بينما يعارض المؤرخ فلموزن (٢) هذا الرأي ، فيذكر أنه لا يحق لدوزى أن يجعل المختار معرضا للسخرية ، ويرى أن دوزى لم يفهم المختار على حقيقته . ثم ذكر أنه كان لنشر تاريخ الطبرى الفضل فى وضع حد لهذا النحو من تصوير الرجل . وأكد بعد ذلك أن المختار لم يكن خارجيا ، وأنه كان مثله مثل عبد الله بن الزبير قد حارب الى جانب الخوارج يوم حصار مكة ، واشتركوا جميعا فى قتال أهل الشام ، وهذا لا يجعل المختار خارجيا أو زيريا .

ونرى أن اشتراك المختار فى هذه المعركة لا يدل مطلقا على اعتناقه آراء الخوارج . فقد اشترك فيها طوائف كثيرة ، مختلفة المذاهب والأجناس ، دون أن تكون خارجية المذهب ، بل اشترك فى القتال فرقة من الأبحاش بعثها نجاشى الحبشة ، وقدمت جماعات عديدة من مختلف الأمصار الاسلامية لتدافع عن الكعبة . وكان قدوم المختار على ابن الزبير سابقا لقدوم الخوارج الى الحجاز بأكثر من عام ، وقبل أن يقدم الجيش الأموى الى الحجاز . وكان المسلمون الذين اشتركوا فى الدفاع عن الكعبة — على اختلاف آرائهم — يجمعهم هدف واحد ، هو الذود عن مكة والكعبة . ولم يبدأوا فى الجدل والنقاش الا بعد انتهاء حصار مكة .

وقف المختار مع ابن الزبير ومع الخوارج صفا واحد خلال

حصار جيش الشام لمكة ، واستبسلا جميعا في قتال عدوهم
المشترك — الأمويين — كل استبسال . والخوارج يجهلون آراء
ابن الزبير ، والمختار يجهل أن ابن الزبير سيتنكر لوعوده وعهوده
التي قطعها له . وكما غادر الخوارج ابن الزبير بعد انتهاء الحصار ،
غادر المختار ابن الزبير لنكته وعوده . وكما شنّ الخوارج حربا
شعواء على ولاية ابن الزبير بالعراق ، أعلن المختار الحرب على
الزبيريين بالعراق .

العراق بين المختار والخوارج :

بدأت الخوارج ثوراتها بالعراق منذ عهد معاوية بن أبي
سفيان ، فما كاد يبدأ بالرحيل الى الشام بعد مغادرة الحسن بن
على حتى ثارت الخوارج بزعامة فروة بن نوفل الأشجعي ودخلوا
الكوفة (١) . وأعادت الخوارج هجومها على الكوفة مرة أخرى
في ولاية المغيرة بن شعبة ، بزعامة المستورد بن علفة التميمي
وحيتان بن ظبيان ومعاذ بن جوين ، لكن المغيرة استطاع القضاء
عليهم جميعا بأن ضرب حزب الخوارج بحزب الشيعة (٢) . وثار
في البصرة على زياد بن أبيه خارجيان هما : سهيم بن غالب الهجيني
والخطيم ، ولكنه قتلها ، ثم ثار بعدهما قريب وزحاف فجعل
زياد أهل البصرة مسئولين عن كل ثورة خارجية ، فأسرعوا الى

(١) الطبري ج ٦ ص ١٢٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٢١٩ .

القضاء عليهم . وشعرت الخوارج بأن فرص الثورة في عهد زياد قليلة فأثروا الخروج من العراق . لكن سرعان ما عادوا اليه بعد وفاة زياد وأخذوا يعيشون فسادا ، لولا أن تدارك معاوية الأمر بتولية عبيد الله بن زياد ، الذي استطاع أن يقضى على ثورات الخوارج سنة ٥٨ هـ (١) .

وفي ولاية عبيد الله بن زياد ، بدأت حركتان في وقت واحد ، الحركة الأولى شيعية ، تدعو للحسين بن علي ، فقد رأى أهل الكوفة من شيعة علي أن يدعى الحسين للقدوم من الحجاز الى الكوفة ، وقدم مسلم بن عقيل يختبر نوايا الكوفيين ، وبدأ نشاط المختار في الدعوة الشيعية . أما الحركة الثانية ، فهي حركة الخوارج الأزارقة أنصار نافع بن الأزرق على ما بيننا ، وهي أقوى فرق الخوارج على الإطلاق ، وكان أول ظهورهم في أربعين رجلا ، وبدأ التنافس بين الحركتين حول اجتذاب أهل العراق ، وبدأ ابن زياد اهتمامه بالخوارج ، فقتل كل أنصارهم حتى بلغ عدد القتلى تسعمائة رجل (٢) . ثم تتبع الشيعة ، فقتل مسلم ابن عقيل ثم الحسين بن علي ، وسجن المختار .

أخذ الخوارج يتلمسون الوسائل لمناهضة الخلافة الأموية ، فلما سمعوا بشورة عبد الله بن الزبير في الحجاز ، خرجوا اليه . وكان المختار قد سبقهم في الخروج الى الحجاز ، يدفعه نفس الهدف ، وهو مناهضة الدولة الأموية . ولكن اصرار ابن الزبير

(١) المصدر السابق .

(٢) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٧٩ .

— كما رأينا — على تمجيد عثمان والاشادة بذكره ، وتكره لوعوده للمختار ، جعل الخوارج والمختار يفارقون ابن الزبير ، وعادوا جميعا الى العراق ، وبدأ التنافس بين الخوارج والمختار حول السيادة في العراق ، ولكنهم اتفقوا على مناهضة الدعوة الزبيرية التي كانت قد بدأت تنتشر في بلاد العراق في ذلك الوقت . عمل المختار والخوارج على السيطرة على العراق ، واتزاعه من أيدي عبيد الله بن زياد -مثل الدولة الأموية . وربما رأى المختاريون والخوارج أن يقتسموا النفوذ في العراق ، وألا يصطدموا ، حتى لا يستفيد أعداؤهم الأمويون من هذا الصدام ، فبدأ المختاريون يسيطرون على الكوفة ، بينما سيطرت الخوارج على البصرة . فقد كان ضعف نفوذ ابن زياد في البصرة عاملا على انضمام كثير من البصريين الى الخوارج ^(١) . وكان ابن زياد قد حاول أخذ البيعة لنفسه من أهل البصرة ، لكن الخوارج أفسدوا عليه البيعة ، فاضطر ابن زياد الى الفرار الى الشام ناجيا بحياته . وانتهز الخوارج هذه الفرصة فوضعوا برنامجا دينيا ينافسون به برنامج الشيعة ، فقالوا : « لو خرج منا خارجون في سبيل الله ، فقد كانت منا فترة فقد خرج أصحابنا ، فيقوم علمائنا في الأرض فيكونون مصابيح الناس يدعونهم الى الدين ، ويخرج أهل الورع والاجتهاد فيلحقون بالرب فيكونوا شهداء مرزوقين عند الله » ^(٢) .

(١) الطبري ج ٧ ص ٥٦ .

(٢) الطبري ج ٧ ص ٥٦ .

كان المختار قد بدأ يدعو الى امامة محمد بن الحنفية ، والى اقامة خلافة علوية بالعراق . وبدأ التنافس الشديد بين المختار والخوارج الأزارقة ، الذين أسرعوا يبايعون زعيمهم نافع بن الأزرق بامرة المؤمنين ، وانضم اليهم خوارج عمان واليمامة ، فصاروا أكثر من عشرين ألفا ، وبدأوا بالسيطرة على الأهواز وفارس وكرمان ، وبدأوا يستعدون للهجوم على العراق ، وكان البصرة تخضع للزيريين ، والكوفة في يد المختار ولكن وقع خلاف بين زعماء الخوارج ، وأعلن زعيمان خارجيان انشقاقهما عن الخوارج الأزارقة ، وهما عبد الله بن صفار الذي كون فرقة الخوارج الصفرية ، وعبد الله بن أباض الذي أنشأ فرقة الأباضية . وتقدم نافع بن الأزرق بمن بقي معه من الخوارج زاحفا نحو البصرة .

شعر المختار بالطمأنينة ، اذ رأى جحافل الخوارج الأزارقة تزحف نحو البصرة دون الكوفة . وارتاع أهل البصرة ، لما يعلموه من أقدام الخوارج على سفك الدماء ، واستنجدوا بزعيمهم الأحنف بن قيس ، الذي حشد عشرة آلاف رجل ، وقدم لهم والى عبد الله بن الزبير جميع المساعدات ، وبدأ قتال عنيف ، رجحت فيه كفة الخوارج ، فأمر ابن الزبير واليه بخراسان المهلب ابن أبي صفرة بقتال الخوارج ، و انتهت هذه المعارك بمصرع نافع ابن الأزرق وعبد الله بن الماحوز الذي خلفه في قيادة الخوارج ، وفرت فلول الخوارج الى كرمان وأصفهان سنة ٦٦ هـ ، وتنفس المختار الصعداء ، فقد كان الخوارج سيزحفون حتما الى الكوفة

بعد فراغهم من أمر البصرة . فقد كفاه أهل البصرة وولاة ابن الزبير شر الخوارج ، دون أن يبذل جهدا .

استفادة المختار من حركة الخوارج بالعراق :

جنى المختار فوائد عظيمة من ثورات الخوارج بالعراق ، فقد شغلوا الولاية الأموية ، فانصرفوا الى اخساد ثوراتهم ، وغفلوا عن حركات المختار ودعوته . كما شغل ولاية ابن الزبير بصد الخوارج عن مراقبة الخوارج عن مراقبة المختار فتمكن من السيطرة على الكوفة ومعظم أرجاء العراق . وكان هؤلاء الولاية الزبيريون يعتقدون أن الخوارج أعظم خطرا من المختار . كما أن أهل العراق تناسوا خلافاتهم ومشاكلهم أمام هجمات الخوارج وازاء اقدامهم على سفك الدماء . وأقبلت الشيعة على الالتفاف حول المختار حتى يصبحوا جميعا قوة أمام أعدائهم الألداء الخوارج ، الذين يكفرون على بن أبى طالب ، والذين قاتلوه بالأمس في النهروان .

كانت مبادئ الشيعة التي اعتنقها المختار تتعارض مع مبادئ الخوارج . ولكن آراء الخوارج كانت تهدم قواعد الدولة الأموية ، فقد كانوا لا يعترفون بحق قريش في الخلافة ، ولا يقبلون مبدأ الوراثة الذي سار عليه الخلفاء الأمويون ، وهم يريدون انتخابا عاما يشمل جميع المسلمين . وشاركت القبائل العربية الخوارج في سخطها على الأمويين ، فرأت أن انتصار

الأمويين انتصار جديد لقريش على سائر العرب^(١) . وقد نادى الخوارج بتكفير مرتكب الكبيرة ، وكانوا يرمون من وراء ذلك الى محاربة الأمويين ، مما جعل الدولة الأموية تحاربهم بسيف الدين وتقاتلهم بحجج الاسلام^(٢) . ولم يرض الخوارج الذين عرفوا بالزهد والتقوى عن انصراف بعض الخلفاء الأمويين الى اللهو وانغماسهم في الترف ، ولذلك استقر رأيهم على العمل للعودة الى العهد الاسلامي ، عهد المساواة والاخاء ، وأثاروا في وجه الأمويين الفتن والفتن والقتال في الدولة العربية الاسلامية ، ومما زاد في خطورة الخوارج أنهم لم يجتمعوا على خلافة توحد كلمتهم وتجمع شملهم ، بل أخذت جموعهم المتفرقة في أنحاء الدولة يقلقون الولاة الأمويين ويناثونهم ، فاستغرق ذلك جهودهم ، وانصرفوا عن الاصلاحات وارضاء الرعايا الساخطين ، واضطر ولاية العراق أن يحاربوا في أكثر من ميدان ، فكان أمامهم ثورات الموالي ، والشيعية ، وحركة المختار بن أبي عبيد .

انضم الى الخوارج الطبقات المعدمة التي راقتها الاتجاهات الديمقراطية والثورة على مظالم الولاة الأمويين . وفي مقدمة هذه الطبقات الثائرة الموالي الذين ما كادت تظهر الدولة الأموية حتى لمسوا تفريق ولائهم بينهم وبين العرب في العطاء . ويرى المؤرخ الهندي (خودابخش)^(٣) أن الدولة الأموية مسئولة عن انضمام

(١) الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص ٧٥ .

(٢) فان فلوتن : السيادة العربية ص ٧٣ .

(٣) انظر كتابه (الحضارة الاسلامية) من ترجمتنا .

الموالى الى الخوارج ، فأدى تتبع الولاة الأمويين للخوارج
بالعراق الى مغادرتهم مواطنهم الأصلية والالتجاء الى الأطراف
الشرقية للدولة العربية ، حيث امتزجوا بالموالى الذين أقبلوا على
معاونتهم وتأييد آرائهم ، وبذلك صارت طائفة الخوارج تضم
عناصر غير عربية .

وإذا كان بعض الموالى من أنصار المختار قد راقتهم هذه
الاتجاهات الديموقراطية التى أشرنا اليه ، الا أنهم تمسكوا
بمبادئ الشيعة ، فقد كان الخوارج يكفرون على بن أبى طالب ،
ويميلون الى القسوة والعنف وسفك الدماء .

موقف المخنار من الموالى

من هم الموالى ؟ - موقف المختار من العصبية بين
العرب والموالى - الموالى الى جانب المختار - أسباب اعتماد
المختار على الموالى •

الفصل العاشر

موقف المنار من الموالى

من هم الموالى ؟

الموالى فى نظر مؤرخى التاريخ الاسلامى هم المسلمون من غير العرب ، وكانوا فى الأصل أسرى حرب أصبحوا فى منزلة الرقيق ثم أسلموا فأعتقوا وأصبحوا موالى ، فقد اقترن اسلامهم بدخولهم فى خدمة العرب وتحالفهم معهم كى يعتزوا بنصرتهم وقوتهم ، فكانهم أصبحوا فى الوقت نفسه موالى حلف وموالاة . وقد تكاثر الموالى فى العراق خلال الحكم الأموى بموالاة الفتح وتكاثر الرقيق بالأسر والاهداء . فكان بعضهم يقدم أعدادا من الرقيق بدلا من الخراج ، وكان الولاة يوزعون هؤلاء الرقيق على خاصتهم وقواصمهم ، وهؤلاء يفرقونهم فيمن حولهم أو يبيعونهم فينتقل الرقيق الى الناس على اختلاف طبقاتهم . فمن أنجب من أولئك الأرقاء أو أعتق لسبب من الأسباب صار مولى ، غير الذين كانوا يدخلون فى الولاء بالعقد أو غيره . وكان العرب يطلقون لفظ « المذرع » على من كانت أمه عربية وأبوه أعجميا ،

وكانت العرب في الجاهلية لا تورث الهجين^(١) . وتكاثر الموالي حتى فاقوا الأحرار في عددهم في بعض المدن ، فقد كان موالي الكوفة زمن معاوية عشرين ألفا^(٢) .

وكان معظم موالي العراق ، وخاصة موالي الكوفة ، من أصل فارسي ، ويتحدثون باللغة الفارسية . واحتفظ الموالي بصبغتهم الفارسية فترة طويلة ، ففي معسكر المختار لم تسمع كلمة واحدة . وكان بعض ولاية العراق يجيدون اللغة الفارسية ، مثل المغيرة بن شعبة الثقفي ، الذي أحبه الموالي كثيرا . واقتبست اللغة العربية كثيرا من الكلمات الفارسية . ورغم احتفاظ الموالي بصفاتهم وخصائصهم ، فقد تسموا بأسماء عربية وإسلامية وشاركوا في الحياة الاجتماعية والسياسية . بل دخل الموالي ضمن التنظيم القبلي ، وتأثروا بالعصية القبلية ، وكان موالي كل قبيلة ينتسبون إليها ويحاربون في صفوفها ، ولكن هذه العصية كانت تعود بالضرر على الموالي أحيانا .

موقف المختار من العصية بين العرب والموالي :

كان المختار رجلا عربيا ، أبا وأما ، من قبيلة ثقيف العربية ، ولكنه لم يجد حرجا في أن يعتمد في حركته السياسية على الموالي بالعراق ، فقد لمس سوء أحوال الموالي الاجتماعية والسياسية ،

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٦ ص ١٢٩ .

(٢) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٩٦ .

وتعصب العرب على الموالي . ورأى المختار أن يعمل على تحسين أوضاع الموالي ، ومنحهم الحقوق والامتيازات التي كانت للعرب ، كسبا لتأييدهم ، وانصافا لهم ، وتغذ وعوده ، فساوى بين العرب والموالي ، فأقبل الموالي على تأييد المختار . وخفت العصبية بين العرب والموالي ، فالمختار كان حضيضا ، اذ لم يغفل امتيازات العرب ، بل أدانهم وأكرمهم في نفس الوقت الذي أنصف فيه الموالي .

تعصبت الدولة الأموية للعروبة والعنصر العربي ، فكانت دولة عربية لحما ودما ، وضعت الأقوام غير العرب في منزلة اجتماعية أدنى من العرب ، وأبعدوهم لذلك عن السياسة والقيادة ، وفرضوا عليهم من الضرائب أكثر مما فرضوه على العرب ، كما أنقصوا عطاءهم ومراتبهم ، مما أوجد هوة بين هاتين الطبقتين في المجتمع الاسلامي في ذلك الحين .

بدأ تعصب العرب على الموالي منذ مصرع عمر بن الخطاب على يد أبي لؤلؤة المجوسي ، مولى المغيرة بن شعبة الثقفي ، فأثار هذا الحادث عصبية العرب نحو الأعاجم ، سواء من أسلم منهم أو من بقى على دينه . وكان عمر بن الخطاب يأمر بمعاملة الموالي برفق . أما عثمان بن عفان فقد كتب الى عماله بالعراق يأمرهم بتفضيل العرب على الموالي ، وخاصة في العطاء^(١) . ويعتبر (سيدو)^(٢) الموالي مسئولين عن تعصب العرب ضدهم ، فقد

(١) الطبري ج ٥ ص ٦٣ .

(٢) تاريخ العرب العام ص ١٧٣ .

عاملوهم كما كانوا يعاملون أكاسرة الفرس مما أدى الى غرور العرب . ولكن في الحقيقة كان العرب يشعرون دائما بالعزة العربية ويعتبرون أنفسهم أرقى الأجناس قاطبة ، مما دفعهم الى العصبية العربية ، وبرزت هذه العصبية واضحة في العصر الجاهلي ، فكانت الوفود العربية تفخر في حضرة كسرى فارس بعروبتها وتضع العرب في مرتبة أسمى من الفرس . وجاهد الاسلام في القضاء على العصبية بنوعيتها ، الجنسية والقبلية ، ونجح في ذلك فترة ، لكنها عادت ثانية بعد مصرع عمر .

وفي الحقيقة كان العرب مدفوعين في تعصبهم ضد العناصر غير العربية ، نتيجة غيرتهم على الاسلام واللغة العربية ، أما غيرتهم على الاسلام فقد ظن بعض العرب ، وخاصة ولاية العراق من الأمويين ، أن معظم الموالي لم يعتنقوا الاسلام الا لمصالح شخصية ، مثل تولى الوظائف أو التخلص من دفع الجزية ، ولذا رأى هؤلاء الولاة أن الدخول في الاسلام لا يعفى المولى من دفع الجزية . أما غير العرب على اللغة العربية فكانت نتيجة دخول كلمات أعجمية في اللغة العربية ، وانتشار اللفظة الفارسية بين العرب ، مع انتشار اللحن ، فكان هذا أيضا عامل إثارة عريية على الموالي فعربت الدواوين .

ولقد ضرب ابن عبد ربه^(١) أمثلة كثيرة لاحتقار العرب لموالي العراق خلال الحكم الأموي . فيبين أن العرب يستخدمون

(١) العقد الفريد ج ٥ ص ٤١٢ .

الموالى فى الحروب كمشاة ويرفضون أن يستخدموهم كفرسان
وهكذا ، وجاء المختار فكان أول من سمح لهم بركوب الخيل ،
وكان هناك عشرون ألفا من الموالى يحاربون بلا عطاء ولا رزق .
ذلك أن العرب كانوا يعتقدون أن مهنتهم الأولى الحرب ، وأنهم
إذا أشركوا مواليتهم معهم فهذا استثناء ، فالموالى لم يخلقوا
إلا للحرف والمهن الوضيعة ، كما قال عربى : « يكسحون طرقنا ،
ويخرزون خفافنا ، ويحركون ثيابنا » .

الموالى إلى جانب المختار :

كان عصر سيادة المختار فى العراق ، بداية مرحلة جديدة فى
تاريخ الموالى ، فقد بدأ فترة من التسامح والمساواة والعدل ، فقد
أعاد المختار سيرة الخلفاء الراشدين فى معاملة الموالى ، ونبذ
سياسة التفرقة التى اتبعها الولاة الأمويون . فقد كان أبو بكر
يساوى فى توزيع الغنائم والفيء والعطاء بين العرب والموالى .
وكتب الخليفة عمر بن الخطاب الى قواده : « ومن أعتقتم من
الحمراء — أى الموالى الفرس — فأسلموا فألحقوهم بمواليتهم ،
لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، وإن أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم
فاجعلهم أسوة فى العطاء» (١) . وأحسن على بن أبى طالب معاملة
الموالى ، ونقل حاضرتة الى الكوفة ، وكان جيشه يضم ١٦ ألفا
من الموالى والعبيد (٢) .

(١) أبو عبيد : الأموال ص ٢٣٥ .

(٢) ابن الصباغ : الفصول المهمة ص ٨٩ .

أما الدولة الأموية فقد أغفلت وضع تنظيم للعلاقات بين الاسلام والشعوب المفتوحة ، بل أدت سياستها الى تعقيد الحياة القانونية والمسائل الدينية الداخلية ، فكان على الأمويين أن يضعوا للمحاربين المسلمين المنتشرين في العراق ، قواعد جازمة ، تحل مشاكل الناشئة من الأمور الفقهية التي لم يكن يعرفها تماما جزء كبير من هؤلاء العرب الفاتحين المجندين ^(١) . وزاد المشكلة تعقيدا أن بلاد العراق عرفت الحركات الاجتماعية قبل الفتح الاسلامي ، فكانت أقرب الى تناولها وأقدر على فهم أسباب ظهورها من الأمة العربية .

كان الموالي مهئين للانضمام الى المختار ، فقد كانوا يتطلعون الى منقذ يخلصهم من جور الأمويين ويعيد أيام الخلفاء الراشدين . فقد نزل بالموالي كثير من الظلم والاضطهاد في عهد الخليفة يزيد ابن معاوية ، على يد واليه عبيد الله بن زياد . كما ألهم مصرع الحسين بن علي ، وكان معظم الموالي يتحمسون للبيت العلوي ، وخاصة الحسين الذي تزوج بنت آخر أكاسرة الفرس . وأقبل الموالي على البيعة لعبد الله بن الزبير ، الى حين ، فقد كان الثائر الوحيد على الدولة الأموية . ولكنه خيب آمالهم ، فقد أطلق العنان للأشراف العرب في الكوفة ، واعتمد في حكمه للبصرة على الغنصر العربي .

حتى اذا ظهر المختار وجد الموالي فيه الزعيم المنشود ، فأسرعوا

(١) جولدتسيهر : العقيدة والشرعية ص ٣٩ .

الى نبد طاعة ابن الزبير . وقد رأوا في دعوة المختار فرصة يحققون بها آمالهم في التساوى بالعرب . ورأى المختار فيهم وسيلة لتحقيق آماله ومطامحه في السلطة والنفوذ ، فساوى بين العرب والموالى في الحقوق والواجبات ، وجعل عطاءهم جميعا واحدا . وجعل ماله وعطاءه لرجل فارسي ، وكان معظم جنده من موالى الفرس بالكوفة ، وكانوا يسمون بالحمراء ، ويتحدثون باللغة الفارسية . استمر المختار ومن ورائه الموالى يحكمون بلاد العراق ، وكانت تجبى اليه الأموال من السواد وأصفهان والري وأذربيجان والجزيرة ، وغضب لذلك أشراف العرب ، فتوجهوا اليه يعاتبونه ، ففسر لهم تقريه الموالى بقوله : « لا يبعد الله غيركم ، أكرمتكم فشمتكم بأنوفكم ، وليتكم فكسرتم الخراج ، وهؤلاء العجم أطوع لى منكم وأوفى وأسرع الى ما أريد »^(١) . وقد أثبت المختار أنه أبعد نظرا وأكثر دهاء من ابن الزبير ، فقد أدرك أنه في العراق موطن الموالى ، وأن في أيديهم الثروة والموارد الاقتصادية ، فجعلهم عماده وعضده .

أسباب اعتماد المختار على الموالى :

يرى بعض المؤرخين أن المختار بتأييده الموالى قد أثار عصبيتهم على العرب ، اذ بث بمناصرتهم لهم في نفوسهم آمالا غريضة ما لبثوا أن حرصوا على تحقيقها بعد مقتله ، فجاهدوا

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٠٦ .

طويلا حتى أسقطوا الدولة الأموية ، وأقاموا الدولة العباسية التي أصبحت فارسية الصبغة ، واعتمدت على الموالي تماما . وفي مقدمة هؤلاء المؤرخين (نيكلسون) (١) الذي يذكر أن المختار ألقى بنفسه في أحضان الموالي مما جعلهم يقفون في وجه الدولة الأموية والعرب . ولكن معظم المؤرخين يدافعون تماما عن موقف المختار .

وكانت الظروف والأحداث التي شهدتها فترة سيادة المختار في العراق انما هي نتيجة تطور لأحداث سابقة . وفي الحقيقة ورث المختار تركة مثقلة بالأعباء ، ولم يكن في امكانه أن يحل جميع المشاكل التي تبلورت في عهده ونمت وتطورت في سنوات كثيرة ، كما أن المختار انشغل طوال فترة حكمه بقتال أعدائه ، فكان يحارب في عدة ميادين ، حارب الزبيريين والأمويين وأشرف الكوفة وقتلة الحسين وغيرهم .

كان طبيعيا والمختار في بلاد العراق أن يستعين بالموالي وهم الغالبية العظمى من السكان ، وكانوا يحتكرون الموارد الاقتصادية، الى جانب ما كان لهم من نشاط سياسي وثقافي باعتبار أنهم ورثة الحضارة الفارسية . وقد وصفهم المختار بأنهم « أولاد الأساورة من أهل الفرس والمرازمة » (٢) .

لم يكن المختار أول ولاية العراق الذين قربوا اليهم الموالي . فقد اعتمد الخليفة على بن أبي طالب على الموالي في سياسته

(١) Lit. Hist. the Arabs, p. 219

(٢) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٣٠٢ .

وحروبه ، ونقل عاصمته الى الكوفة ، وساوى بين العرب والموالى في جميع النواحي . وكان المغيرة بن شعبة والى معاوية بالكوفة ، وهو عربى ثقفى ، يقرب الموالى ويجيد لغتهم الفارسية ، وبإدله الموالى حبا بحب (١) . كما اعتمد عبيد الله بن زياد والى معاوية ويزيد بالعراق على الموالى عاما وكان « أول من جفا العرب » (٢) . واتخذ من الموالى جيشا سماه « المحاربة » وعدته اثنا عشر ألفا من الموالى ، وسمح للموالى بسكنى البصرة وكان محرما ذلك عليهم من قبل . وكان ابن زياد يرى أن الموالى أجدر بتولى الوظائف لأنهم كما قال عنهم « أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة » .

كانت حالة الموالى سيئة منذ أول العصر الأموى ، ولم تكن ثورة الموالى مقصورة على عصر المختار ، فقد انضموا الى كل فائر على الدولة الأموية . بل لقد أعلنوا سخطهم على العرب منذ الفتح العربى وصرعوا عمر بن الخطاب على يد أبى لؤلؤة المجوسى ، ثم انضموا الى الثوار فى فتنة عثمان ، والى أحزاب الشيعة والخوارج والتوابين والزبيريين ، وكذلك التفتوا حول المختار ، واستمر الموالى فى ثوراتهم بعد مصرع المختار ، فانضموا الى عبد الرحمن بن الأشعث ثم يزيد بن المهلب وهما من العرب وليسوا من الشيعة ، ثم انضموا الى جميع زعماء الشيعة العلويين مثل زيد بن على وعبد الله بن معاوية ، حتى اذا ركن العلويون الى الهدوء ، تحولوا الى تأييد العباسيين . ونجح الموالى بقيادة أبى

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢١٨ .

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ص ٢٠ .

مسلم الخراساني في هدم الدولة الأموية واقامة الدولة العباسية
وهي دولة فارسية في صيغتها .

ويرى الشهرستاني^(١) أن اعتماد المختار على الموالي لم يكن
السبب فيما وصل اليه من نجاح وبقود ، وانما نسب نجاحه الى
عاملين : أولهما أنه أعلن أنه نائب ابن الحنفية ، وثانيهما اقدمه
على الأخذ بشار الحسين وقتلى كربلاء « واشتغاله ليلا ونهارا بقتال
الظلمة الذين اجتمعوا على قتل الحسين » .

ويدافع بعض المؤرخين عن موقف المختار . فيذكر الدكتور
الدوري^(٢) أن الأحزاب الاسلامية هي التي نظمت حركة الموالي
بأشكالها المختلفة ، وساعدتها على أن تتخذ مظاهر مختلفة ،
فالاتقياء أيدوا الموالي في دعوتهم للمساواة بدون نظر الى سر هذه
الدعوة . واليهم يعود الفضل كثيرا في تشجيعهم على الثورات
المختلفة كثورة ابن الأشعث . وقد قبل الخوارج في صفوفهم
عددا من الموالي ، وذهبوا الى حد بعيد في دفعهم حتى طوروا
نظريتهم في الخلافة الى المساواة بين العرب والموالي ، فجزوا
امامة غير العربي ، كما قالوا بامامة أى عربى يجمع المؤهلات
اللازمة .

وكتب المؤرخ فان فلوطن^(٣) في كتابه (السيادة العربية) ،
فصلا طويلا بعنوان (حالة الموالي السياسية والاجتماعية) تحدث

(١) الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٦ .

(٢) مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص ٨١ .

(٣) السيادة العربية ص ٤٠ .

فيها عن سوء أحوال الموالي واحتقار العرب لهم ، ومعاملة العرب لهم كرقيق . ثم ذكر أن الموالي لم يكونوا وحدهم الذين أبدوا المختار ، بل انضم اليه العرب في الكوفة أيضا ، فقد جمعهم جميعا الشكوى من ظلم الأمويين .

وانبرى (فلهوزن) وهو من أعظم مؤرخي التاريخ الاسلامي الأفرنج ، يدافع عن المختار وموقفه من الموالي ، فيقول : وجد المختار الموالي وقد أصبحوا شيعة ، ولم يكن يرمى الى اثارهم ضد العرب ، بل اتبع سياسة المهادنة والتوفيق ، وكانت الشيعة من ورائه حتى استطاع أن يجتذب اليه الأرستقراطية العربية المعادية . وشاء القضاء على الفوارق بين المسلمين من الطبقة الأولى والمسلمين من الطبقة الثانية ، فمن يأخذ عليه ذلك ، لا يمكن له الحق في أن يأخذ على الحجاج أنه عمل العكس فأكد الفوارق بكل قوة وأعادها الى ما كانت عليه . والحق أن المختار خليف بالمديح لكونه كان أسبق من غيره في ادراك أن الأحوال القائمة آنذاك لا يمكن أن تبقى كما هي ، اذ لم يكن الاسلام بل العنصر العربي هو الذي يتمتع بالحقوق المدنية الكاملة في الحكومة الدينية . ولو كان المختار قد حقق هدفه الأصلي ، لكان من الممكن أن يكون منقذ الدولة العربية . ولكن العرب لم يشاءوا الحد من امتيازاتهم عن طيب خاطر ومن هنا اضطر المختار الى خوض الكفاح ضدهم . ولكن هذا النضال انتهى الى القضاء عليه ، ففضى على الموالي بوصفهم قوة سياسية (١) .

(١) فلهوزن : الخوارج والشيعة ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

كان صراع المختار ومصعب بن الزبير هو في الحقيقة صراع الموالى والعرب ، وكان انتصار مصعب هو انتصار العنصر العربى . وتألم الموالى لفقدهم ذلك الزعيم الذى حقق آمالهم فى المساواة والحرية والنفوذ . ولعب الموالى — كما سنرى فى الفصل القادم — الدور الأول فى مصرع مصعب . وظل الموالى يتطلعون الى زعيم جديد فوجدوه فى شخص عبد الرحمن بن الأشعث الذى أقام حركة على انتقاض حركة المختار ، وأكمل ما بدأه المختار من قبل ، ولم يهدأ بال الولاة الأمويين منذ مصرع المختار سنة ٦٧ هـ الى سقوط الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ .

نهاية المختار وحركة المختارية :

بداية النهاية - الصراع بين المختار ومصعب بن الزبير
حول العراق - مصرع المختار - العوامل التي أنهت حركة
المختار : (اخفاق المختار في صبغ حركته السياسية
بصبغة دينية ، ابن الحنفية لا يؤيد المختار تأييدا مطلقا ،
غضب العرب على المختار لاعتماده على الموالي ، اهمال
المختار الاستعانة بقائده ابراهيم بن الأشتر ، تخاذل
اهل الكوفة ، مصعب يخدع قائد المختار ، مرض المختار
في أثناء المعركة) .

الفصل الحادي عشر

نهاية المختار والحركة المختارية :

بداية النهاية :

مرّ بنا الصراع العنيف الذي قام في العراق بين الحركة الزيرية والحركة المختارية . فبعد أن كان المختار في طاعة ابن الزبير في الحجاز ، أصبح منافسا خطيرا له في العراق ، ثم عدوا لدودا ، ونصيرا للأعداء ابن الزبير من بني هاشم وخاصة ابن الحنفية . كما مرّ بنا صراع المختار للعرب الأشراف بالكوفة ، ونضاله للجيش الأموي بقيادة عبيد الله بن زياد ، وكيف نجح المختار في القضاء على ابن زياد في موقعة خازر .

وقد ظل عبد الله بن الزبير في مكة ينظر الى قتال المختار عبيد الله بن زياد بعين ملؤها السرور . فهذه الحرب الضروس ستؤدي حتما الى ضعف الفريقين على السواء . وقرت عين ابن الزبير حينما علم بمصرع ابن زياد ، فقد كان أعظم القواد الأمويين ، وأصبح اصطدام المختار وابن الزبير أمرا محتوما ، فلم تعد بلاد العراق تتسع لهاتين الحركتين الكبيرتين .

كان من العسير أن تتفق الحركتان السياسيتان ، الزيرية

والمختارية ، في العمل جنبا الى جنب ، أو على اقتسام السيادة في بلاد العراق ، فقد اختلفتا تماما في الأهداف والوسائل . فقد كان هدف ابن الزبير قيام خلافة زيرية يتولاها في الحجاز ، فتصبح بلاد الحجاز كما كانت في عصر أبي بكر وعمر وعثمان موطن الخلافة ، أما المختار فقد أراد اقامة خلافة علوية في بلاد العراق يتولاها محمد بن الحنفية . واستعان ابن الزبير بالعنصر العربي ، بينما استعان المختار بالموالي . الى جانب الكراهية والبغضاء التي اضطرت في قلبى المختار وابن الزبير ، وجعلت تفاهمهما عسيرا . ورغم هذه الانتصارات الواسعة التي قام بها المختار ، ورغم تفوقه الواضح على ابن الزبير ، فقد رأى بدكائه ودهائه أنه في حاجة الى مهادنة ابن الزبير ، رغم ما بينهما من بغضاء وكراهية ، بعد أن حارب في ميدانين ؛ حارب العرب الأشراف بالكوفة أولا ، ثم حارب الجيش الأموى بقيادة ابن الزبير ، وشعر بعدهما أنه في حاجة الى فترة هدوء وسلام ، يجمع فيها شمل صفوفه ، وينال جنده فيها قسطا من الراحة فلا يملوا طول القتال ، ولا سيما أن العرب الأشراف بالكوفة لا يزالون يمثلون حزب المعارضة ويتربصون الفرصة للوثوب على المختار والأخذ بالثأر منه .

بدأ المختار يطلب الهدنة ، فبعث برسالة الى ابن الزبير وقال له : « فان ترد مراجعتى ومناصحتى فعلت » . ويذكر ابن الأثير^(١) السبب فيقول : « كان قصد المختار أن يكفئ ابن الزبير عنه ليتم أمره ، والشيعه لا يعلمون بشيء من أمره » . أما

(١) الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٠٣ .

البلاذري^(١) فينسب طلب الهدنة الى سبب آخر فيذكر أن المختار كان « خائفا من أن يوجه اليه ابن الزبير جيشا لما فعل بابن مطيع ولاخراجه اياه » . فقد كان المختار — كما بينا — قد عزل ابن مطيع والى ابن الزبير بالكوفة ، وأصبح صاحب السيادة فيها ، كما نشر دعوته بالبصرة وولى المشى بن مخربة واليا عليها^(٢) . وأراد ابن الزبير أن يتأكد من صدق نوايا المختار ، فاختار أحد أنصاره ليتولى حكم الكوفة ، وهو عمر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام المخزومي ، وأمره بالتوجه الى الكوفة « وقال له ان المختار سامع ومطيع » ، وأعطاه ما بين ثلاثين وأربعين ألف درهم . وعلم المختار بقدوم عمر ، ورأى أن يصرفه بالحسنى أو القوة ، فلم يكن من السذاجة أن يسمح بعودة النفوذ الزبيرى الى الكوفة بعد الجهود العنيفة التى بذلها . فاستدعى أحد رجاله وهو زائدة بن قدامة وأعطاه سبعين ألف درهم ، وأمده بخمسمائة فارس ، وطلب منه أن يعرض على والى ابن الزبير المال ، فان رفض هدهه بالسلاح والقتال ، وأبدى عمر رفضه فى بداية الأمر تنفيذا لأوامر خليفته ابن الزبير ، ولكن كان تهديد قائد المختار كافيا ليحيد عن عزمه ، فأثر السلامة وأخذ المال ، وهو ضعف ما أعطاه له ابن الزبير ، ورحل الى البصرة حيث أقام الى جانب سلفه ابن مطيع والى الكوفة المعزول^(٣) .

(١) أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٤٣ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٠٣ .

استمر المختار في خداع ابن الزبير ، فتظاهر بالمضى في سياسة
المهادنة والمواعدة . فبعث رسالة الى ابن الزبير يخبره أنه بسط
سلطانه على الكوفة ، وطلب منه أن يقره على حكمه ، فيخضع
بذلك للأمر الواقع ، واقترح عليه أن يمدّه بمليون درهم مقابل
أن يزحف المختار بجيشه نحو الشام لقتال الخليفة الأموي عبد
الملك بن مروان ، ولكن ابن الزبير لم يعد يثق بالمختار فرفض
اقتراحه (١) .

كان على المختار أن يختار بين سيطرته على الكوفة أو رضا
ابن الزبير عنه . ولكن المختار لم ييأس فبات يترقب الفرص ليعيد
على ابن الزبير طلب الهدنة ، وحانت له الفرصة أخيرا ، فقد بعث
عبد الملك بن مروان جيشا أمويا بقيادة عبد الملك بن الحرث الى
وادي القرى ، وكتب المختار الى ابن الزبير يعرض عليه المساعدة ،
واضطر ابن الزبير ازاء موقعه الحرج أن يقبل عرض المختار ،
ولكنه اشترط عليه أن يأخذ البيعة له من أهل العراق ، وأن يعجل
بانقاذ الجيش .

وفي الحقيقة ، كان غرض المختار مكيدة دبرها لابن الزبير ،
فقد دعا المختار قائده شرحبيل بن ورس الهمداني ، وأمدّه بثلاثة
آلاف جندي معظمهم من الموالي ، وأمره بالزحف نحو المدينة
واتزاعها من ابن الزبير . ولم يكن ابن الزبير مطمئنا الى اخلاص
المختار ، ورأى أن يأخذ حذره وحيطته ، فأعد جيشا من ألفي

(١) المصدر السابق ج ٤ ص ١٠٤ .

جندى بقيادة سهل بن سعد للدفاع عن المدينة ، وأمره أن يستنفر البدو الأعراب ، وأن يتقدم الى المدينة ، فاذا أيقن من إخلاص جند المختار انضم اليهم وتعاونوا معا فى قتال الأمويين ، والا فعليه أن يقاتلهم حتى يهلكهم .

قدم ابن ورس قائد المختار الى المدينة ، والتقى بعباس بن سهل قائد ابن الزبير . فقال عباس لابن ورس : ألتسم على طاعة ابن الزبير ؟ قال : بلى . فقال عباس : فسر بنا الى عدوه الذى بوادى القرى . فقال ابن ورس : ما أمرت بطاعتكم ، انما أمرت أن آتى المدينة ، فاذا أتيتها رأيت رأى . فلما طلب ابن ورس من عباس أن يبدأ تعاونهما لقتال الأمويين رفض حتى يكتب الى المختار وينتظر ما يأمره به . وفطن عباس الى مكيدة المختار ، ورأى أن ينفرد بالعمل ، وأعان عزمه على المضى الى وادى القرى .

نفذت مؤن جيش المختار التى حملها معه من العراق ، فاضطروا أن يلتمسوها عند جند ابن الزبير . وأجاب ابن سهل قائد ابن الزبير طلبهم ، فأمدهم ببعض الأغنام ، فانشغل جند المختار بذبحها وسلخها وأقبلوا على الطعام ، وقد تركوا سلاحهم جانبا ، وانتشروا فى معسكرهم . وانتهاز ابن سهل هذه الفرصة ، ففاجأ المختارين بالهجوم عليهم ، وحاول ابن ورس أن يجمع فلول جنده فلم يجتمع حوله غير مائة منهم ، ودارت معركة سريعة انتهت بمصرع ابن ورس وسبعين ممن كانوا معه . وتتبع الزبيريون جند المختار فقتلوا مائتين منهم ، وأسرع الباقيون الى النجاة

بأنفسهم والفرار ، ولكن هلك معظمهم في الطريق جوعا وعطشا^(١). وهكذا انقلب الأمر على المختار ، ولكن المختار لم يفوت هذه الفرصة ، فكتب الى ابن الحنفية وذكر له أن غرضه من انتهاذ ذلك الجيش المهزوم هو مساعدة ابن الحنفية ضد اضطهاد ابن الزبير له ، وعرض عليه أن يعيد الكرة ، فقال « فإن رأيت أن أبعث الى المدينة جيشا كثيفا . وتبعث اليهم من قبلك رجلا حتى يعلموا أنني في طاعتك فافعل ، فانك ستجدهم بحقكم أعرف ، وبكم أهل البيت أرأف منهم بآل الزبير » . ولكن ابن الحنفية كان كعادته يميل الى السلام ، فرفض عرض المختار .

ثم بدأ ابن الزبير اضطهاده وتعذيبه لمحمد بن الحنفية وبنى هاشم ، فقد حبسهم في زمزم وتوعدهم بالقتل والاحراق ما لم يعلنوا بيعتهم له ، وضرب لهم أجلا ، فأشار بعض أنصار ابن الحنفية عليه أن يطلب النجدة من المختار فكتب اليه ، وأثار المختار مشاعر أهل الكوفة ، فبكوا وطلبوا من المختار أن يسيرهم لنجدة ابن الحنفية ، فبعث المختار جيشا بقيادة عبد الله الجدلي . ودخل المختاريون المسجد الحرام وهم ينادون : يا لثارات الحسين . وهو شعار المختار الدائم . وكان قد بقي من الأجل الذي حدده ابن الزبير يومان ، فكسروا باب السجن ، وأطلقوا سراح ابن حنفية ومن معه ، واستأذنتوه في قتال ابن الزبير ، فقال : اني لا أستحل القتال في الحرم . وحاول ابن الزبير أن يعيد ابن الحنفية

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٠٤

وآله الى السجن مرة أخرى ، لولا أن هددته الجدلي قائد المختار فقال : أى ورب الركن والمقام لتخلين سبيله أو لنجادلك بأسيا فنادى لا يرتاب منه المبطلون ! .

كان تهديد جند المختار لابن الزبير كافيا ليكف يد الايذاء عن ابن الحنفية وبنى هاشم . وكان المختاريون على استعداد لقتال ابن الزبير ، ولكن ابن الحنفية أصر على السلام . وصحب المختاريون ابن الحنفية الى شعب على بن أبى طالب ، فكان عدد من التف حوله وآزره أربعة آلاف رجل ، وقسم ابن الحنفية بينهم الأموال التى بعثها المختار اليه .

وهكذا كان النصر للمختار فى هذه الجولة من جولات صراع المختار وابن الزبير ، وكانت الحجاز ميدانا لها . أما الجولة الثانية فستكون فى بلاد العراق ، وستنتهى بانتصار ابن الزبير ومصرع المختار .

الصراع بين المختار ومضرب بن الزبير حول العراق :

أصبح التفاهم أو التعاون بين المختار وابن الزبير مستحيلا . فقد حاول المختار أن يكرر بعدوه ، وكان المختار يريد بانفاز جيش ابن ورس الكيد له فى محنته ، فيقع بين شرين ، فقد قدم جيش أموى الى المدينة . كما غضب ابن الزبير على المختار لمساندته أعدائه الألداء من بنى هاشم .

ورأى ابن الزبير أن المختار لا يقل خطورة على الحركة الزيرية من الدولة الأموية ، ولا سيما أن المختار فى السنوات الأخيرة

قد نقل نشاطه السياسى والعسكرى من العراق الى الحجاز
أيضا ، قلب الخلافة الزيرية ، ودعم الحزب الهاشمى المعارض لابن
الزير . ولذا رأى ابن الزير أن يقف من المختار موقفا حاسما .
وقرر ابن الزير أن يتخذ من مدينة البصرة بالعراق نقطة
ارتكاز ووثوب ، فقد كان المختار مسيطرا تماما على الكوفة ،
كما كانت البصرة أقرب مدن العراق الى الحجاز ، والعنصر العربى
فيها صاحب النفوذ ، وقد أصبحت ملجأ للعرب أشرف الكوفة
الذين فروا من وجه المختار وباتوا يترقبون الفرص للانتقام من
المختار ، وكان من المؤكد أن يهرعوا الى تأييد ابن الزير فى صراعه
للمختار .

كف ابن الزير عن اختيار ولاية ضعاف مثل ابن يزيد وابن
مطيع ، ورأى أن يختار نائبا عنه فى العراق تتمثل فيه صفتان
ضروريتان : العزم والاخلاص ، ولم تتوفر هذه الصفات حينئذ
سوى فى أخيه مصعب بن الزير ، وكان معروفا فى تلك الأيام
بالشجاعة والاقدام . فولاه عبد الله بن الزير حكم البصرة وأمره
بالخروج اليها سنة ٦٧ هـ .

قدم مصعب بن الزير الى البصرة متلثما ، فدخل مسجد
البصرة ، وخطب فى أهلها معلنا نهاية عصر الضعف والتهاون وبداية
عصر من العزم والقوة . ووصف فيها الأمويين بأنهم « مفسدون »
ووصف المختار بأنه « فرعون » ، ثم ختم خطبته بقوله :
« .. يا أهل البصرة بلغنى أنكم تلقبون أمراءكم ، وقد لقيت نفسى

بالجزار» (١) . وتذكرنا هذه الخطبة ، بخطبة زياد بن أبيه في البصرة حين ولاء معاوية بن أبي سفيان حكمها ، وتذكرنا بخطبة الحجاج بن يوسف الثقفي الذي سيتولى حكم العراق بعد مصرع كل من المختار ومصعب بن الزبير .

وقد علم أشراف الكوفة اللاجئون الى البصرة بقدوم مصعب ، فقدموا عليه يصيحون : واغوثاه ! وطلبوا منه أن يخرج معهم لقتال المختار ، ولكنه رأى أن يؤجل ذلك الى أن يستقدم المهلب ابن أبي صفرة عامل فارس ليقاتل المختار ، وكان المهلب حينئذ يقاتل الخوارج (٢) .

بعث مصعب الى المهلب رسالة يطلب فيها منه أن يهادن الخوارج ، ويقدم الى البصرة ، ليقود الجيش الزاحف الى الكوفة لقتال المختار . وخيب المهلب رجاء مصعب ، فقد تلكأ في الحضور ، فقد كان يفضل قتال الخوارج على قتال المختار ، ولكن مصعب بعث مرة أخرى يستحثه على القدوم ، فقال رسول مصعب للمهلب : ان نساءنا وأبنائنا وحرمانا غلبنا عليهم عبيدنا !

هادن المهلب الخوارج ، وقدم بأعداد كبيرة من الجند الى البصرة ، ومعه أموال عظيمة حازها خلال حروبه الطويلة مع الخوارج ، استعان مصعب بها في اعداد جيش كثيف ، أصبح كامل العدة والسلاح والمؤن ، فتوافرت له أسباب النصر . وفي الوقت نفسه ، أراد مصعب أن يثير المتاعب للمختار في الداخل ،

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ١١٢ .

(٢) البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٥١ .

فبعث برجل من رجاله الأذكياء ، وهو عبد الرحمن بن مخنف ، الى الكوفة « فأمره أن يخرج اليه من قدر عليه ، وأن يشبط الناس عن المختار ويدعوهم الى بيعة ابن الزبير سرا » (١) . ونجح ابن مخنف في مهمته ، فاستطاع أن يثير القلاقل في الكوفة ، ويحيد ضعاف الايمان من أنصار المختار عن الاخلاص له . كما أن البقية الباقية من أشراف الكوفة أصبحوا شوكة في جنب الحركة المختارية ، فانصرف المختار الى مشاكله الداخلية وانشغل بها عن الجيش الزاحف .

قبل المهلب بن أبي صفرة أن يشترك في قتال المختار ، فكان ذلك أعظم كسب لمصعب ، فقد كان المهلب أعظم قواد عصره على الإطلاق ، وقد دوخ الخوارج طويلا . واشترك مع مصعب صناديد العرب ورجالاتهم ، وفي مقدمتهم عمر بن عبيد الله بن معمر الذي ثولى قيادة مينة الجيش ، وعباد بن الحصين زعيم عرب بني تميم ، ومالك بن المنذر الذي قاد فرقة كلها من قبيلة عبد القيس ، وانضم اليهم زعيم البصرة الأول الأحنف بن قيس الذي قاد جيش العالية . وهذا الجيش على هذه الصورة تتوقع له النصر المؤزر ، فقد توافرت له أسباب النجاح .

مصنع المختار :

علم المختار بخروج مصعب والمهلب لقتاله ، فجمع جنده وأنصاره وولى عليهم أحمر بن شمييط قائدا عاما للجيش ، وولى

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١١٢ .

أبا عمره قائدا لفرقة الموالي ، ولجأ مصعب الى المكيدة والخداع ،
فقد بعث برجل الى القائد ابن شميظ فنصحه أن لا يسمح للموالي
بركوب الخيل وأن يحاربوا كمشاة حتى لا يهربوا من المعركة
« وكان هذا غشا منه للموالي لما كان لقي منهم بالكوفة ، فأحب
أن كانت عليهم الهزيمة ، وأن لا ينجو منهم أحد » . وجازت
الحيلة على ابن شميظ ، فوضع هذه النصيحة موضع التنفيذ .

تقدم جيش مصعب ، وأصبح وجها لوجه مع جيش المختار ،
وحاول ابن شميظ أن يدعو الى السلام ويحقن الدماء ، فصاح
في جند مصعب : انا ندعوكم الى كتاب الله وسنة رسوله والى
بيعة المختار والى أن نجعل هذا الأمر شورى فى آل الرسول .
ولكن مصعبا — بطبيعة الحال لم يكن يستجيب لهذا العرض ،
بل أمر المهلب بأن يسرع فى الهجوم على جيش المختار .

أقبل المهلب بجنده يهاجم أعداءه جند المختار وهو يصيح
فيهم : الفرار اليوم أنجى لكم ، علام تقتلون أنفسكم مع هذه
العييد ؟ فقد أراد المهلب بهذه العبارة أن يوقع الخلاف بين العرب
والموالي الذين ضمهم جيش المختار وجمعهم الولاء له .

هجم فرسان مصعب على مشاة ابن شميظ فالحقوا بهم
الهزيمة . وأقبل الفرسان من أشراف الكوفة الذين كانوا قد لجأوا
الى البصرة ، بقيادة محمد بن الأشعث ، يهاجمون جند المختار
الموالي ، وابن الأشعث يصيح فى فرسانه : دونكم ثأركم . ودبت
الحماسة فى قلوب الموالي جند المختار ، فأوقعوا الهزيمة بجند
البصرة فكانوا « لا يدركون منهزما الا قتلوه ولا يأخذون أسيرا

فيغفون عنه فلم ينبج من ذلك الجيش الا طائفة أصحاب الخيل
وأما الرجال فأبيدوا الا قليلا . ولكن سرعان ما دارت
الدائرة على جيش المختار ، ولم يظهر جند مصعب الظافرون أية
رحمة ، وكان أشدهم قسوة الكوفيون الهاربون الى البصرة ،
فقد كانوا أشد الناس على أبناء بلدتهم ، وخاصة على الموالي
الذين أعملوا السيوف فيهم . ونجح البصريون في الايقاع بين
العرب والموالي من جند المختار ، فتخلى عرب بجيلة وخشم عن
مساعدة اخوانهم الموالي ، وتركوهم يلقون مصيرهم على أيدي
جند مصعب ، ولم يتمكن الموالي من الفرار لأنهم كانوا مشاة ،
فقد استجاب ابن شميظ للنصيحة الغادرة التي خدعه بها أحد
رجال مصعب ، فلم يسمح للموالي بركوب الخيل ، فكانت النتيجة
أن لحق فرسان البصرة بموالي المختار المشاة وأبادوا معظمهم ،
ونجا قلة قليلة (١) .

كانت هذه الهزيمة صدمة عنيفة أصابت المختار ، فقد زعزعت
مكائنه في الكوفة ، وكان يعد أهل الكوفة أنه سيحقق لهم الفوز
والنصر ، فجعل أصحابه يلومونه ويذكرونه بوعوده .

وقد أبدى المختار شجاعة نادرة ، فرأى أن يقاتل حتى يقتل ،
فقال : ما من الموت بد ، وما من ميتة أحب الي من أن أموت
ميتة ابن شميظ . أى أن يموت في ساحة القتال . وزحف جيش
مصعب الى الكوفة ، وخرج المختار لقتالهم فنزل (حروراء) بعد
أن حصن القصر والمسجد بالكوفة . وبدأت معركة عنيفة في ليلة

(١) فلهوزن : الخوارج والشيعه ص ٢٢٧ .

منتصف جمادى الأولى سنة ٦٧ هـ ، فتقدم فرسان عرب الكوفة بقيادة محمد بن الأشعث ، فلحقت بهم الهزيمة وقتل قائدهم محمد ابن الأشعث ، فرأى المهلب أن يدخل المعركة حتى تنتهى سريعا الى نتيجة حاسمة .

امتلا ميدان المعركة بجثث أكبر نبلاء شيعة الكوفة . وقاتل المختار طوال الليل وهو مترجل . وشعر المختاريون أن الهزيمة ولا شك لاحقة بالمختار ، فقد كان جيش مصعب كامل العدد والعدة ، فبدأ جند المختار ينسلون الى جيش مصعب واحدا بعد واحد ، حتى وجد المختار نفسه فى الصباح وحيدا ، فأذعن لرأى القلة التى بقيت معه والتى كانت تحته على العودة ، فعاد الى قصره .

وفى غداة المعركة ، زحف جيش البصرة حتى دخل من المدخل الرئيسى للسبخة الى مشارف الكوفة ، ثم ضيقوا الخناق على المختار شيئا فشيئا ، وقطعوا عنه المؤونة . وكان المختار يسيطر على القصر وداخل المدينة ، وكان معه عدة آلاف من الموالى ومئات قليلة من العرب ، أما غالبية العرب فقد تسللوا الى أسرهم وبيوتهم .

وساءت أحوال المختار ومن بقى معه من الجند شيئا فشيئا « واجترأ الناس عليهم ، فكانوا اذا خرجوا رماهم الناس من فوق البيوت ، وصبوا عليهم الماء القذر . وكان أكثر معاشهم من النساء ، تأتى المرأة متخفية ومعها القليل من الطعام والشراب الى أهلها . ففطن مصعب الى النساء فمنعهن ، فاشتد على المختار

وأصحابه العطش ، وكانوا يشربون ماء البئر يعملون فيه الغسل ، فكان ذلك ما يروى بعضهم » (١) .

استمر الحصار أربعة شهور ، وكانت الكوفة مدينة مفتوحة ، ولم يكن محصناً غير القلعة ، ولكن الدروب الضيقة سهلت عملية الدفاع . فقد كان « الحصار » الذي تحدث عنه المؤرخون إنما هو القتال في طرقات الكوفة ، على طريقة حرب العصابات المعروفة الآن .

وبدأ مصعب وجنوده يتقدمون نحو القصر ، فقال المختار لجنوده : ويحكم ان الحصار لا يزيدكم الا ضعفا ، فانزلوا بنا نقاتل حتى نقتل كراما ان نحن قتلنا ، فوالله ما أنا بآيس ان صدقتموهم أن ينصركم الله . ولكن جند المختار أبوا الخروج لقتال جند مصعب ، وبين لهم المختار عواقب خذلانهم له فقال : أما أنا فوالله لا أعطى يدي ولا أحكمكم في نفسي ، وإذا خرجت فقتلت لم تزدادوا الا ضعفا وذلا ، فان نزلتم على حكمهم وثبت أعداؤكم فقتلوكم وبعضكم ينظر الى بعض فتقولون يا ليتنا أطعنا المختار ، ولو أنكم خرجتم معي كنتم ان أخطأتم الظفر متم كراما (٢) .

خرج المختار في تسعة عشر رجلا من أنصاره ، فقاتل بشجاعة وبسالة فادرة ، وظل يضرب بسيفه حتى قتل ، قتله أخوان من بني حنيفة ، وكان مصرع المختار في ١٤ رمضان سنة ٦٧ هـ

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١١٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١١٤ .

(٣٠ أبريل سنة ٦٨٧ م) وكان عمره اذ ذاك سبعا وستين سنة .
وقد وصف المسعودى (١) ساعات المختار الأخيرة فقال :
« ودخل المختار قصر الإمارة بالكوفة وتحصن فيه ، وكان يخرج
كل يوم لمحاربة مصعب وأصحابه وأهل الكوفة وغيرهم ، فخرج
اليهم ذات يوم وهو على بغلة شهباء ، فحمل عليه رجل من بنى
حنيفة يقال له عبد الرحمن بن أسد ، فقتله واحتز رأسه ، وتنادوا
بقتله ، فقطعه أهل الكوفة (٢) واصحاب مصعب أعضاء ، وأبى
مصعب أن يعطى الأمان لمن بقى فى القصر من أصحابه ، فحاربوا
الى أن أضر بهم الجهد ، ثم أمنهم وقتلهم بعد ذلك » .
وفى اليوم التالى لمصرع المختار ، تقدم جند مصعب الى القصر ،
وحاول أحد أنصار المختار أن يجمع المختارية ليحارب بهم مصعب ،
وهو بحير بن عبد الله المسكى ، ولكن رجال المختار أبوا
الا الاستسلام لمصعب « فأبوا عليه وأمكنوا أصحاب مصعب من
أنفسهم ونزلوا على حكمه فأخرجوهم مكتفين ، فأراد اطلاق
العرب وقتل الموالى فأبى أصحابه عليه ، فعرضوا عليه فأمر
بقتلهم » (٣) .

وأمر مصعب بقطع كف المختار فقطعت وسمرت بمسمار الى
جانب المسجد وظلت هناك حتى قدم الحجاج بن يوسف الثقفى

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٤٣ .

(٢) يقصد المسعودى « بأهل الكوفة » العرب الاشراف الذين

هربوا من الكوفة الى البصرة .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١١٥ .

واليا لعبد الملك بن مروان على الكوفة فأمر بنزعها ، وربما كان هذا راجعا الى انتساب كل منهما الى قبيلة ثقيف .

قتل مصعب بن الزبير جميع من استسلم من رجال المختار ، وكانوا بين ستة وثمانية آلاف ، وأطلق مصعب العنان لانتقام أشراف الكوفة الذين أرادوا الثأر لدماء آبائهم وأقربائهم من الموالي ، فاستحق من أجل ذلك أن يلقب بلقب « الجزار » وتبع الشيعة بالكوفة بالقتل .

التقى مصعب بن الزبير مع عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فسلم عليه وقال له : أنا ابن أخيك ، مصعب . فقال له ابن عمر : نعم ، أنت قاتل سبعة آلاف من أهل القبلة في غداة واحدة ، عس ما استطعت . فقال مصعب : انهم كانوا كفرة . فقال ابن عمر : والله لو قتلت عدتهم غنما من تراث أبيك لكان ذلك سرفا^(١) ! ووصف اليعقوبي^(٢) المأساة بأنها « أحد الغدرات المذكورة المشهورة في الاسلام » .

وكان مصعب قاسيا أيضا مع نساء المختار ، فقد أتى بهن ودعاهن الى البراءة منه ، ففعلن الا زوجتيه ، بنت سمرة بن جندب الفزارى نائب زياد بن أبيه ، وابنة النعمان بن بشير الأنصارى الوالى الأموى السابق بالعراق . وقالت المرأتان : كيف تتركنا من رجل يقول ربى الله ، كان صائم نهاره قائم ليله ، قد بذل دمه لله ولرسوله فى طلب قتلة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل شيعته ، فأمكنه الله منهم حتى شفى النفوس .

(١) الطبرى ج ٧ ص ١٥٧ . (٢) اليعقوبى ج ٣ ص ١٠ .

تخير مصعب فيما يفعله مع زوجتي المختار ، ازاء اصرارهما وعنادهما ، فكتب الى أخيه عبد الله بن الزبير بالخجاز يخبره بأمرهما وحديثهما . فكتب عبد الله الى مصعب : « ان رجعتا عما هما عليه وتبرأتا منه ، والا فاقتلها » . فهدد مصعب المرأتين بالقتل ، ولم تحتمل بنت سمرة بن جندب التهديد ، وأرادت النجاة من القتل ، فاضطرت الى اجابة مصعب لطلبه ، ولكن أعلنت أنه قد اضطرها الى تكفير المختار ، فقالت : لو دعوتني الى الكفر مع السيف لكفرت ، أشهد أن المختار كافر ! .

أما ابنة النعمان بن بشير ، فقد أصرت على اخلاصها لزوجها المختار ، ولم تر بأسا في التضحية بحياتها من أجله ، فقالت : شهادة أرزقها فأتركها ؟! كلا ! انها مودة ثم الجنة والقُدوم على الرسول وأهل بيته ، والله لا يكون ، أتى مع ابن هند فأتبعه ، وأترك ابن أبي طالب ، اللهم أشهد أني متبعة لنبيك وابن بنته وأهل بيته وشيعته . فقتلها مصعب بن الزبير ^(١) . وكانت — كما يقول اليعقوبي — « أول امرأة ضربت عنقها صبرا » ^(٢) .

العوامل التي أنهت حركة المختار :

وهكذا غابت شمس حركة المختار ، وأسدل الستار على أكبر الحركات السياسية التي شهدتها بلاد العراق في العصر الأموي والتي أثرت في تاريخ الدولة الأموية عامة وتاريخ بلاد العراق

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٤٣ - ٤٤ .

(٢) اليعقوبي ج ٣ ص ١٠ .

خاصة ، وانعكست آثارها على جميع الأحزاب والفرق السياسية والدينية . ورغم توفر جميع مقومات النجاح للحركة المختارية إلا أنها انهارت وتحطمت ، ولكنها لم تندثر ، فقد ظلت آثارها باقية طوال العصر الأموي ، وكانت عاملا من عوامل سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية . وهذا يدفعنا الى أن نتناول أسباب وعوامل نهاية حركة المختار .

أولا — اخفاق المختار في صبغ حركته السياسية بصبغة دينية :

أراد المختار أن يحرك عاطفة الناس الدينية ، فعمل على أن يصبغ حركته السياسية بصبغة دينية . فيروي المسعودي^(١) أن المختار اشترى كرسيًا قديما وشبهه بتابوت بنى إسرائيل ، ونادى بها كانت تعتقده الشيعة من رجعة أئمة الشيعة وعصمتهم ، وغير ذلك من المعتقدات التي لقيت قبولا كبيرا من الموالي الفرس لأنها تتفق مع عقائدهم الفارسية القديمة ، وإن كان كثير من العرب أعرضوا عنها تماما . وكان المختار يهدف الى صبغ حركته السياسية بصبغة دينية ، فقد كان الدين سلاح ذلك العصر ، ويسير الدين والسياسة جنباً الى جنب ، في طريق واحد . وقد مزجت جميع الأحزاب السياسية في ذلك الوقت آراءها السياسية بعقائد دينية ، وخاصة الشيعة والخوارج والمرجئة . وكانت الشيعة تطلق على الخليفة العلوي لقب « الامام » ، كناية عن نفوذه الديني ، فهو

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٢ .

امام المسلمين في دنياهم ، مثله في ذلك الامام في الصلاة . ويعلل بروكلمان ^(١) صبح المختار حركته السياسية بصبغة دينية ، بأنه أراد أن يعوض ما كان يشعر به من نقص ، حيث لم يكن له حق في الخلافة .

ثانيا — ابن الحنفية لا يؤيد المختار تأييدا مطلقا :

استفاد المختار من اسم محمد بن الحنفية الى أكبر حد ، في تدعيم حركته السياسية ، فأعلن أنه وزيره وأمينه في العراق ، وأصبح داعيا لاقامة خلافة علوية في العراق . ونرى أن المختار كان صادقا في اخلاصه لابن الحنفية وللمذهب الشيعي ، فقد فتح داره أمام مسلم بن عقيل ، وعرض نفسه لسطخ الأمويين ، وقبض ابن زياد عليه وسجنه ، ولولا شفاعته ابن عمر لبقى طويلا في السجن ، وضربه ابن زياد على وجهه فشتت عينه . واهتم المختار بالأخذ بثأر الحسين وقتل ابن زياد . وكانت صلاته وهداياه لا تنقطع عن ابن الحنفية وبني هاشم في الحجاز ، وبعث جيشا يعاضدهم ضد ابن الزبير ، ولولا ذلك لقضى عبد الله بن الزبير عليهم .

ورغم هذا الاخلاص الظاهر الذي أبداه المختار دائما لابن الحنفية والعلويين ، فإن ابن الحنفية لم يعلن تأييده المطلق للمختار . فكان أحيانا يعلن مناصرته للمختار ، وأحيانا أخرى يمسك عن تأييده .

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ .

كان المختار يرجو أن يكون ابن الحنفية حريصا على حقه السياسي فيطالب بالخلافة ويجاهد في سبيلها ، كما فعل أخواه الحسن والحسين . ولكن ابن الحنفية كان يميل دائما الى الاستكانة والسلام دون الكفاح والجهاد ، فلم يعلن الثورة ، ولم يطلب البيعة له كخليفة ، بل وقف من الأمويين ، أعداء بنى هاشم والشيعة وقتلة الحسين ، موقفا سلبيا ، بينما عارض ابن الزبير الثائر ضد الأمويين مما أضعف موقف الحركة الزبيرية ، كما اقتصر ابن الحنفية في تأييده للمختار .

نرى سياسة ابن الحنفية واضحة في كتبه ومواقفه من المختار فقد كتب « أما بعد ، فقد قرأت كتابك ، وعرفت تعظيمك لحقي وما تنوه به من سرورى ، وإن أحب الأمور الى ما أطيع الله فيه ، فأطع الله ما استطعت ، وإنى لو أردت القتال لوجدت الناس الى سراعا والأعوان لى كثيرا ، ولكنى أعتذر لكم وأصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » (١) . فابن الحنفية في هذه الرسالة يعلن أنه فى غنى من مساعدة المختار ، وأنه لا يريد القتال من أجل حقه ، وأنه يفضل الصبر على الجهاد .

أعلن المختار ولاءه للبيت العلوى منذ اللحظة الأولى ، وأعلن دائما أنه ينوى الأخذ بشار الحسين ، وإن كان قد تأخر قليلا فقد كانت الظروف السياسية لا تسمح بذلك ، فقد كان فى أول الطريق ، لم يثبت أقدامه بعد فى الكوفة ولم يكن جيشا قويا ،

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٠٤ .

ولكن ابن الحنفية لم يقدر ظروف المختار ولم يعذره ، بل تعمد
التهمك عليه فكان يقول : « يزعم أنه لنا شيعة وقتلة الحسين
جلسأؤه على الكراسى يحدثونه » (١) .

وكاد ابن الزبير أن يقضى على ابن الحنفية وبنى هاشم حرقا ،
وبعث المختار جيشا بقيادة الجدلى لنجدتهم . وتقدم الجدلى
لابن الحنفية فقال : دعنى وابن الزبير . فقال : لا أستحل من قطع
رحمه ما استحل منى . وكان عبد الله بن عباس ينصح ابن الحنفية
دائما بتأييد المختار ، فقد لمس اخلاصه الدائم لبنى هاشم .

ويبدى جولدتسيهر (٢) رأيه فى ابن الحنفية فيقول عنه : كان
رجلا ذا عقلية دينوية ، ومع ذلك فقد كان يمثل المصالح الدينية
المقدسة فى سبيل السنن والتقاليد الاسلامية . وشعر بنو هاشم
بالخسارة التى لحقت بهم بمصرع المختار ، فيذكر ابن الأثير (٣)
أنه « لما قتل المختار تضعضعوا واحتاجوا » .

ثالثا — اغفال المختار تكوين حزب سياسى أو البيعة له
بالخلافة :

لم يهتم المختار بتكوين حزب سياسى له شخصية مستقلة وله
مبادئ ثابتة واضحة ، يستطيع كل فرد أن يفهمها ويعتقها .
وقامت الحركة المختارية على مجهود فردى فارتبطت بشخصية
المختار ، فكان المحور الوحيد لهذه الحركة ، حتى اذا انهار المختار

(١) الطبرى ج ٤ ص ٥٣٢ .

(٢) العقيدة والشرعية فى الاسلام ص ١٢٩ .

(٣) الكامل ج ٤ ص ١٠٦ .

انهارت حركته بالتالى . ولم يكن للمختار آراء خاصة تتناول المسائل الهامة التى تشغل المسلمين فى ذلك الوقت وخاصة مسألة الخلافة .

نادى المختار بنفس الآراء التى نادى بها الشيعة ، وأعلن أن هدفه الأسمى هو الأخذ بثأر الحسين من قتلته ، وجعل شعار حركته (يا لثارات الحسين) وهى أهداف محددة لا تصلح لأن تكون أساس حركة سياسية كبرى . فقد كان على المختار ، على هذا الأساس ، أن يعلن بنفسه انتهاء حركته بعد أن حقق أهدافها ، أى بعد مصرع قتلة الحسين . كما أن اقتصار المختار على ترديد مبادئ الشيعة ، يجعله تابعا لا متبوعا ، فرعا لا أصلا ، وكان على المختار أن يكون له شخصية مستقلة لها آراؤها السياسية ، بدلا من أن يكون داعيا من دعاة الشيعة . إن حزب الخوارج حدد له مبادئ ثابتة ، ولذا عاش هذا الحزب طويلا ، رغم انقسامه الى أكثر من عشرين فرقة ، ورغم تعدد الزعماء ، ومثل هذا يمكن قوله على أحزاب الشيعة والمعتزلة والمرجئة والقدرية وغيرها .

أهمل المختار أن يبايع لنفسه بالخلافة فيصنع حركته السياسية بصيغة شرعية ، فيظهر فى حروبه وجهاده أمام المسلمين أنه يدافع عن حق ، وأنه ليس بخارج على طاعة الدولة أو الخليفة . وأدرك ابن الزبير هذه الحقيقة فأعلن نفسه خليفة بالحجاز . قد يرد البعض علينا بأن المختار ليس من قريش ، ولكن نقول ان المختار عربى من قبيلة كبرى هى ثقيف : منزلتها فى الطائف كمنزلة قريش فى مكة . كما أن بلاد العراق كانت موطن الخوارج والموالى وهم

يرون أن الخلافة من حق كل مسلم ، عربى أو غير عربى ، حر أو مولى ، قرشى أو غير قرشى . وقد بايع الخوارج ، فى عهد على ابن أبى طالب ، أحدهم بالخلافة وهو عبد الله بن وهب الراسبى . ونلاحظ أن جميع الزعماء الذين أعلنوا الثورة دون البيعة لهم بالخلافة قد انتهت ثوراتهم بالفشل مثل عبد الرحمن بن الأشعث ويزيد بن المهلب بن أبى صفرة .

رابعا — غضب العرب على المختار لاعتماده على الموالى : يعيب المؤرخ (نيكلسون)^(١) على المختار اعتماده على الموالى ، فهو يرى أن المختار باعتماده عليهم قد حول حركته ضد العرب بدلا من أن تكون ضد الأمويين . ويعلق (ميور)^(٢) على سياسة المختار فيذكر أنه بنى مستقبله السياسى على أساس من الرمال ، فلم يكتب له البقاء والدوام . أما (فلهوزن)^(٣) فيدافع عن المختار فيقول : ان المختار لم يكن يرمى الى اثاره الموالى ضد العرب ، بل اتبع سياسة المهادنة والتوفيق ، وأن الشيعة كانت كلها من ورائه حتى استطاع أن يجتذب اليه الأرستقراطية العربية المعادية . ويرى فلهوزن أن المختار خليف بالمديح ، فقد كان أسبق من غيره فى ادراك أن الأحوال القائمة آنذاك لا يمكن أن تبقى دائما حيث العرب يتمتعون بجميع الحقوق دون الموالى . ولو نجح المختار فى تحقيق غرضه لأصبح منقذ الدولة العربية ، كما يذكر

Lit. Hist. of The Arabs, p. 215 (١)

The Caliphate, p. 535 (٢)

(٣) الخوارج والشيعة ص ٢٥٣ .

فلهوزن^(١) أيضا أن ثورة الموالي بقيادة المختار بيّنت مدى الخطر الذي كان يهدد الدولة العربية من جانبهم . وقد قضى على هذه الثورة باراقة دماء القائمين بها ، ولكن مكلء الفجوة التي أوجدها السيف في صفوفهم كان سهلا بفضل المسلمين الجدد الذين جاءوا من القرى والرساتيق ، هؤلاء المسلمين الذين ربما كانت روحهم أكثر حبا للإسلام من غيرهم ، ولكن كانت لهم نفس المصالح التي كانت لطبقة الموالي ، وكان هذا بمثابة فجوة في النظام الذي وضعه عمر بن الخطاب ، ذلك أن مدن الجيش والحكومة لم تلبث أن فقدت طابعها العربي المميز .

خامسا — إهمال المختار الاستعانة بقائده ابراهيم بن الأشتر: كان ابراهيم بن الأشتر من أعظم القواد الحريين في العصر الأموي ، كما كان شريفا في نسبه وقومه وله عصبية كبيرة ، فهو من قبيلة نخع من مذكحج . وقد أثبت جدارته الحرية في جميع المعارك التي اشترك فيها ، سواء في طرد ولالة ابن الزبير أو قتال ابن زياد . وحرص المختار عند بداية حركته على أن يجذب ابن الأشتر اليها ، فنراه يسوق الناس لاقناعه ، ثم استصدر كتابا من ابن الحنفية يطلب فيه من ابن الأشتر الانضمام الى المختار ، وأشهد المختار الناس على صحة هذا الخطاب . وحرص المختار على أن يقود ابن الأشتر جيوشه في شتى المعارك الكبرى .

ثم أقبل مصعب بن الزبير بجيش كبير لقتال المختار ، ورغم أن المختار قد أدرك أن المعركة ستكون فاصلة وأنها ستقرر مصيره ،

(١) تاريخ الدولة العربية ص ٢٧٠ .

فانه أغفل استدعاء ابراهيم بن الأشتر من الموصل ، وكان قد ولاه عليها ، ليتولى قيادة جيوشه ، وخاصة أن مصعب ولّى بطلا هو المهلب بن أبي صفرة ، بل أمر المهلب بمهادنة الخوارج رغم خطورتهم ليتفرغ لقتال المختار . ويعلل (فلهوزن)^(١) ذلك بأن المختار ربما أصبح يشك في اخلاص ابن الأشتر . ولكن الموقف كان يقتضى التفاوض عن ذلك . ويرى فلهوزن أنه لو اشترك ابراهيم في هذه المعركة لاتخذت الأمور مجرى آخر بسهولة ، فقد كان ينقص جيش المختار القائد ، و ابراهيم كان خير من يواجه المهلب .

سادسا — تخاذل أهل الكوفة :

وقع المختار فيما وقع فيه على بن أبي طالب ، وابنه الحسن ، وابنه الحسين ، ومسلم بن عقيل بن أبي طالب ، وما سيقع فيما بعد منه زيد بن على ، وعبد الله بن معاوية ، وهما من حفدة على ابن أبي طالب .

وصف على بن أبي طالب تخاذل أهل الكوفة في قوله لهم : « أو ليس عجا أن معاوية يدعو الجفأة فيتبعونه على غير عطاء ولا معاونة ، يحييونه في السنة المرتين والثلاث ، الى أى وجه شاء ، وأنا أدعوكم ، وأتم أولو النهى وبقية الناس على المعاونة وطائفة منكم على العطاء ، فتقومون عني وتعصوني وتختلفون على »^(٢) .

(١) الخوارج والشيعة ص ٢٢٩ .

(٢) البيهقي : المحاسن والمساوى ج ٢ ص ٥٦ .

يرجع الدينوري^(١) نزول الحسن عن الخلافة الى موقف أهل الكوفة منه : « ولما رأى الحسن من أصحابه الفشل أرسل الى عبد الله بن عامر بشرائط اشترطها على معاوية على أن يسلم له الخلافة » . ومرو بنأ كيف تخلى الكوفيون عن مسلم بن عقيل ، فقد كان أنصاره في الكوفة ثلاثين ألفا فتضاءلوا حتى أصبحوا ثلاثين رجلا ، ثم تركوه يلقي مصيره . وتخاذل الكوفيون عن الحسين بن علي « حتى بقي في أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة »^(٢) ، وأنكروا كتبهم التي بعثوها له يدعونه الى الكوفة ، فكانت مأساة كربلاء .

وتكرر الموقف مع المختار ، فكان اذا خرج من القصر رماه الكوفيون من فوق البيوت ، وصبوا عليه الماء القذر . وكانوا بالأمس يضعون على رأسه أكاليل الغار ، ويهتفون باسمه . وحاول المختار أن يحث جنده المعتصمين معه بالقصر على القتال وذكرهم بما ينتظرهم على يد مصعب اذا لقي حتفه ، فلم يعيروهم أذنا صاغية ، وتركوه وحيدا يلقي حتفه ، ولكن شاءت المقادير أن يشاركوه مصيره فقد قتلهم مصعب أيضا .

سابعا — مصعب يخدع قائد المختار :

لم يلجأ مصعب في نضاله للمختار الى القوة الحربية فحسب « بل لجأ كذلك الى المكيدة والخداع . فقد علم مصعب أن معظم جند المختار يتألف من الموالي ، ورأى مصعب أن يحرم المختار من

(١) الأخبار الطوال ص ٢٣١ .

(٢) اليعقوبي ج ٣ ص ١٠ .

هؤلاء الجند المتحسين ، فقد استمال أحد قواد المختار وهو عبد الله بن وهب بن أنس ، واستطاع هذا أن يخدع أحمر بن شميظ قائد المختار ، فأشار عليه ألا يسمح للموالي بركوب الخيل خشية فرارهم من المعركة ، ونجحت الخدعة ، فكانت النتيجة فتك فرسان مصعب بالموالي المشاة وإبادة غالبيتهم ، وعلم المختار بمصرع معظم جنده فتحصن بالقصر . كما أن مصعب قد بعث أحد رجاله من إلى الكوفة ، فأخذ ينقّر العرب من الانضمام إلى المختار ، ويمنيهم بالوعود والمكافأة ، فآثروا التخلي عن المختار والانضمام إلى مصعب . ففقد المختار بهذه الطريقة أنصاره من الموالي والعرب .

ثامنا — مرض المختار في أثناء المعركة :

ركز المختار جميع جوانب الحركة في شخصه ، فكان الزعيم السياسي ، والقائد الحربي . وفي المعركة الأخيرة الفاصلة رأينا المختار يحجم عن تعيين إبراهيم بن الأشتر قائدا لجيشه الذي وجهه لقتال المختار ، بل ولّى ابن شميظ حتى إذا قتل تولّى المختار قيادة المعركة بنفسه ، لكنه أصيب بمرض شديد في أول المعركة لازمه طوال الحرب ، فيذكر المؤرخ اليعقوبي ^(١) « وكان المختار شديد العلة من بطن به » . ولا شك أن مرض المختار — وهو القائد الأعلى — يحد من نشاطه وجهوده .

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ١٠ .

أثر المختار في تاريخ العصر الأموي :

(السياسي ، الديني ، الاجتماعي ، الاقتصادي)

اخفاق الحركة الزيرية - أثر حركة المختار في تاريخ
الدولة الأموية - تعدد ثورات الكوالم - سقوط الدولة
الأموية وقيام الدولة العباسية - التطور السياسي لحزب
الشيعية - ظهور فرقة الكيسانية - ظهور فرقة الهاشمية -
أثر المختار في الحياة الاجتماعية - أثر المختار في الحياة
الاقتصادية •

الفصل الثاني عشر

أثر المختار في تاريخ العصر الأموي

(السياسي ، الديني ، الاجتماعي ، الاقتصادي)

إخفاق الحركة الزبيرية :

كان معظم أهل العراق من شيعة عليّ بن أبي طالب ، وقد غضبوا بالأمر لاقدام يزيد بن معاوية على قتل زعيمهم الحسين ابن علي ، وكان هذا من عوامل تأييدهم لعبد الله بن الزبير باعتباره نائراً على الدولة الأموية . ولكن أهل العراق غضبوا على ابن الزبير لموقفه السلبي من التوايين . حتى اذا ظهر المختار وأعلن أنه وزير ابن الحنفية وأخذ بثأر الحسين التفوا حوله . ولذلك كان اقدام ابن الزبير على قتل المختار عاملاً على ثورة أهل العراق على الحركة الزبيرية ، فتخلوا عن تأييد مصعب بن الزبير مما سهل أمر انتزاع العراق على عبد الملك بن مروان .

وقد لام عبد الله بن عباس بن عبد المطلب مصعب بن الزبير على قتل المختار ، وتحدث عن المختار فقال : « ذاك رجل قتل قتلنا وطلب ثأرنا وشفى غليل صدورنا وليس جزاؤه منا الشتم والشماتة » . وقال ابن عباس لعروة بن الزبير : قد بقيت لكم عقبة

كؤود فان صعدموها فأتتم والا فلا . يقصد عبد الملك بن مروان^(١) .
صفت الأحوال لعبد الملك بن مروان في الشام ، واستقرت
له الأمور بعد قضائه على منافسيه من بني أمية ، فوجه وجهه نحو
العراق المضطرب بنيران الفتنة والفوضى . وكان مصعب واليا عليه
لأخيه عبد الله بن الزبير فبذل جهده في تهدئة الثورات وارضاء
الزعماء الساخطين . ولكن كان الخرق قد اتسع ، فقد ورثه المختار
تركة مثقلة بالأعباء . فالخوارج يهددون البصرة ، والشيعية تطالب
بثأر المختار ، وحاول الأمويون استمالة الأحزاب ، والزعماء .
واستفاد عبد الملك من الفوضى السائدة بالعراق ، فزحف بجيش
كبير قضى به على مصعب بن الزبير سنة ٧١ هـ .

وكان القضاء على الحركة الزيرية في العراق ايذاً بغروب
شمس عبد الله بن الزبير . فقد استقرت الأمور لعبد الملك بن
مروان في جميع الأمصار ما عدا الحجاز . وتألم عبد الله بن الزبير
لضياع العراق ومصرع مصعب ، وأدرك أن مصرع مصعب بمثابة
أول مسمار يندق في نعشه . وبعث عبد الملك جيشاً بقيادة الحجاج
ابن يوسف الثقفي حاصر ابن الزبير بمكة وقتله .

أثر حركة المختار في تاريخ الدولة الأموية :

لعب المختار دوراً كبيراً في الحياة السياسية في العصر الأموي ،
وأثرت حركته في مجريات الحوادث ، واستمر تأثيرها طوال العصر

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١١٧ .

الأموى ، وكانت الحركة المختارية من عوامل سقوط الدولة الأموية
وقيام الدولة العباسية .

ولا شك أن سماح المختار لمسلم بن عقيل بن أبى طالب أن
يتخذ من داره مكانا لتلقى البيعة للحسين بن على من أهل العراق
ساعد على انتشار الدعوة العلوية الشيعية بالعراق ، وبالتالي الى
معارضتهم للحكم الأموى . ونجح المختار فى صبغ العراق
بالصبغة الشيعية طوال فترة سيادته ، وخاصة بعد أن أعلن أنه
وزير ابن الحنفية وأخذ بثأر الحسين . ولذا نعتبر المختار عضد
حزب الشيعة ، ذلك الحزب الذى أقلق الدولة الأموية دائما ،
حتى تنازل العلويون الى العباسيين الذين قضوا على الدولة
الأموية ، وأقاموا دولتهم فى بلاد العراق .

كانت حركة المختار سببا لضياع العراق من قبضة الدولة
الأموية منذ وفاة يزيد بن معاوية الى خلافة مروان بن الحكم ،
ومطلع عهد عبد الملك ، حتى استطاع عبد الملك القضاء على الحركة
الزيرية فى العراق ، ثم فى الحجاز . والمختار هو الذى قضى على
الجيش الأموى بقيادة عبيد الله بن زياد فى موقعة خازر ، ذلك
الجيش الذى بعثه مروان بن الحكم لانتزاع العراق من أيدي
ولاة ابن الزبير ، ولم يكن موجها ضد المختار . كما أن المختار
تبع قتلة الحسين واضطهد العرب الأشراف فى الكوفة ، وكانوا
عملاء الأمويين فى العراق .

وان كانت هذه هى قائمة بما لحق بمصالح الدولة الأموية
من أضرار نتيجة قيام الحركة المختارية ، فقد أفاد الأمويون ،

بطريق غير مباشر ، من الحركة المختارية . أفادوا من حث المختار
 للشيعة على الامتناع عن الانضمام الى سليمان بن صرد زعيم
 التوايين ، ومنافس المختار في زعامة الشيعة ، مما أدى الى ضعف
 صفوف التوايين ، فأصبحت مهمة الجيش الأموي في القضاء عليهم
 يسيرة سهلة . كما أن المختار شغل دائما ولاة ابن الزبير عن تثبيت
 أقدامهم في العراق ، وكانت بلاد العراق مسألة حياة أو موت
 بالنسبة للحركة الزبيرية ، فهي موطن المال والرجال ، وكان ضياع
 العراق من أيدي الزبيريين ايذانا بالقضاء على الحركة الزبيرية
 تماما . فانشغل مصعب بن الزبير بقتال المختار عن الاستعداد لقتال
 عبد الملك بن مروان ، بينما كان عبد الملك منصرفا الى تجنيد كل
 قادر على حمل السلاح ، ولقى عبد الملك مصعبا وقد أنهكه قتال
 المختار فسهل عليه القضاء عليه ، وكان أهل العراق قد ملوا القتال
 فأثروا الهدوء . ويرى فلهوزن أن سخط أهل الكوفة على مصعب
 لقتله المختار كان سببا في تأييدهم المؤقت لعبد الملك بن مروان ،
 فقال : ولم تكن أهواء أهل الكوفة الى جانب مصعب ، ولم يستنجد
 به أشرف الكوفة ليساعدهم على المختار إلا لأنهم كانوا مضطرين
 الى ذلك ، وكثيرون كانوا يكرهونه ، لأنه جعل دماء أتباع المختار
 تجري أنهارا ، ولهذا كانت مهمة عبد الملك سهلة ، فأدخل معوله
 بين أهل الكوفة (١) .

(١) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ١٩١ .

تعدد ثورات الموالي :

اعتمد المختار في حركته على تأييد الموالي ، ورفع من شأنهم ، فولاهم المناصب وأزال أسباب تدميرهم ، وأشركهم مع العرب في العطاء ، وكان معظم جنده منهم . وقام صراع بين العرب بزعامة مصعب بن الزبير ، والموالي بزعامة المختار حول السيطرة على العراق . ويبدو أن العرب كانوا أكثر قوة أو أن الموالي كانوا أضعف إيمانا بمبادئهم ، فقد نجح مصعب في القضاء على المختار ، كما قضى على أربعة آلاف من أتباعه من الموالي . ويبدو أن الموالي قد غضبوا على مصعب لموقفه منهم ، فتركوه يلقي مصيره على يد عبد الملك بن مروان . وباتتصار عبد الملك عاد الموالي يعانون قسوة الولاة الأمويين مرة أخرى .

ولكن المختار كان قد أيقظ في نفوس الموالي آمالا كبيرة عملوا على تحقيقها ، ومنحهم حقوقا سياسية واجتماعية حرصوا على الاحتفاظ بها دائما . ولذا تعتبر ثورات الموالي المستمرة طوال العصر الأموي نتيجة مباشرة لحركة المختار .

وكان المختار يولي الموالي في المناصب ، وكان حديث معسكر المختار باللغة الفارسية . ولكن بعد قضاء عبد الملك بن مروان على مصعب وبعد سيطرته على العراق بدأ تعريب الدواوين من اللغة الفارسية الى اللغة العربية ، فكان لهذا أثر كبير في نفوس الموالي ، فقد قضى على آخر مظهر من مظاهر السيادة الفارسية . كانت ثورة عبد الرحمن بن الأشعث ، وهو عربي ، أعظم

ثورات الموالي خطرا ، وقد قامت في العراق في ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي والى عبد الملك بن مروان ، وبعد سنوات قليلة من مصرع المختار ، وتعتبر تكملة لحركة المختار ، وقامت على أنقاضها . وتحدث فلهوزن^(١) عن حركة ابن الأشعث وحركة المختار ، باعتبارهما من حركات الموالي ، ووازن بينهما فقال : لم يكن سقوط المختار نهاية حركة الموالي ، وكان على الحجاج مقابلة هذه الصعاب وحل مشكلة حقوق الموالي السياسية فضلا عن مشكلة الضرائب . ومن المؤكد أن حركة ابن الأشعث لها أصلها في الكوفة مثلها في ذلك مثل حركة المختار ، كما كانت أغراض ابن الأشعث أكثر تحديدا من أهداف المختار ، فلم يستوح فكرتها من الموالي ، رغم انضمام الكثير منهم اليه ، فقد كان هناك مائة ألف عربي في دير الجماجم ، وهي المعركة التي دارت بين ابن الأشعث والحجاج ، وما اشترك الموالي الا لأنهم كانوا يصبحون أسيادهم العرب دائما ، فكان الموالي مشاة والعرب فرسانا ، وليس معنى اشتراك الموالي في حركة ابن الأشعث أن تتخذ صبغة الموالي ، حقا قد يكونون غاضبين على الحكم الأموي ، لكنهم كانوا عنصرا ثانويا في هذه الحركة . ولكن هزيمة ابن الأشعث كانت نقمة على الموالي ، فبدأت فترة جديدة من التعذيب والاضطهاد ، فتعددت ثورات الموالي طوال العصر الأموي .

The Arab Kingdom, p. 246 (١)

سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية :

وصف فلهوزن^(١) الموقف بعد مصرع المختار ، فقال : ولما تولى الحجاج على العراق كانت تنتظره مهام ثقيلة ، فكانت هذه البلاد تضطرب كالمرجل ، ولم يكن ذلك لمجرد الصراع الذي استمر سنين طويلة حول الخلافة . وقد أخذت الثورة العنيفة التي قام بها شيعة الكوفة ومن انضم اليهم من الموالي ، بقيادة المختار الثقفي ، ولكنها خلفت في النفوس نارا متوقدة . ولم تكن البصرة قد تحررت بعد من الخوارج الذين كانوا يقفون أمام أبواب هذه المدينة مهددين لها . ولم يكن مصعب بن الزبير قد استطاع أل يقضى عليهم ، وقد فتوا في عضده وهو يحارب أهل الشام ، حتى اضطر أن يترك وراءه أحسن قواده لحماية البصرة من الخوارج . فلما هزم مصعب وقتل على نهر دجلة أمام عبد الملك ، كان المهلب في ميدان القتال مع الأزارقة ، فأدرك الموقف ، وانضم الى المنتصر . ولكن الأمراء الأمويين الذين أرسلهم عبد الملك أمراء على العراق لم يكونوا يعملون الا لتولى المنصب بلا عمل .

كانت هذه هي التركة الثقيلة التي خلفها المختار للأمويين في بلاد العراق ، فقد وضع المختار بذور الضعف والاضطراب ، ونمت هذه البذور ، واستفحل الأمر ، مما عجل بسقوط الدولة الأموية ، وقيام الدولة العباسية .

(١) تاريخ الدولة العربية ص ٢٨٤ .

بنى العباسيون شرعية حقهم في الخلافة على أساس الادعاء أن ابن محمد بن الحنفية ووريثه ، وهو أبو هاشم ، قد تنازل عن حقه للعباسيين . كما أنهم استخدموا غلاة الشيعة من الموالي والسبئية في الكوفة وخراسان أداة لهم ، وقد لقب هؤلاء الشيعة بالهاشمية نسبة الى أبي هاشم المذكور ، وكان معظمهم من البقية الباقية من أنصار الحركة المختارية .

حاول الدعاة العباسيون منذ سنة ١٠٠ هـ استمالة الشيعة والموالي الى جانبهم ، فأعلنوا أنهم لا يسعون الى الخلافة ، وانما يعملون على القضاء على الدولة الأموية ، فلم يأخذوا البيعة لأحد العباسيين ، وانما كانت تؤخذ البيعة لأحد أفراد البيت النبوي وقد رمزوا اليه بالرضا من آل محمد . ورأى الدعاة العباسيون أن ينشروا دعوتهم بين موالي خراسان ، اذ أنهم لم يثقوا بموالي العراق لتخليتهم عن علي والحسن والحسين والمختار وزيد بن علي ، كما أن موالي خراسان كانوا أكثر اتحادا وتضامنا ، فضلا عن غلبة العنصر العجمي فيها على العنصر العربي (١) .

تتميز ثورة أبي مسلم الخراساني ، الذي قضى على الدولة الأموية ، عن غيرها من حركات الموالي ، في أن زعيمها أحد الموالي ، بينما كان المختار أو ابن الأشعث من العرب . عرف العباسيون كيف يغرون الموالي على الانضمام اليهم ، فاتخذوا حق بنى هاشم الشرعي في الخلافة أساسا سياسيا ، ونادوا بتحسين

أوضاع الموالي ومساواتهم بالعرب ، وهى نفس السياسة التى دعا المختار إليها .

كانت معركة الزاب التى قامت بين الأمويين وموالى خراسان والعراق فى جمادى الآخرة سنة ١٣١ هـ هى الفاصلة ، واستعاد الموالى حريتهم وحقوقهم ، التى حرموا منها بعد مصرع المختار ، بعد أن فاز العباسيون بالخلافة ، وصار الفرس يلون المناصب فى الدولة العباسية الوليدة (١) .

تحدث فلموزن عن الصلة بين حركة المختار وأنصاره الشيعة وبين الدعوة العباسية ، فقال : كانت هناك صلة بين العباسيين وبين الشيعة أصحاب المختار ، ذلك أنه من بين أصحاب ابن الحنفية ظهر أصحاب ابنه وهم الهاشمية . ولم يقتص على المختارية فى الكوفة بقتل المختار ، بل هم بقوا بين الطبقات الدنيا للشعب . والآراء التى كان يكتمها الهاشمية ، كما يذكرها الشهرستاني ، لا تختلف عن آراء الشيعة فى شىء ، وتأمر العباسيين يشبه تأمر الشيعة شبهها تماما ، وكان مقر العباسيين فى الكوفة أيضا ، ومن هناك كانوا ينشرون دعوتهم فى خراسان ، وفى كلتا الدعوتين : دعوة الهاشمية ودعوة العباسيين ، استندت الى الموالى من الأعاجم وصارت موجهة ضد الدولة الأموية . واذن فالشبه بين الدعوتين يشمل كل النقط الهامة ، فيشمل الآراء وطريقة الدعوة ومقرها والحزب الذى كوته .

ويستطيع الانسان أن يزيد على ذلك نقطتين من حيث

(١) الفخرى ص ١١٤ .

التفاصيل : كانت العمد الخشبية هي السلاح الوطني عند أهل الطبقة الدنيا من سكان بلاد العجم ، وقد سميت هذه العمد باسم كهر كوبات عند خشبية المختار ، فكانت هذه التسمية عندهم سابقة لتسميتها عند خشبية أبي مسلم . وكان أقدم أتباع المختار هم الموالي الذين كانوا في ضيعته في قرية الخطرية من سواد الكوفة . وكان أبو مسلم — كما يذكر الطبري — من أهل الخطرية .

ويرى فلهوزن^(١) أن هذا كله يدل على وجود علاقة وثيقة بين ثورة المختار التي أخفقت وثورة أبي مسلم التي نجحت . وبالرغم من أن نار الثورة التي قامت في ٦٧ هـ قد أطفأتها الدماء فيما يظهر فإنها ظلت تومض تحت الرماد ، وانتقلت من الكوفة إلى خراسان وهي أكثر ملاءمة ، لأن الموالي كانوا فيها أكثر تماسكا ، وكان العرب بالنسبة لهم أقل مما كانوا في الكوفة بكثير . ولقد كان المختار رجلا من أكبر شخصيات التاريخ الاسلامي ، وقد توقع ما يحدث في المستقبل . وإذا صحت نظرية الرجعة فان روح العربي الذي ثار في قرية الخطرية قد رجعت في أبي مسلم ، أحد موالي هذه القرية .

الظهور السياسي لحزب الشيعة :

يرى المؤرخ (لامانس)^(٢) أن مقتل المختار أدى الى تطور كبير في تاريخ حزب الشيعة السياسي ، فقد اتجه الشيعة منذ

(٢) L' Islam p. 159

(١) تاريخ الدولة العربية ٤٧٨ .

مصرعه الى الدعوة السرية ، وكانت تحارب جهرا كلما أمكنها ذلك ، الا أن الظروف لم تساعد على ذلك ، فتحولت الى المقاومة السرية ، وكان هذا أمرا محتوما لما نعلمه عن اضطهاد الأمويين للشيعة ، وما لقيه أنصار المختار من مصعب بن الزبير . فلا عجب أن وضعت الشيعة مبدأ التقية الذي يبيح الاختفاء وكتمان ما تكنه الصدور من العقائد ان كان عليهم من حرج أو بأس أو ضرر . كما أصبحت أقدر الفرق الاسلامية على العمل في الخفاء : فوضعت أنظمة سرية لنشر المبادئ الشيعة بين الجماهير من الطبعي أن هذه الأنظمة كانت موضع مراقبة السلطات الأموية ومطاردتها ، وكان اضطهاد العلويين هو شغل الحكام المشاغل ، ولم يفت هؤلاء أن يروا في الدعاية السرية التي تبثها الشيعة خطرا يهدد سلامة الدولة وأمنها .

وقد اتفق الخوارج والشيعة على أن خلفاء بني أمية مغتصبون ولذا اشتركوا في مناهضتهم ، لكن الخوارج غلبت عليهم البدوية في الصراحة . فصاروا لا يعترفون بما نادى به الشيعة من تقية وكتمان ، ومن ثم ناضلوا الأمويين جهارا ، ولكن رغم ذلك كانت الشيعة أكثر خطرا على الدولة الأموية لأن حركة المقاومة التي تقودها سرية ، كما أنهم يدعون الى هدم الخلافة الأموية ليقسموا بدلا منها خلافة علوية في العراق .

وتحدث (فلهوزن) ^(١) عن تطور حزب الشيعة في عصر

(١) الخوارج والشيعة ص ٢٣٨.

المختار وبعد مصرعه ، فقال : كان التشيع في الكوفة ، آنذاك قد لبس ثوبا جديدا ، وقد عرفنا من قبل المعنى الذي كان يدل عليه في الأصل ، لقد كان تعبيرا عن الاتجاه السياسي العام لمعارضة العراق لسلطان الشام ، وفي بادئ الأمر كان الأشراف صفا واحدا مع سائر الناس ويتولون قيادتهم . ولكن حينما أحدق الخطر تراجعوا واستلأنوا لاغراء الحكومة الأموية بالشام ، ثم استخدموا للقضاء على الثورات الشيعية . وبهذا انفصلوا عن الشيعة . فتحدد نطاق التشيع واتخذ شيئا فشيئا صورة فرقة دينية في تعارض مع الأرستقراطية ونظام العشائر ، وأصبح بفضل استشهاد زعمائه وأوليائه ذا طابع مثالي خيالي . وكان أنصار سليمان بن صرد يرمون إلى الثورة مع أرستقراطية العشائر في الكوفة ، ولكن المختار كان أول من نفذ هذا الغرض وحققه عمليا .

ظهور مزقة الكيسانية :

كانت حركة المختار سببا في ظهور الكيسانية . واختلف المؤرخون فيمن يكون كيسان الذي نسبت إليه هذه الفرقة . ويرى نشوان الحميري ^(١) أن كيسان هو المختار وقد سماه على بهذا الاسم ولكنه لا يذكر سبب هذه التسمية . أما الشهرستاني ^(٢) فيرى أن كيسان هذا قد يكون مولى لعلي بن أبي طالب أو تلميذا لابن الحنفية فاستطاع أن يحيط بالعلوم ويقتبس الأسرار عن

(١) الحور العين ص ١٨٢ .

(٢) الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٥ .

هذين السيدين من علم التأويل والباطن وعلم الآفاق والأنفس .
ويرى البغدادي ^(١) أن المختار هو كيسان ، كما يوجد في نفس
الوقت مولى لعلی بهذا الاسم أيضا . ويرى كاتب شيعي ^(٢) أن
المختار هو كيسان وأنه سمي بهذا الاسم لأن أباه حمله وهو
صغير فوضعه بين يدي علی فمسح بيده علی رأسه وقال : كیس
كيس . فلزمه هذا الاسم .

تذهب الكيسانية الى أن الامام هو محمد بن الحنفية بعد
أخيه الحسين . وانقسمت هذه الجماعة الى فرقتين : فالأولى ترى
أن ابن الحنفية هو الامام بعد الحسين ولا امام بعده ، وأنه هو
المهدي المنتظر وأنه غاب في جبل رضوى ، وهو الذي جاء ذكره
عن النبي وعن أمير المؤمنين يظهر في آخر الزمان فيملأ الأرض
قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا .

والفرقة الثانية ترى أن محمد بن الحنفية امام بعد الحسين
وبموته انتقلت الامامة الى ابنه — أبي هاشم — ثم كانوا
يسندون الامامة للواحد بعد الآخر ، ويختلفون ويتشعبون في
آرائهم وأقوالهم ، وفيمن تسند اليه الامامة .

ظهور فرقة الهاشمية :

تفرعت عن الكيسانية فرقة الهاشمية ، وقد أجمعت على امامة
محمد بن الحنفية ، وقد أوصى الى ابنه عبد الله بن محمد المعروف

(١) الفرق بين الفرق .

(٢) علي بن الحسين الهاشمي : محمد بن الحنفية ص ٧٥ .

بأبي هاشم بالامامة من بعده . وقد نظم أبو هاشم الدعوة وجاهد في ضم صفوف الشيعة سواء أكانوا غلاة أم معتدلين ما دام يجمعهم كراهية الأمويين واضطهاد ولائهم لهم ، وحاول التوفيق بين الاسلام والعقائد غير الاسلامية تلك العقائد التي كانوا لا يكشفون خباياها الا لمن يكرسونه لهذه الدعوة .

وتحدث (رولندسن)^(١) عن تنازل الكيسانية للهاشمية فقال : عندما كان الاستياء من ضغط الأمويين العسكري على أشده تهيأت فرصة نادرة أدت الى الاتحاد بين أهم فرعين من البيت الهاشمي . فان امام الكيسانية وهو حينئذ أبو هاشم بن محمد بن الحنفية كان قد استدعاه الخليفة هشام لزيارة دمشق ، وكان الخليفة عارفا بما يبيته الكيسانية من الدعوة في خراسان . فكان يخاف أبا هاشم ، اذ هو الزعيم القوى للثورة فسماه (الخبيب) . ولما شعر أبو هاشم بقرب موته تنازل عن حقه في الخلافة الى محمد بحضور الكيسانية . فلما مات أبو هاشم قام محمد بالدعوة بعد أن حصل على تأييد الكيسانية بعزم أشد . غير أنه مات قبل أن ينال غرضه ، فعهد بالامامة الى ولده ابراهيم . وأخذ ابراهيم يرسل الدعاة الى الأطراف بادئا بخراسان ، فقد كان يعتمد على أهلها أكثر من غيرهم ، لأن أكثر الكيسانية كانوا في خراسان والعراق ، وقد ثار سكان هاتين الولايتين مساندة للعلويين عدة مرات .

(١) عقيدة الشيعة ص ١٣٣ .

وجد غلاة الشيعة الكيسانية قبولاً في الفرع الحنفي (أبناء محمد بن الحنفية) فتكونت حركة سريعة واسعة باسم العلويين ، وبدأت بتنظيم أبي هاشم بن محمد بن الحنفية ، ثم استغلها محمد ابن علي العباسي ، وبوفاة هاشم وبحسب وصيته انتقل ولاء الهاشمية أتباعه الذين تفرعوا من الكيسانية الى محمد بن علي العباسي ، وتكون الحزب العباسي السري بين الموالي ، وانتشر من العراق شرقاً . فنجح في خراسان حيث كان يكثر الغلاة وأتباع بقايا الحركات الاجتماعية الفارسية ، وقد شجع الدعاة العباسيون هذه الاتجاهات (١) .

بنى العباسيون شرعية حقهم في الخلافة على أساس الادعاء أن ابن محمد بن الحنفية ووريثه ، وهو أبو هاشم ، قد تنازل عن حقه للعباسيين ، كما أنهم استخدموا غلاة الشيعة ، في الكوفة وخراسان أداة لهم ، وقد لقب هؤلاء الشيعة بالهاشمية نسبة الى أبي هاشم (٢) .

أثر الختان في الحياة الاجتماعية :

كان المجتمع العربي وقت ظهور المختار ينقسم الى أربع طبقات اجتماعية : العرب وهم الطبقة الحاكمة ، والموالي وهم المسلمون الجدد من غير العرب ، وأهل الذمة وهم أصحاب الكتب السماوية ، ثم الرقيق . لم يندمج العرب الفاتحون بأهالي العراق

(١) الدوري ص ٧٩ .

(٢) فلهوزن : الخوارج والشيعة ص ٢٤٨ .

الأصليين في بادئ الأمر ، وسبب ذلك سياسة عمر بن الخطاب ، فقد أمر بترك الأراضي لأصحابها العراقيين ورفض تقسيمها بين جنده العرب ، كما أمر عمر قائده سعد بن أبي وقاص بأن لا تسكن الجيوش الاسلامية المدن وألا يخالطوا أهل العراق ، وأن تسكن الجند العرب المعسكرات التي أقيمت في البصرة والكوفة ، فقد كانت حياة المدن حافلة بالترف والرفاهية التي تصطبغ بصبغة غريبة عن الحياة العربية الاسلامية . ويعمل ابن خلدون ^(١) فهي عمر العرب عن مخالطة الأعاجم برغبته في حفظ اللغة العربية .

لم يكتب لسياسة عمر البقاء ، فقد سارع المسلمون الى الاقامة بالبصرة والكوفة واختلطوا بأهل البلاد . ولما تولى عثمان سمح للعرب بالخروج الى العراق وامتلاك الأراضي ^(٢) . وأدت اقامة العرب في مدن العراق الى امتزاجهم بأهل البلاد ، فقد تعاونوا جميعا في الحياة الاجتماعية والاقتصادية . وأصبح الطريق ممهدا لامتزاج حضارة العرب بحضارة أهالي العراق ، فقد كان العرب أميين فاضطروا الى الاعتماد على غيرهم في الادارة والكتابة والشئون المالية ، لكنهم أدخلوا تعديلات على نظم البلاد التي فتحوها بما يلائم الدين الاسلامي .

كان من أبرز العوامل التي أثرت في حياة الموالي الاجتماعية تعصب العرب ضدهم ، فقد احتقر الأمويون بتأثير العصبية جميع الأقوام غير العربية ، وعدوهم في منزلة اجتماعية أدنى من العرب ،

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٦٦ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٦٤ .

وأبعدوهم لذلك عن السياسة والقيادة ، ففرضوا عليهم من الضرائب أكثر مما فرضوه على العرب . فالعصية تبدأ للبيت الأموى ثم للقبيلة ثم تتوسع أخيرا فتكون للأمة العربية . أما الرقيق ، فكانت الطبقة الاجتماعية الرابعة . وكان معظمهم من أسرى الحروب التى دارت بين العرب والفرس ، وخير القرآن المسلمين بين قتل الأسرى أو فدائهم أو المن عليهم باطلاق سراحهم بغير فداء ، أو الاسترقاق^(١) . ولم يسترق العرب الفاتحون الاحميات المدن التى قاومتهم مقاومة عنيفة ، وكان المسترقون من الأسرى يعتبرون غنيمة فتأخذ الدولة الخمس وتوزع أربعة الأخماس الباقية بالتساوى على الجند^(٢) . وتزايد الرقيق فى العراق لما قام به الأمويون من فتوح فى الأطراف الشرقية من الدولة الاسلامية . ولم يكن العبيد جميعا من الأسرى ، بل كان منهم من صار شراؤه من أسواق النخاسة التى كانت منتشرة فى ذلك الحين فى بلاد العراق . وكان العرب يشترونهم لاستخدامهم فى زراعة الأرض أو مساعدتهم فى حرفهم أو خدمتهم فى قصورهم وبيوتهم أو فى حروبهم .

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٥ .

(٢) عرف الفقهاء المسلمون الرق بأنه عجز حكى شرع فى الأصل جزاء عن الكفر . وعرف الافرنج الرق بأنه حرمان الفرد من حريته الطبيعية بحيث يصبح ملكا للغير . احتفظ الاسلام بنظام الرقيق القديم الذى أقرته التوراة وعرفه الرومان والفرس مع وضع قيود شديدة تجعل الرقيق فى حالة طيبة جدا .

وفي أيام المختار تغيرت الأوضاع الاجتماعية المعتادة . فبعد أن كانت طبقة العرب هي الطبقة الاجتماعية الأولى ويلها طبقة الموالي ، انقلبت الأوضاع فبرزت طبقة الموالي وأصبحت في المقدمة تليها طبقة العرب . فقد أدرك المختار أن الموالي خير من يعتمد عليهم في حركته السياسية ، فقد كانوا يمثلون غالبية سكان الكوفة ، ويحتكرون معظم الأعمال الهامة ، ففى أيديهم المهن والحرف والصناعات والتجارة ، فقد كان العرب يكتفون بمناصب الحكم والادارة الحرب ويأتقون من احتراف المهن المختلفة ، مما أدى الى سيطرة الموالي على النشاط الاقتصادي في العراق ، وأصبح الموالي على جانب كبير من الثراء وامتلكوا الضياع الواسعة ، وأصبحوا على نصيب كبير من الحضارة . كما أن الموالي أقبلوا على اعتناق مذهب الشيعة الذي كان أساس حركة المختار . ولذا قرب المختار الموالي اليه ، وولاهم المناصب الكبرى في الدولة ، واتخذ منهم عدة جيشه ، وزاد في عطايمهم ومرتباتهم . فشاركوا العرب في مناصب الادارة والحرب التي حرموا منها بالأمس ، وأصبحوا في الحقيقة يقبضون على مقاليد الأمور في العراق . وكان المختار قد قطع صلاته تماما بالدولة الأموية وبالخلافة الزيرية في الحجاز ، فتمتع الموالي بعصر جديد من الاستقلال ذكرهم بالعصر الفارسي ، حيث كان للدولة الفارسية كيائها وعظمتها . فبث المختار في نفوس الموالي روح القومية والعزة .

وأصبح العرب في عصر المختار طبقة اجتماعية في المرتبة

الثانية . فقد أبوا تأييد المختار منذ اللحظة الأولى ، ووقفوا منه موقف المعارضة ، وكان الدافع الى اتخاذهم هذا الموقف رغبة المختار في تحسين أحوال الموالي الاجتماعية والاقتصادية . وكانت الأحوال ومجريات الأحداث تقتضى هذه السياسة ، فقد ثعلت أصوات الموالي بالشكوى ، وباتوا يتلمسون الفرص للثورة على الدولة الأموية ، وبات الانفجار مترقبا ، وكانت سياسة المختار هى التى أجلت هذا الانفجار ، ولو احتفظت الدولة الأموية بسياسة المختار لتجنب ما لاقته من مصير مؤلم فى سنة ١٣٢ هـ .

لم يكن كل هؤلاء الموالي الذين اضطهدهم العرب من طبقات الفلاحين ، بل من الذين يعترف العرب أنفسهم بثقافتهم (١) . وكان فريق كبير منهم من أصل رفيع معروف . وبجانب هؤلاء كان هناك آلاف من الموالي يمثلون الأيدى العاملة فى الدولة . وقد حمل الموالي لواء العلم فى العراق ، لاعتقادهم أن فى العلم مجالا لاستعادة مجدهم القديم الضائع ، وظهر علماء كثيرون من بين موالى الكوفة والبصرة . وقد عُرِف عن موالى العراق أنهم أكثر تدينا من عرب البادية ، فتعصبوا للإسلام وحافظوا على شعائره ، بل بلغت غيرتهم عليه حد الغضب على الخلفاء الأمويين الذين انصرفوا الى اللهو والملذات . فلا عجب أن أدرك المختار هذه الحقائق فقدرها ، ولذا وضع الموالي فى المستوى الاجتماعى اللائق بهم .

(١) رونلدىسن : عقيدة الشيعة ص ١٣٣ .

أما الرقيق كطبقة اجتماعية ، فقد كانوا يأتون في المرتبة الرابعة ، وكانوا محرومين من بعض ما يتمتع به أسيادهم (١) . وقد تمسك القرآن بنظام الرق إلا أنه مع هذا نصح بحسن معاملة الرقيق وبالعمل على تحريرهم (٢) . فقد حيب الاسلام للمسلمين عتق رقيقهم وجعله كفارة عن كثير من الذنوب والآثام (٣) . فضلا عما فيه من تقرب لله تعالى . ولكن العتق لم يكن يقطع الصلة بين السيد ورقيقه ، بل تبقى بين الطرفين صلة تسمى « الولاء » ، فالمعتق مولى للعاتق ، ويترتب على الولاء أن السيد يدفع الدية عن مولاه اذا ارتكب جناية ، وثانيهما أن يرث السيد معتقه .

كان الرقيق يختلفون اختلافا كبيرا من حيث الأصل والمهن ، ولم يكونوا موزعين بانتظام بين الأفراد والعشائر ، كما أنه لم تكن لهم محلات للسكنى خاصة بهم ، غير أنهم كونوا طبقة خاصة خاضعة لنفس القواعد الاجتماعية والقانونية التي تقيد سلوكهم

(١) كان الرقيق يتزوج زوجتين فقط ، والطلاق عندهم طلقتين ، وعدة الأمة شهرين ، ولا تجوز شهادة الرقيق ... الخ .

(٢) قال الرسول : « لا يقولن أحدكم لمملوكه عبيدى أو أمتى ، ولكن يقول فتاى وفتاتى ، ولا يقول المملوك ربى وربتى ، ولكن يقول : سيدى وسيدتى » .

(٣) الذنوب التي جعلت كفارتها عتق الرقيق عديدة منها كفارة القتل الخطأ والكفارة عن الخنث فى اليمين . وقد أعتق المختار بعض رقيقه حين حنث فى يمينه الذى قطع له لوالى ابن الزبير بالعراق (ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٨٩) .

وتميزهم عن غيرهم . ومما زاد في تماسك هذه الطبقة وتميزها أن أفرادها كان يفضل تزوجهم من أفراد طبقتهم ، الأمر الذي أدى الى تقليل الفوارق الجنسية والثقافية بينهم . وقد تعلم معظم أفراد هذه الطبقة اللغة العربية واعتنقوا الاسلام ، وبذلك ضاقت الهوة التي كانت تفصلهم عن أسيادهم العرب .

وقد أدرك المختار أن الهوة بين الرقيق والعرب قد ضاقت ، فعمل على انقاذهم وتحريرهم . وأصبح المختار في العراق ، كما سيكون (أبراهام لنكولن) في الولايات المتحدة الأمريكية محررا للعبيد . ولم يكن المختار مبتكرا أو مبتدعا ، بل كان يطبق القواعد الاسلامية العادلة ^(١) . فقد كانت روح الاسلام تنص على حسن معاملة الرقيق ، فمن أحاديث الرسول : « للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق » ، ومنها « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم ، أطعموهم مما تأكلون ، وأكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من العمل مما لا يطيقون ، فما أحببتهم فأمسكوا ، وما كرهتهم فبيعوا ولا تعذبوا خلق الله فانه ملككم أياهم ، ولو شاء لملكهم أياكم » . وأباح الاسلام زواج الرقيق ، وأباح للسيد أن يزوج رقيقه لمن يشاء من الأحرار

(١) قال تعالى : (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) ، (سورة النساء آية ٢٥) . وقال تعالى أيضا (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وأمائكم أن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) ، (سورة النور آية ٣٢) . وقال الرسول : « من أعتق أمة ثم تزوجها كان له أجران » .

والأرقاء ، ولم يبح له التفريق بعد اتمام الزواج لو تزوج العبد
بغير اذن سيده (١) ، وأعفى الاسلام الرقيق من الرجم وجعل عقاب
جلد الرقيق نصف عقاب الحر .

طبق المختار تعاليم الاسلام فيما يختص بحقوق الرقيق
وواجباتهم . وأمر (المختص) أن يلاحظ تطبيق القواعد الاسلامية
على معاملة الرقيق (٢) . كما شجع المسلمين على تحرير عبيدهم ،
وجعل نفسه قدوة لهم فأعتق كثيرا من مواليه الذين كان يحتفظ
بهم في ضيعته قرب الكوفة . وكان يعاقب أعداءه بأن يجعل
رقيقهم أحرارا . والحق المختار الرقيق بعد تحريرهم بجيشه ،
وجعل المختار الرقيق شركاء لأسيادهم في فيء العراق ، أى في
موارده ، فساوى بينهم في العطاء والأرزاق . وأدت هذه السياسة
الى غضب العرب ، وعبر أحدهم وهو شبت بن ربيع عن غضبهم
فقال للمختار : « عمدت الى موالينا ، وهى فيء أفاءه الله علينا
وهذه البلاد جميعا رقابهم نأمل الأجر في ذلك والثواب والشكر ،
فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا » . وأعلن
العرب الثورة على المختار ، وحاربوه ، واضطروهم الى الجلاء عن
الكوفة ، فخرجوا الى عدوه مصعب بن الزبير في البصرة وتقدموا
له بالشكوى من المختار فقالوا : « وأطعم موالينا فيئنا وأخذ
عبيدنا فحارب بهم . » (٣) .

(١) الشيباني : الجامع الصغير فى الفقه ص ٣٧ .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٤٣ .

(٣) الطبرى ج ٧ ص ١١٦ .

أحسن المختار معاملة الرقيق والموالي في الكوفة . بينما أساء مصعب بن الزبير معاملتهم في البصرة . وحدث في عهد مصعب أن تزوج عبد الله بن أبي كثير مولى بنى مخزوم بالعراق امرأة عزية . ففرق مصعب بينهما (١) . وكان مصعب يستخدم الموالى والرقيق في جيشه كمشاة ولا يسمح لهم بركوب الخيل ، وكان المختار أول من سمح لهم بركوب الخيل . أما الحجاج فقد هدم نظم المختار ، فكان يستخدم آلاف من الرقيق في الزراعة ، وكان يقول عن الرقيق : « احمل عبدك على الفرس ، فإن هلك هلك ، وإن نجا فلك » (٢) . ولذا انضم آلاف من الرقيق الى ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج ، واستخدم ابن الأشعث عبارة الحجاج في إثارة خواطر الرقيق . وكان الرقيق قد تمتعوا في عهد المختار بالحرية والطمانية فأبوا التخلي عما وصلوا اليه .

منح المختار الموالى كثيرا من الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ثم كان مصرع المختار وعودة الحكم الأموى الى بلاد العراق . وبدأ الأمويون يسلبون الموالى ما حازوه من حقوق . وبدأ صراع عنيف بين العرب الأمويين وبين موالى العراق ومعظمهم من الفرس . وأدى التنافر بين العرب والفرس في العصر الأموى الى ظهور الشعوية التى بدأت تنادى بمساواة العرب بالموالى ، ثم تطورت في العصر العباسى ، فصارت تنادى بأن الفرس أرفع درجة من العرب . فزعم الشعويون أن أخطب الناس

(١) الأصفهاني : ج ٢٤ ص ١١٤ .

(٢) الطبرى ج ٧ ص ١٤٧ .

الفرس ، وأن الفرس أكثر معرفة من العرب بأمور الحرب (١) .
وكان معظم العرب لا يحسنون الكتابة والحساب ، فاعتمدوا على
الموالى فى وظائف الدولة . ومن ثم شعر الموالى بأهميتهم وعلو
شأنهم ، وأدركوا حاجة الدولة الأموية اليهم فى الحرب ، كما
شعروا بفضلهم على الأدب والعلم والدين ، وعلى تقدم الزراعة
والصناعة والتجارة (٢) .

كان للمعاملة الطيبة التى عامل المختار بها الموالى صداها فى
كل أرجاء العراق ، فقد تناهى الى أسماعهم ظهور حاكم فى العراق
أتصف بالعدل والصلاح ، يساوى بين العرب والموالى فى الحقوق
والواجبات ، ويقرب الموالى اليه ، فيلحقهم بالجيش ، ويوليهم
الوظائف والمناصب . وهجر الموالى مدنها وقراها ورحلوا الى
الكوفة حيث عاشوا فى كنف هذا الحاكم العادل . وهرب الرقيق
من أسيادهم العرب ، وخاصة فى البصرة ، وهرعوا الى الكوفة
حيث المختار محرر العبيد . وأعد المختار من الموالى والرقيق
جيشا كبيرا استطاع الانتصار به على أعدائه (٣) .

توالى الأيام ، ولاقى المختار مصرعه ، ولكنه خلف وراءه
مشاكل اجتماعية كان على خلفائه حلها . وورث الحجاج بن يوسف
تركة سلفه وقريبه — المختار — فقد رأى الحجاج أن الكوفة

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ٦ .

(٢) Sykes : Histof Persia, V.I, p. 537 .

(٣) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٠٠ .

أصبحت تعجّ بالموالى والرقيق ، وإن كان المختار بالأمس يوفر لهم العمل ، فى الجيش ودواوين الحكومة ، فقد أصبحوا بعد مصرعه بدون عمل ، فقد كان من سياسة الأمويين الاستعانة بالعنصر العربى دون الموالى . وتآلم الموالى لمصرع المختار على يد الأمويين ، وباتوا يتطلعون للأخذ بثأره منهم ، ومن مثلهم الحجاج بن يوسف . كما آلمهم ضياع ما منحهم المختار من حقوق وامتيازات .

رأى الحجاج أن هؤلاء الموالى من أنصار المختار عنصر شغب وفتنة يجب إبعاده عن الكوفة ليتوفر له فيها الهدوء والطمأنينة ، ولذا رأى أن يعيد هؤلاء الموالى الذين نزحوا من مدن العراق وقرأه الى مواطنهم الأصلية . فجمع الحجاج هؤلاء الموالى بالقوة ، ونقش على يد كل مولى منهم اسم بلدته التى سيرغمه على العودة اليها ^(١) . ولكن بقى فى الكوفة عدد كبير من الموالى ، من أهالى الكوفة وضواحيها ، فأراد الخلاص منهم ، فجندهم فى الجيش بالقوة ^(٢) ، ودفعهم الى مجاهل فارس وتركستان لفتحها ونشر الاسلام فيها ، وكان غرضه من ذلك — كما يرى المؤرخ سيدىو ^(٣) — أن يشغلهم عن مفاسد السياسة الداخلية . وقد أخفق الحجاج فى الاستعانة بموالى العراق فى القتال ، فاضطر الى

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٥٦ .

(٣) تاريخ العرب العام ص ٧٧ .

الاستعانة بجند الشام وبنى لهم مدينة واسط وأسكنهم فيها حتى لا يختلطوا بأهل العراق (١).

شعر الحجاج أنه لا يستطيع الحياة في الكوفة التي شهدت أمجاد المختار ، وقد تشبع موالى الكوفة بحب المختار وآرائه . فبنى عاصمة جديدة وهى مدينة واسط . وادعى الحجاج أنه يقصد من بناء هذه العاصمة ألا يرتكب جند الشام ما يزعم أهل الكوفة ، ولكن السبب الحقيقى هو عزلهم عن أهل العراق وخاصة الموالى منهم ، وتركيزهم حوله حتى يصبحوا طوع ارادته لاعتقاده أنه فى أرض معادية (٢) . وكان الحجاج يدقق فى اختيار عناصر سكان مدينة واسط فلم يدخلها أحد الا بأذنه (٣) . على أن هذه السياسة التى اتبعها الحجاج كانت سببا فى ازدياد شعور العداء فى نفوس أهل العراق والموالى نحو الأمويين وبلاد الشام . وتساءل الحجاج عن سبب كراهية الموالى له ، فأخبره أحدهم أنهم لا يكرهونه لأنه ثقفى أو أموى انما لسياسته فيهم ، فقال له : أما أنهم لو أحبوك لأطاعوك ، على أنهم ما شئتوك لنسبك ولا لبلدك ولا لذات نفسك ، فدع ما يبعدهم منك الى ما يقربهم اليك . فقال الحجاج : انى والله ما أرى أن أرد بنى اللكيعه الى طاعتي الا بالسيف (٤) . فقد أبى الحجاج الا المضى فى اضطهاد الموالى أنصار المختار .

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٦٨ .

(٢) Wellhausen : The Arab Kingdom, 249

(٣) الأصفهاني : الأغاني ج ٨ ص ٣٧٠ .

(٤) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٠٢ .

أحسن المختار معاملة الفرس وأنعش اللغة الفارسية . وكان معظم موالى العراق ، وخاصة موالى الكوفة ، من أصل فارسي ويتحدثون باللغة الفارسية . أما موالى السواد فكانوا يتحدثون بالسرانية (١) . وقد احتفظ الموالى بهذه الصفات فترة طويلة ، ففي معسكر المختار لم تكن تسمع كلمة عربية واحدة . وتأثرت اللغة العربية باللغة الفارسية إذ اقتبست منها كثيرا من كلماتها ، وكانت عامة أهل العراق تستخف هذه اللغة . وقد استطاع الموالى الفرس أن يحتفظوا ببعض صفاتهم وخصائصهم ، ولكنهم رغم ذلك حرصوا على التسمي بأسماء عربية وخاصة الاسلامية منها ، وإن احتفظوا بخصائص الفرس (٢) . ودخل الموالى ضمن التنظيم القبلى ، وتأثروا بالعصية العربية ، فكان موالى كل قبيلة ينتسبون اليها ويحاربون في صفوفها (٣) .

كانت الغالبية العظمى من جند المختار من الموالى الفرس ، وكان معظم موظفى الدواوين الحكومية منهم أيضا ، وكانت جميع سجلات الحكومة ومراسلاتها باللغة الفارسية . وتولى فارسى أمور بيت مال المختار وديوان خواجه . ولما قتل المختار ، وتولى الحجاج ، رأى أن يتخلص من العناصر الفارسية ويستبدلها بالعناصر العربية ، واقتضى هذا تغييرا جوهريا في نظم الدواوين الحكومية ، فبدأت سياسة تعريب الدواوين وصبغها بالصبغة

(١) ابن النديم . فهرست ج ١ ص ١٩ .

(٢) ديمومبين : النظم الاسلامية ص ٤٩ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٦ .

العربية . وقد استاء الموالي الفرس من هذا التعريب ، وحاولوا أن يرشوا كاتب الحجاج صالح بن عبد الرحمن الذي كلفه الحجاج بتعريب الدواوين ، لينظر عجزه عن التعريب ولكنه أبى عليهم ذلك (١) .

أثر المختار في الحياة الاقتصادية :

قلبت حركة المختار كثيرا من أوضاع الحياة الاقتصادية في بلاد العراق ، كما خلفت وراءها مشاكل اقتصادية حاول الخلفاء الأمويون حلها دون جدوى ، وكان اخفاقهم من عوامل سقوط الدولة الأموية . فقد عمل المختار على تحسين أوضاع الموالي الاقتصادية فغيّر نظم الخراج والجزية والعطاء ، وشعرت بلاد العراق في عصره بانتعاش ورخاء اقتصادي نتيجة ارتفاع مستوى المعيشة وزيادة موارد الموالي الذين يمثلون غالبية سكان بلاد العراق . ولم يكن في إمكان الدولة الأموية بعد أن قضت على المختار واستعادت العراق أن تحتفظ بنظم المختار الاقتصادية فقد كانت تؤدي الى نقص إيرادات بيت مال العراق في وقت كانت الدولة الأموية في حاجة الى أموال كثيرة ، وكانت هذه الدولة تعتبر بلاد العراق أبرز الولايات العربية الإسلامية التي تعتمد عليها في موارد الخزنة العامة في العاصمة دمشق (٢) . ولذا رأت

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٩٣ .

(٢) خرج عبد الملك بن مروان لقتال مصعب بن الزبير بنفسه ولاستعادة العراق ، وقال : « الشام بلد قليل المال ولا آمن نفاذه » . (أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٣٥) .

الدولة الأموية أن تقضى على نظم المختار مما أدى إلى استمرار ثورات العراقيين وخاصة الموالي .

وقد استطاع المختار أن يزيل أسباب شكوى الموالي ، فعاد إلى نظام عمر بن الخطاب فأعفى الموالي ، وهم المسلمون الجدد من غير العرب ، من الجزية والخراج ، كما أعفاهم من تقديم الهدايا في الأعياد ، واتبع سيرة علي بن أبي طالب في العطاء ، فقد كان على " يساوي بين العرب والموالي في العطاء ، كما منع على " الموالي من تقديم الهدايا ، وكان يأمر ولاته بحسن معاملة الموالي (١) . وأشرك المختار الموالي مع العرب في العطاء ، وجعل المختار ماله وعطاءه لرجل من الموالي (٢) .

رفع المختار عطاء الموالي ، أى المرتبات التى يمنحها بيت المال لهم شهريا ، فقد كان عطاء المولى في خلافة معاوية بن أبى سفيان خمسة عشر درهما ، فرفعه المختار إلى عشرين درهما ، واضطر الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان بعد مصرع المختار أن يبقى عطاء الموالي على ما كان عليه . وطالب الموالي بالمزيد واضطر الخلفاء الأمويون إلى زيادة العطاء دائما وباستمرار ، فزاد سليمان ابن عبد الملك عطاء الموالي إلى خمسة وعشرين درهما ، ثم أصبح ثلاثين درهما في عهد هشام بن عبد الملك (٣) . وكان عطاء كل جندي من جنود المختار خمسمائة درهم (٤) .

(١) اليعقوبى ج ٢ ص ١٦٣ .

(٢) الطبرى ج ٧ ص ١٠٩ .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٤٠٠ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٩٥ .

أدت السياسة المالية التي اتبعتها المختار الى نقص الإيرادات
اذ أغفى الموالى من الجزية والخراج ، كما أدت الى زيادة
المصروفات اذ زاد عطاء الموالى وأرزاقهم ، مما أدى الى نقص
الفائض . فلما تولى الحجاج بن يوسف الثقفى حكم العراق فى
خلافة عبد الملك بن مروان بعد مصرع المختار ومصعب بن الزبير ،
وجد بيت مال العراق خاوياً ، فاضطر الى نبذ سياسة المختار المالية
والعودة الى سياسة الأمويين المعتادة ، ولكن كان من الصعب
اقناع أهل العراق بهذا التغير .

حاد الحجاج عن سياسة المختار فيما يختص بالخراج والجزية
بالنسبة لمن دخلوا حديثاً فى الاسلام من غير العرب . ذلك أن أهل
البلاد الأصليين كانوا يقيمون بالقرى للزرع والجرث ، فمن اعتنق
منهم الاسلام قبل عصر المختار أو فى عهده رفعت الجزية عنه ،
وكان بعد اسلامه يهجر القرية التى كان يعمل فيها كزارع ويهرع
الى المدن ليلتحق بالجيش الاسلامى ويكتب فى سجل العطاء ،
وبدئى أن هذه الأراضى التى كانت تترك لو رحل عنها أصحابها
بعد اسلامهم تصبح خاضعة للظروف فقد يستأجرها الغير وقد
تترك من غير زراعة ، واذا استأجرها الغير ففى الغالب ما يكون
الايجار الجديد أقل من القديم ، فينتج من ذلك قلة إيرادات هذه
الأقاليم نتيجة اعتناق أهلها الاسلام .

وقد هال الحجاج هذا النقص الذى أصاب موارد بيت مال
العراق نتيجة سياسة المختار المالية ، ففرض الجزية على المسلمين

الجدد ، أى الموالى ، وألزمهم بالعودة الى قراهم^(١) . وأعاد وضع
الخراج على الأرض التى أسلم أصحابها كما كان قبل اسلامهم .
وقال للموالى حينما أمر باعادتهم الى قراهم : « أتمم علوج وعجم
وقراكم أولى بكم . ففرقهم وفض جمعهم كيف أحب وسيترهم
كيف شاء ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التى وجهه
اليها »^(٢) .

لما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة رأى أن يتبع سياسة
المختار المالية وأن يحيد عن سياسة الحجاج ، فأمر عمر باعفاء كل
من أسلم من الخراج^(٣) . ولكن عمر لاحظ أن هذه السياسة
تضر بيت المال ، فوضع حلا وسطا بين سياسة المختار وسياسة
الحجاج ، بأن رفع الخراج عن الأرض التى يملكها المسلمون حتى
سنة ١٠٠ هـ ، ثم قرّر أن شراء المسلمين وامتلاكهم للأرض بعد
هذا التاريخ غير جائز لأن المسلمين حينما يشترون تلك الأرض
تصبح أرضا عشرية ويسقط عنها الخراج ، وبذلك تقل الموارد
المالية .

أمر المختار باعفاء كل من أسلم من دفع الجزية . ولكن
الحجاج أبقى الجزية على من أسلم ، فقد لاحظ أن عددا كبيرا
من أهل الذمة قد اعتنق الاسلام وأسرعوا الى سكنى المدن ، ولذا
أمر بعدم اعفائهم من الجزية واعادتهم الى قراهم بالقوة . وأعاد

(١) الطبرى ج ٨ ص ٣٥ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٦ .

(٣) أبو يوسف : الخراج ص ٤٩ .

ال خليفة عمر بن عبد العزيز سيرة المختار فقد أمر برفع الجزية عن أسلم^(١) . ورغم أن سياسة عمر هذه ترفع عن الموالى بعض الظلم والعنت الا أن مشكلة الموالى لم تكن مادية فقط ، فقد كانت لها جوانب كثيرة سياسية واجتماعية ، وكان الموالى يهدفون الى أن يستعيدوا ما كان يتمتعون به في عصر المختار من حقوق سياسية واجتماعية الى جانب الحقوق الاقتصادية . ويرى (فان فلوتن)^(٢) أن اصلاحات عمر ناقصة ، فقد أيقظت آمالا لم تستطع الحكومة تنفيذها ، بل أدت الى الفوضى المالية بعد موت عمر .

كان عطاء أهل العراق خلال الحكم الأموى أقل دائما من عطاء أهل الشام لأن حاضرة الدولة في بلدهم ، حتى كان عصر المختار فرفع عطاء أهالى العراق فأصبح يفوق عطاء أهل الشام . واضطر مصعب بن الزبير بعد قتله المختار أن يحتفظ بنظام المختار في العطاء . ولكن الحجاج بعد القضاء على مصعب أعاد العطاء الى ما كان عليه قبل عصر المختار ، وأنقص العطاء مائة درهم ، مما أدى الى قيام ثورة عبد الله بن جارود في البصرة ، فقد ثار محتجا على سياسة الحجاج في العطاء^(٣) . واضطر الحجاج أن يعدل عن سياسته حين بدأ يستعد لغزو رتبيل في سجستان ، فصرف العطاء كاملا كما كان في أيام المختار . ولكن سرعان ما نقص العطاء عندما ثار ابن الأشعث وانضم اليه جميع أنصار

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٥ .

(٢) السيادة العربية ص ٥٨ .

(٣) الطبرى ج ٧ ص ٢١٤ .

المختار (١) . واضطر الخليفة عبد الملك بن مروان أن يعد أهل العراق خلال ثورة ابن الأشعث بأن يجعل عطاءهم مساويا لعطاء أهل الشام ، ولكنه لم يبرّ بوعده (٢) . بل أن عمر بن عبد العزيز الذي نعرف عنه العدل والمساواة زاد عطاء أهل الشام عشرة دنانير دون أهل العراق (٣) .

اهتم الخلفاء والولاة الأمويون بالاقتصاد في المصروفات حتى يبقى فضل من مال العراق فيحمل الى دمشق بعاصمة الدولة ، بينما حرص أهل العراق على أن تصرف جميع إيرادات العراق في بلدهم . ويذكر الماوردي (٤) أنه كان على الوالي « إذا فضل من مال الخراج فاضل عن أرزاق جيشه ، حمله الى الخليفة ليضعه في بيت المال العام المعد للمصالح العامة » . وكان عمر بن الخطاب يأمر ولاة العراق بحمل فضل مال العراق الى المدينة ليكون عطاء لأهلهم لأنهم شركاء لأهل العراق في مالهم (٥) . أما على بن أبي طالب فكان يقسم كل ما في بيت مال البصرة على أهلها (٦) . أما الخلفاء الأمويون فقد أمروا ولايتهم بارسال الفائض الى دمشق ، فكان معاوية يأمر ولايته باصطفاء الذهب والفضة له (٧) .

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٦١ .

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٥ .

(٣) اليعقوبي ج ٣ ص ٤٨ .

(٤) الأحكام السلطانية ص ٣٠ .

(٥) اليعقوبي ج ٢ ص ١٣٠ .

(٦) الطبري ج ٥ ص ٢٢٣ .

(٧) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ٥٨ .

وكان عبد الله بن الزبير خليفة الحجاز يأمر ولاته بالعراق بانقاذ فضل خراج العراق اليه ، ويأمرهم بالاجتهاد حتى يزداد المال المحوّل الى الحجاز . ثم خاف ابن الزبير على تقوذه بالعراق من المختار فأعلن أنه لن يحمل فضل القىء الى الحجاز (١) .

اتبع المختار سياسة على بن أبي طالب ، فكان ينفق جميع ايرادات العراق على أهله . فزاد عطاء أهالى العراق ، وخاصة الجنود ، فقد بلغ عطاء الجندي خمسمائة درهم . وشعر العراقيون بفترة رخاء اقتصادي لم يشهدوا مثلها من قبل . وحرص أهل العراق بعد مصرع المختار أن تنفق موارد بلادهم على مصالحهم دون ارسالها الى دمشق . واضطر الخليفة عبد الملك أن يبعث الى الحجاج ينهيه عن الاستيلاء على فضل مال سواد العراق وأن يبقيه لأهله أموالا احتياطية (٢) . وأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز ، الذي اشتهر بعدله ، ولاته بالعراق برد مظالم بنى أمية فاستجابوا لأمره حتى انه نفذ بيت مال العراق في سبيل ذلك ، واضطر عمر الى أن يبعث بالأموال من الشام الى العراق (٣) .

استعان المختار في دواوين العراق بموظفين من الموالي الفرس . ولم يكن ذلك حدثا جديدا ، فقد اتخذ زياد بن أبيه والي

(١) البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٢٩ .

(٢) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٤٣ . وصف ابن القرية الشام في مجلس الحجاج فقال : « عروس بين نسوة جلوس تجلب اليها الأموال » . (الدينوري : الأخبار الطوال ص ٣٢٦) .

(٣) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٢٩ .

معاوية معظم كتابه وجباة أمواله من الموالي (١) واستمر ابنه عبيد الله بن زياد على هذه السياسة . ولما تولى الحجاج حكم العراق بعد مصرع المختار ، وجد دواوين الحكومة وقد امتلأت بالموظفين الفرس ، وكلهم من أنصار المختار ، ورأى الخلاص منهم ، وابدأهم بموظفين من العرب ، وخاصة عرب الشام ، ليطمئن الى اخلاصهم ، فاضطر الى تعريب نظم جميع الدواوين من اللغة الفارسية الى اللغة العربية ، واستبدال الموظفين الفرس بغيرهم من العرب . وأدت هذه الخطوة الى خطوات أخرى خطيرة ، فقد بدأت سياسة تعريب واسعة المدى ، قاد لواءها الحجاج ، فصنع النظم الحكومية بالصبغة العربية ، وألغى العملة النقدية الفارسية وسك عملة جديدة عربية . وكانت بلاد العراق في عصر الحجاج تمتد العالم العربي الاسلامي بحاجته من الدراهم العربية وأبدى الفرس عدم رضائهم عن دراهم الحجاج حتى انها سميت « الدراهم المكروهة » (٢) .

وبعد ، هذه هي سيرة المختار بن أبي عبيد الثقفي ، البطل العربي ، الذي برز في ميادين السياسة والحرب والاجتماع والاقتصاد ، ولعب الدور الأول في تاريخ العصر الأموي ، وضرب للعرب مثلاً علياً ، وحرّر الموالي والعبيد ، أرجو أن أكون قد وفيت سيرته ، والله ولي التوفيق .

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٢٠٩ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٧٣ .

المصادر :

أولاً : مصادر عربية

- ابن آدم (٢٠٣ هـ) : كتاب الخراج (ليدن ١٨٩٥) .
ابن الأثير (+ ٦٣٠ هـ) : الكامل فى التاريخ (القاهرة ١٣٠٢ هـ) .
- أسد الغابة فى معرفة الصحابة (طبعة المعارف ١٢٨٦ هـ)
أحمد أمين : فجر الاسلام (القاهرة ١٩٥٥)
أحمد شفيق : الرق فى الاسلام (القاهرة)
الأصفهاني (+ ٣٥٢ هـ) : كتاب الأغاني ٢١ جزءاً (مطبعة
التقدم ١٣٢٣ هـ)
- مقاتل الطالبين (القاهرة ١٩٤٦)
الألوسى : بلوغ الأرب فى أحوال العرب (المطبعة الرحمانية ١٩٢٤)
البغدادى : (٤٢٩ هـ) الفرق بين الفرق (القاهرة ١٩٤٨)
البلاذرى : (+ ٢٧٩ هـ) فتوح البلدان (مطبعة الموسوعات
بالقاهرة ١٩٠١)
- أنساب الأشراف ، الجزآن الرابع والخامس ،
(فلسطين ١٩٣٨) .
البياسى : (٦٥٣ هـ) الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام
(مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩٩ تاريخ) .

البيرونى : (+ ٤٤٠ هـ) الآثار الباقية عن القرون الخالية
(لينزج ١٩٢٣) .

الجاحظ : (+ ٢٥٥ هـ) كتاب التاج (المطبعة الأميرية ١٩١٤) .

- البيان والتبيين (مطبعة الفتوح بالقاهرة ١٣٣٢ هـ) .

- رسائل الجاحظ ١١ رسالة (القاهرة ١٣٢٤ هـ) .

الجهشياري : (٥٤٠ هـ) كتاب الوزراء والكتاب (مطبعة

الحلبى ١٩٣٨) .

ابن الجوزى : (٥٩٧ هـ) مناقب عمر بن عبد العزيز

(لينزج ١٨٩٩)

جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى (مطبعة الهلال ١٩٢٤) .

ابن حزم : (+ ٤٥٦ هـ) الفصل فى الملل والأهواء والنحل

(المطبعة الأدبية ١٣١٧ هـ) .

حسن ابراهيم حسن : الدكتور : تاريخ الاسلام السياسى ، الجزء

الاول (القاهرة ١٩٥٧) .

ابن خلدون (+ ٨٠٨ هـ) : مقدمة ابن خلدون (المطبعة البهية

المصرية) .

ابن خلكان (+ ٦٨١ هـ) : وفيات الأعيان (طبعة النهضة

القاهرة ١٩٤٨) .

الدينورى (٢٧٢ هـ) : الأخبار الطوال (ليدن ١٨٨٨) .

ابن سعد (٢٣٠ هـ) : كتاب الطبقات الكبير (لجنة نشر الثقافة

الاسلامية بالقاهرة) .

- السيوطي (+ ٩١١ هـ) : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين
 بأمر الأمة (المطبعة المنيرية ١٣٥١ هـ) .
- الشهرستاني (٥٤٨ هـ) : الملل والنحل (القاهرة ١٩٤٨) .
- الشيبياني : الجامع الصغير في الفقه (المطبعة الأميرية ١٣٠٢ هـ) .
- ابن طباطبا (٧٠١ هـ) : الفخرى في الآداب السلطانية والدول
 الإسلامية (المطبعة الرحمانية بالقاهرة ١٣٤٠ هـ) .
- الطبري (+ ٢١٠ هـ) : تاريخ الأمم والملوك (المطبعة الحسينية
 بالقاهرة) .
- ابن طولون : قيد الشريد من أخبار يزيد (مخطوط بدار الكتب
 المصرية رقم ١١٣٢ تاريخ) .
- أبو عبيد : الأموال (المطبعة التجارية ١٣٥٣) .
- ابن عبد الحكم : (٢١٤ هـ) سيرة سيدنا عمر بن عبد العزيز
 (المطبعة الرحمانية بالقاهرة ١٩٢٧) .
- ابن عبد ربه : (٤٣٩ هـ) العقد الفريد (لجنة التأليف
 بالقاهرة ١٩٤٨) .
- عبد الرزاق الموسوي المكرم : الشهيد مسلم بن عقيل
 (النجف ١٩٥٠) .
- ابن العبري : تاريخ مختصر الدول (بيروت ١٨٩٠) .
- ابن العربي : (٥٤٣ هـ) العواصم من القواصم (المطبعة
 السلفية ١٣٧١ هـ) .
- عبد العزيز الدوري : الدكتور : مقدمة في تاريخ صدر الإسلام
 (بغداد ١٩٤٩) .

ابن عساكر (٥٧١ هـ) تهذيب التاريخ الكبير (دمشق ١٣٣٢ هـ) .

على بن الحسين الهاشمي النجفي : محمد بن الحنفية

(طهران ١٣٦٨ هـ) .

على حسنى الخربوطلى : الدكتور : فجر القومية العربية فى القرن

الأول الهجرى (القاهرة ١٩٥٨) .

- تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى (دار المعارف ،

القاهرة ١٩٥٩) .

- القومية العربية من فجر الى الظهر (الحلبي ،

القاهرة ١٩٥٩) .

- محمد والقومية العربية (القاهرة، طبعتان ١٩٥٩ و ١٩٦١)

- المجتمع العربى (مؤسسة المطبوعات الحديثة

بالقاهرة ١٩٦٠) .

- العرب ورسالتهم الانسانية (دار المعارف القاهرة ١٩٦٠)

- الدولة العربية الاسلامية (الحلبي ، القاهرة ١٩٦٠) .

- المجتمع العربى فى العصور الوسطى ، ترجمة لكتاب

١٠٠٠ لى (الدار القومية بالقاهرة ١٩٦٠) .

- حياة محمد ، ترجمة لكتاب و . ارفنج (دار المعارف ،

القاهرة ١٩٦٠) .

- الحضارة الاسلامية ، ترجمة لكتاب خودانجش (الحلبي ،

القاهرة ١٩٦١) .

- غروب الخلافة الاسلامية (مؤسسة المطبوعات

الحديثة ١٩٦٢) .

- الحضارة العربية الاسلامية (مكتبة الأنجلو بالقاهرة ١٩٦٢)
- ملكية الأراضي في الدولة العربية الاسلامية .
- المسجد في فجر الاسلام (مجلة جامعة عين شمس) .
- مصر العربية الاسلامية (الأنجلو ١٩٦٣) .
- عمر أبو النصر : الخوارج في الاسلام (بيروت ١٩٤٩) .
- فخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ) : اعتقادات فرق المسلمين
والمشركين (لجنة التأليف ١٩٣٨) .
- أبو الفدا : (٧٣٢ هـ) المختصر في أخبار البشر (المطبعة الحسينية
بالقاهرة) .
- فيليب حتى : تاريخ العرب (دار العالم العربي ، القاهرة) .
- ابن قتيبة : (+ ٢٧٦ هـ) الامامة والسياسة (القاهرة ١٣٢٥ هـ)
- المعارف (المطبعة الاسلامية ١٩٣٥) .
- ابن كثير : (٧٧٤ هـ) البداية والنهاية (مطبعة السعادة
بالقاهرة) .
- الكندى (+ ٣٥٠ هـ) : كتاب الولاء وكتاب القضاة (بيروت ١٩٠٨)
- الماوردي (+ ٤٥٠ هـ) : الأحكام السلطانية (مطبعة
الوطن ١٢٩٨ هـ) .
- محمد جمال الدين سرور : الدكتور : الحياة السياسية في الدولة
العربية الاسلامية (القاهرة ١٩٦٠) .
- المسعودي : (+ ٣٤٦ هـ) مروج الذهب ومعادن الجوهر (مطبعة
دار الرجاء بالقاهرة) .
- - التنبيه والاشراف (مكتبة الشرف الاسلامية ١٩٣٨) .
- الملطي (٣٧٧ هـ) : التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع
(القاهرة ١٩٤٩) .

- ابن التديم (+ ٢٨٣ هـ) : الفهرست (المطبعة الرحمانية ١٣٤٨ هـ)
 نشوان الحميرى (٥٧٣ هـ) : شرح رسالة الحور العين وتنبيه
 السامعين (القاهرة ١٩٤٨) .
 النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب (دار الكتب ١٩٣١) .
 ابن هشام : (٢١٨ هـ) كتاب سيرة النبي (القاهرة ١٣٥٦ هـ) .
 اليعقوبى : (٢٨٢ هـ) تاريخ اليعقوبى (النجف ١٣٥٨ هـ) .
 أبو يوسف : (+ ١٩٢ هـ) كتاب الخراج (المطبعة
 الأميرية ١٣٠٢ هـ) .

ثانيا : مصادر أجنبية مترجمة

- أرنولد : الدعوة الى الاسلام (القاهرة ١٩٤٧) .
 بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية (بيروت ١٩٤٨) .
 جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام (القدس ١٩٢٨) .
 جولدتسيهر : العقيدة والشريعة فى الاسلام (القاهرة ١٩٤٦) .
 دوزى : نظرات فى الاسلام (الحلبي ١٩٣٣) .
 ديمومبين : النظم الاسلامية (بغداد ١٩٥٢) .
 رونلدسن : عقيدة الشيعة (مطبعة السعادة ١٩٤٦) .
 سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى (لجنة
 التأليف ١٩٣٨) .
 سيديو : تاريخ العرب العام (الحلبي ١٩٤٨) .
 فان فلوطن : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد
 بنى أمية (القاهرة ١٩٤٥) .
 فلهوزن : الخوارج والشيعة (القاهرة ١٩٥٨) .
 كريم : الحضارة الاسلامية ومسئولياتها بالموثرات الأجنبية
 (دار الفكر العربى بالقاهرة) .
 المودودى : نظام الحياة فى الاسلام (دمشق ١٩٥٨) .

- Brown : Literary History of Persia (London 1905).
- Gibb and Kramers : Shorter Encyclopaedia of Islam (Leiden 1953).
- Hell : The Arab Civilization (Lahore 1943).
- Kremer : The Orient Under the Caliphs, (Calcotta 1920).
- Lammens : L'Islam, Croyances et Institutions (Byrouth 1926).
- Lammens : Etudes sur la Siècle des Omyyades (Byrouth 1936).
- Muir : The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall (London 1924).
- Nicholson : Literary History of the Arabs (London 1923).
- Noldke : Sketches from Eastern History (London 1892).
- Ockly : The History of the Saracens (London 1847).
- Quatmer : Memoire Historique sur la vie d'Abd Allah ben Zobaïre (Journal Asiatique 25 érie IX, Avril 1832).
- Sykes : History of Persia, (London 1921).
- Wellhausen : The Arab Kingdom and its Fall (Calcotta 1927).

فهرس

٣	مقدمة
٧	١ - المختار : قبيلته ، أسرته ، شخصيته ، صفاته
٤٥	٢ - فجر حياة المختار السياسية
٧٧	٣ - المختار وزير عبد الله بن الزبير بالحجاز
١١٥	٤ - المختار الرجل الأول في العراق
١٥٩	٥ - حكومة المختار في العراق
١٧٩	٦ - موقف المختار من الدولة الأموية
٢٠٥	٧ - موقف المختار من الشيعة وبنى هاشم
٢٢٧	٨ - موقف المختار من الحركة الزبيرية
٢٥٥	٩ - موقف المختار من الخوارج
٢٧٩	١٠ - موقف المختار من الموالي
٢٩٣	١١ - نهاية المختار والحركة المختارية
	١٢ - أثر المختار في تاريخ العصر الأموي (السياسي ، الديني ، الاجتماعي ، الاقتصادي)
٣٢١	المصادر
٣٥٧	

